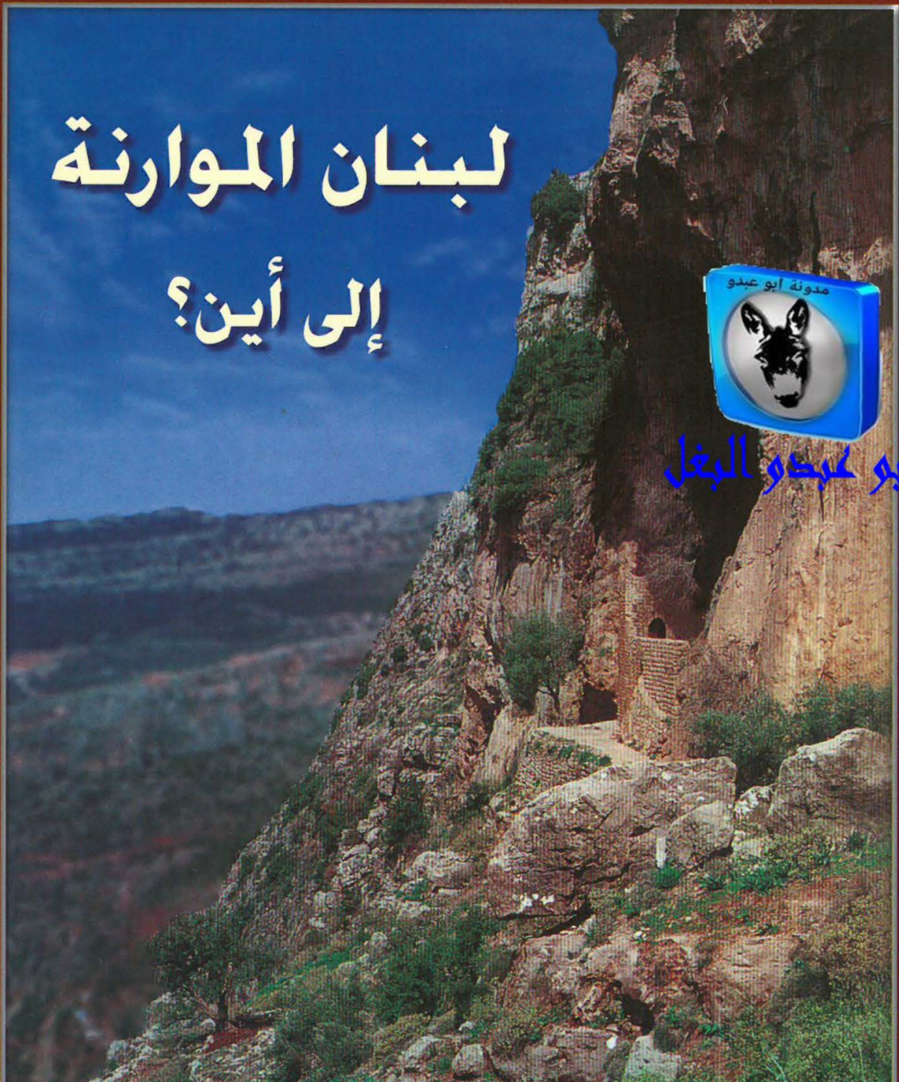
الأباتي بولس نعمان

لبنان الموارنة

إلى أين؟



دار سائر المشرق

الأباتي بولس نعمان

لبنان الموارنة

إلى أين؟

سائر المشرق

الطبعة الأولى 2014

جديدة المتن - نهر الموت
سنتر بايلايان - الطابق السابع
هاتف وفاكس: 01-900624
info@entire-east.com
www.entire-east.com

تصميم وتنفيذ: جوني كارليتش

ISBN 978-9953-569-67-3

لبنان الموارنة
إلى أين؟

مقدمة

هذا الكتاب أو هذه المجموعة من المقالات، التي ترسم تباعاً، ومع تطوّر الأحداث، معاناة اللبنانيين الفكريّة والوجوديّة، بالنسبة إلى هذا السؤال حول وطنٍ، عمل له الموارنة القدامى، كما قال الدكتور شارل مالك، بعناد وثبات وإخلاص، وطن للحريّة والعيش الكريم، في شرقٍ مضطرب أبداً، يعيش اليوم صراعاً مميتاً مع ذاته. صراع قد يطال كلّ مكوّنات لبنان، بمن فيهم الموارنة، ويؤدي بهم، لا سمح الله، إلى الكفر بما حققوه، وطناً مثالاً للتطوّر الخلاّق والحداثة.

في المقالات الأولى، دراسات وتحاليل تستعرض التاريخ، كيف تولّدت فكرة لبنان المستقلّ، وكيف تطوّرت وتحققت، وعلى أيّة أسسٍ ومبادئ خلقيّة وإنسانيّة قامت، وكيف تَنَظّم الموارنة بقيادة دينيّة ومدنيّة موحّدة، وألّفوا مجتمعاً متراص البنيان. ولماذا انتقلوا من السهول، في محيط نهر العاصي بالقرب من العاصمة أنطاكية، إلى السهل الواسع المخصاب

قرب منبع العاصي في الهرمل، ثمّ تسلّقوا، على مراحل، الجبل اللبناني، من الأرز إلى جبال بسكنتا والوديان السحيقة بينهما.

وفي الكتاب أيضاً استعادة لما كان عليه دور البطاركة في تكوين هويّة هؤلاء المهاجرين، وفي رسم الخطوط العريضة لعملهم ورسالتهم في هذه المنطقة من الشرق. وبفضل قيادة مجـرّدة واعية، كَوّنوا لهم حُضوراً إنسانيّاً مفيداً وفاعلاً، استأنس به قادة المحيط القريب، من أمراء وحكّام مقاطعات، كما استهوى الغزاة والطامحين إلى التوسّع، من المماليك إلى الفرنجة وغيرهم.

ولمّا نَعِموا بفترة من الاستقرار، ونظّموا حياتهم الداخليّة ومتّنوا صداقاتهم مع المحيط، بإخلاصهم وأمانتهم وعملهم المفيد، مدّوا يدهم إلى الحكّام والأمراء الطامحين إلى العمل المنظّم والازدهار الداخلي، والراغبين في الانفتاح على القوى الخارجيّة، لتساعدهم على التخفيف من ثقل الكابوس العثماني على كواهلهم.

ولمّا لم يجد هؤلاء سوى الموارنة من يساعدهم على البنيان الداخلي وعلى الانفتاح على القوى الخارجيّة الفاعلة، أشركوهم في الحكم وسهّلوا لهم إمكانيّة التوسّع والانتشار، واقتناء الاراضي واستصلاحها.

فبدأ الموارنة بالعمل الجاد والبنّاء في الحقلين، الداخلي والخارجي، بصدق وأمانة وانفتاح على التطوّر العلمي الحديث، فحققوا حضوراً فاعلاً ومفيداً في المحيط القريب والبعيد وعملوا بشجاعة وجرأة من أجل اهدافٍ تُختَصر بثلاثة:

1- وضع الأسس لوطن تعدّدي منفتح على الجميع.

2- نضال مستمرّ في سبيل الحريّة والعيش الكريم.

3- تحديث اللّغة والثقافة، في تطوّرٍ دائم مع الحضارة العالميّة.

وقد كتب المؤرّخ كمال الصليبي في وصفه للدور الذي قاموا به:

"لقد تمكّنوا عبر العصور، وهم الشعب الصغير، من المحافظة على هويتهم التاريخيّة... كما تمكّنوا، من دون تصوّرٍ وتصميم، من المحافظة على حقّ الانسان في الحريّة والعيش الكريم ومن المساهمة في خَلق وطنٍ يضمن هذا الحقّ لأبنائه[1]..."

أو كما دوّن الشاعر والأديب عبّاس بيضون في مقال له في ملحق النهار، بعنوان "من يدعو الموارنة إلى التخلّي عن لبنان"[2] حيث قال:

"أعطى المسيحيون لبنان نظامه، فهم مركز الدولة والاقتصاد والسياسة والثقافة وأساليب العيش وأنماطه... وهذه جميعها تعكس علاقتهم وتفاعلهم مع المحيط والعالم... لقد تماهوا مع لبنان وتمّ لهم وحدهم أن يجعلوا من تاريخهم وثقافتهم تاريخاً سائداً وثقافة سائدة... **من الصعب بعدُ العودة إلى ما وراء الدولة كما صاغها الموارنة**، إلّا في دعوة إلى الخلافة (أيّ دولة إسلاميّة) أو إلى لبنان الصغير، لا يتبنّاها السلفيون أنفسهم..."

ولمّا تطوّر لبنان وتعدّدت طوائفه ومكوّناته، طمحوا إلى الاستقلال، وعندما تحقق حلم الكنيسة بإعلان دولة لبنان الكبير، في أوّل ايلول

1- **كمال الصليبي**، ملف النهار، 1970.
2- **عباس بيضون**، ملحق النهار، 22 شباط 1997.

1920، وبعدما أُقرَّ لهذه الدولة بدستور جعل منها جمهوريّة مستقلّة، تَخلّى الموارنة عن القيادة السياسيّة، ولكنّهم لم يستقيلوا من خدمة لبنان كما كتب كمال الصليبي في دراسته الرائعة عن "الموارنة، صورة تاريخيّة"[3]:

"قامت الجمهوريّة، تجسّد الفكرة التي نادى بها الموارنة، لتحلّ مكان الكنيسة المارونيّة في القيادة الوطنيّة، لذا كان من الطبيعي أن تستمرّ الكنيسة المارونيّة في اهتمامها بالشؤون اللبنانيّةعامةً، والغيرة على الكيان اللبناني الذي سعت جهدَها عبر القرون إلى تحقيقه... إلّا أنّ الفكرة اللبنانيّة، وإن يكن الموارنة هم الذين دعوا إليها في الأصل، تفترض مبدئيّاً ألّا يكون لبنان وقفاً على الموارنة وحدهم، بل لجميع اللبنانيين على السواء شرط أن يتحمّل الجميع مسؤولياتهم تجاه الوطن والقيم الانسانيّة التي يرتكز عليها..."

ثمّ ينهي بحثه بهذا النداء الأُمنية... "والجمهوريّة اللبنانيّة التي تجمع اليوم بين اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم تستمرُّ، عن وَعْيٍ، في حمل الرسالة التي حملها الموارنة في الماضي تلقائيّاً، **وقد تأتي ظروفٌ تسمح للبنانيين بأن ينقلوا هذه الرسالة إلى غيرهم**".

إن تراجع الكنيسة عن القيادة والتخطيط كان أمراً طبيعيّاً، لأنّ المسيحيين أصبحوا جزأً من الوطن والدولة، وهذه كانت رغبتهم منذ البدء: إنشاء دولة حديثة حسب النظم الديمقراطيّة المعروفة. إلّا أن تعدّد المرجعيات السياسيّة، والتنافس فيما بينها، ومع التنافس تحصل المزايدات

3- **كمال الصليبي**، مرجع سابق.

والتنازلات، عطّلت النشاط السياسي المسيحي تدريجيّاً، إلى أن أصبح شبه معدوم مع التدخّل السوري في نهاية الحرب على لبنان سنة 1990.

كما تعَمَّقت الأزمة بعد جريمة كنيسة الذوق في 27 شباط 1994 واخذت طابع الاستهداف المتعمّد للمسيحيين، من قبل الدولة السوريّة والحكم التابع لها في لبنان، ليطال الاحزاب المؤمنة بلبنان، والشبيبة المناضلة، والانتخابات، واخيراً التطبيق الانتقائي لاتفاق الطائف. ثمّ أنّ هذا الاستهداف المباشر تعدّى الأفراد والأحزاب ليطال الوطن في حرّيته واستقلاله واكثر مقوّماته.

وبدل أن يحمل تحرُّر لبنان، من السيطرة السورية سنة 2005، إلى البلد استعادة الثقة بنفسه وفرصة بلورة وإطلاق مشروعه وتجربته، تبين أن البنية السياسية اللبنانية قد أصبحت متهالكة. ولم يعد من الممكن أن يتفاهم اللبنانيون على تشكيل حكومة، أو انتخاب رئيس للجمهورية، أو إقرار قانون للانتخابات النيابية، **ما لم يتدخل وسيط خارجي. فيما القادة الموارنة يبدون بعيدين عن كواليس التسويات والترتيبات والسياسات المحددة للاتجاهات الرئيسية للبنان.**

هنا يتساءل المخلصون للقضيّة اللبنانيّة، هل أُخمِدت الشعلة في نفوس اللبنانيين؟ هل تضاءلت حيوية القادة وعزيمتهم؟ هل فقدوا روح المارونيّة المناضلة؟ حتى تقلّصت مسؤليتهم عن لبنان الحرّ، الذي بلغ الأوجّ، عندما رفع الدكتور شارل مالك باسم لبنان راية حقوق الانسان في الأمم المتّحدة؟

1920، وبعدما أُقرَّ لهذه الدولة بدستور جعل منها جمهوريّة مستقلّة، تَخلّى الموارنة عن القيادة السياسيّة، ولكنّهم لم يستقيلوا من خدمة لبنان كما كتب كمال الصليبي في دراسته الرائعة عن "الموارنة، صورة تاريخيّة"[3]:

"قامت الجمهوريّة، تجسّد الفكرة التي نادى بها الموارنة، لتحلّ مكان الكنيسة المارونيّة في القيادة الوطنيّة، لذا كان من الطبيعي أن تستمرّ الكنيسة المارونيّة في اهتمامها بالشؤون اللبنانيّةعامةً، والغيرة على الكيان اللبناني الذي سعت جهدَها عبر القرون إلى تحقيقه... إلّا أنّ الفكرة اللبنانيّة، وإن يكن الموارنة هم الذين دعوا إليها في الأصل، تفترض مبدئيّاً ألّا يكون لبنان وقفاً على الموارنة وحدهم، بل لجميع اللبنانيين على السواء شرط أن يتحمّل الجميع مسؤولياتهم تجاه الوطن والقيم الانسانيّة التي يرتكز عليها..."

ثمّ ينهي بحثه بهذا النداء الأُمنية... "والجمهوريّة اللبنانيّة التي تجمع اليوم بين اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم تستمرُّ، عن وَعْيٍ، في حمل الرسالة التي حملها الموارنة في الماضي تلقائيّاً، **وقد تأتي ظروفٌ تسمح للبنانيين بأن ينقلوا هذه الرسالة إلى غيرهم**".

إن تراجع الكنيسة عن القيادة والتخطيط كان أمراً طبيعيّاً، لأنّ المسيحيين أصبحوا جزأً من الوطن والدولة، وهذه كانت رغبتهم منذ البدء: إنشاء دولة حديثة حسب النظم الديمقراطيّة المعروفة. إلّا أن تعدّد المرجعيات السياسيّة، والتنافس فيما بينها، ومع التنافس تحصل المزايدات

3- **كمال الصليبي**، مرجع سابق.

والتنازلات، عطّلت النشاط السياسي المسيحي تدريجيّاً، إلى أن أصبح شبه معدوم مع التدخّل السوري في نهاية الحرب على لبنان سنة 1990.

كما تعَمَّقت الأزمة بعد جريمة كنيسة الذوق في 27 شباط 1994 واخذت طابع الاستهداف المتعمّد للمسيحيين، من قبل الدولة السوريّة والحكم التابع لها في لبنان، ليطال الاحزاب المؤمنة بلبنان، والشبيبة المناضلة، والانتخابات، واخيراً التطبيق الانتقائي لاتفاق الطائف. ثمّ أنّ هذا الاستهداف المباشر تعدّى الأفراد والأحزاب ليطال الوطن في حرّيته واستقلاله واكثر مقوّماته.

وبدل أن يحمل تحرُّر لبنان، من السيطرة السورية سنة 2005، إلى البلد استعادة الثقة بنفسه وفرصة بلورة وإطلاق مشروعه وتجربته، تبين أن البنية السياسية اللبنانية قد أصبحت متهالكة. ولم يعد من الممكن أن يتفاهم اللبنانيون على تشكيل حكومة، أو انتخاب رئيس للجمهورية، أو إقرار قانون للانتخابات النيابية، **ما لم يتدخل وسيط خارجي. فيما القادة الموارنة يبدون بعيدين عن كواليس التسويات والترتيبات والسياسات المحددة للاتجاهات الرئيسية للبنان.**

هنا يتساءل المخلصون للقضيّة اللبنانيّة، هل أُخمِدت الشعلة في نفوس اللبنانيين؟ هل تضاءلت حيوية القادة وعزيمتهم؟ هل فقدوا روح المارونيّة المناضلة؟ حتى تقلّصت مسؤليتهم عن لبنان الحرّ، الذي بلغ الأوجّ، عندما رفع الدكتور شارل مالك باسم لبنان راية حقوق الانسان في الأمم المتّحدة؟

وهل فقد الشعب أيضاً الاحساس بأنّه يمثّل المسيح والقيم المسيحيّة في هذه المنطقة، حتى بدأ يفكّر بالهجرة، وبالمصالح الشخصيّة الخاصة؟ هل تغلّبت الأنانيّات على الأهداف التي ناضل في سبيلها الأباء والأجداد، علماً بأنّ العيش من أجل الأهداف هو الذي حفظنا في الوجود حين ذابت أمم كثيرة في هذا الشرق؟!

هذا الكلام يَبعُد كثيراً عن التشاؤم ولكنّه يؤكّد، في الوقت عينِه، على حقيقةٍ ثابتة، وهي أنّ المسيحيّ والمارونيّ أقيما في هذه المنطقة، وفي هذا الظرف بالذات، حتى يساعدوا العناية الإلهيّة في عملها الخفي. والتاريخ يُعلِّمنا أنّ العناية الإلهيّة، ومَسيرة التاريخ يرذلان شعوباً وأمماً ويغيِّبانها من الوجود إذا تخلّت عن رسالتها. كما يُظَهِّران ويُبَرِّزان أمماً غيرها، حتى يبقى التاريخ سائراً إلى الأمام.

فعلى المسيحيين والموارنة أن يعرفوا أنّهم خاضعون لهذه القاعدة الثابتة، فإذا لم يستفيقوا اليوم ويساعدوا على نشوء نخبة تقود، بتجرّدٍ ووفق وعيهم الروحي والتاريخي، فسوف يزولون حتماً وتحلّ محلّهم شعوب اخرى أكثر كفاءة، تكمّل مسيرة المسيحيّة والتاريخ، في هذا الشرق.

إنّ هذه الحقيقة، وإنّ شكّلت إنذاراً، هي للبُنيان لا للهدم، وها هي الشعوب الشرقيّة بدأت تنتفض، ولا بدّ من أن تلاقي الخطّ الصحيح والباني للمفهوم الإنساني.

فلا يكفي التغنّي بالتاريخ والماضي، **بل الأهمّ خلق مجتمع جديد يكمّل عمل التاريخ، وهذا ما لا نراه واضحاً في طريقة عيشنا وتربيتنا وسياستنا راهنا.**

لذا فكّرت أن أُنعِشَ الذاكرة وأكرّر بعضاً ممّا عانيته وعبّرت عنه في محاضرات أو مقالات سابقة، متسائلاً عن صحّة وسلامة الأسس التي بُنِيَ عليها لبنان، لا لنقضها بل لؤأكّدها من جديد للإنسان السياسي الذي أفسدها وجعلها تبان غير صالحة.

كما دعوت لنخبة جديدة من القادة والمفكّرين، قادرة ومُجرّدة، تدرس بالعمق وضع لبنان في أسسه القديمة، بالمقابل مع التطوّرات الجديدة، الفكريّة والاجتماعيّة، في ضوء الأزمات الحاضرة للمنطقة، كما توجهت أخيراً إلى اللبنانيين **بسؤالٍ وأمنية**:

وهو السؤال الذي يطرحه اللبنانيون اليوم عندما يرَون الأزمات تتوالى والأعاصير تعصف من كلّ جهة وصوب، وأركان البيت تتزعزع، والمبادرات الخجولة تنهار، ولا حلول، ولا مَن يتطوّع لإطفاء الحريق وتخليص البلد من الأزمات الداخليّة والخارجيّة: **هل انقضى عهد الكبار** الذين صنعوا الاستقلال وضحّوا بذواتهم؟

يقول الدكتور شارل مالك في محاضرة ألقاها في جامعة الروح القدس بعنوان "الطاقات المارونيّة في لبنان والعالم" سنة 1974، "الذي يبتدئ بلبنان، كما ابتدأ به أنا، لا يسعه إلاّ أن يُحبّ المارونيّة من الأعماق. فممّا لا جدل فيه، أنّه لولا المارونيّة لما وُجِدَ لبنان... كلّنا مسؤلون عن لبنان... غير أن الموارنة مسؤلون بشكل خاص وفي الدرجة الأولى، فإن توانَوا، وقعنا جميعاً في الخيبة والحيرة والبلبلة، وإن حَزَموا أمرهم وقادوا، اشتدّت عزيمتنا وصرنا جميعاً صفّاً واحداً متراصاً. مصير لبنان يقع في الدرجة الأولى على عاتق الموارنة، وهذا لا يعني

مطلقاً أنّ اللبناني اللا ماروني غير مدعوٌّ لأن ينافس الموارنة في المسؤليّة التامة عن هذا المصير...»

أما الأمنية فقد استوحيتها من المفكّر الأفريقي Léopold Sédar Senghor الذي قال: "اعتنقتُ اللغة الفرنسيّة لغة حضارة لأُخرج العالم الأسود الثقافي من المتحف"... أمّا نحن فبفضل المثابرة والجهاد، كما بمساعدة فرنسا، قد خرجنا من المتحف، منذ زمن بعيد، وهذا الخروج يحتّم علينا ويُحرِجُنا أن نعمل بجدّ وإخلاص للمساعدة في إطلاق المحيط من المتحف، لئلا يجرفنا المحيط إلى متحف التاريخ ليكمّل هذا التاريخ السائر إلى الأمام الأعمال المهمّة والخلّاقة التي لم تبلغ كمالها...

وفي إحدى محاضراتي التي كتبتها في بدء مسيرتي الملتزمة بالشؤون الوطنية قلت، بعد أن سيطرت عليّ مَسحة من التشاؤم:

لن أترك المنبر قبل أن أُشَرِّع باباً يتعدّى الأفراد والجماعات وغاياتهم وطموحاتهم الزمنيّة وكنت أعيش واعياً تمام الوعي أزمة لبنان.

أنا لن أستلهم في جوابي هذا أزمة لبنان اليوم، مخافة أن يخيب أملي غداً، جوابي سأستوحيه من الحقائق الأزليّة.

فالتاريخ في أبعاده القصيّة هو ديني، والعناية الإلهيّة تهزأ من مخطّطاتنا وتصوّبها نحو كمال خطّتها، لأنّ فكرة مصير الأمّة، كما قال المفكّر الروسي Vladimir Soloviev: "ليست فيما تسعى إليه في الزمن بل في ما أُعِدَّت له منذ الأزل"، لأنّ الله، كما يقول الكتاب المقدّس، يخلق مِن الحجارة من يكمّل مخطّطَه.

لبنان الموارنة إلى أين؟

إمّا نخبة تقود بتجرُّد، أو نزوح إلى متحف التاريخ!

الأباتي بولس نعمان

الكسليك، في 9 شباط 2014*

---

* أعتذر مسَبقاً عن بعض الترداد، وعن تكرار بعض الاستشهادات ببعض المفكرين والكتّاب غير الموارنة، لأن هذا الكتاب هو مجموعة مقالات ومحاضرات ظهر معظمها في الصحف في مناسبات مختلفة وظروف قاهرة.

المارونيّة والمدرسة الإنطاكيّة[4]

يسرّنا أن نقدّم لقرّائنا الكرام، حضرة الأب نعمان، وهو إختصاصي في تاريخ الكنيسة عامةً والكنيسة الشرقيّة المارونيّة خاصةً. وقد حصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة الغريغوريّة بروما. من ميزات المؤرّخ الأولى الموضوعيّة النزيهة. وهذه أبرز صفات كاتبنا. وهو أستاذ التاريخ في جامعة الروح القدس.

إنّ المقال الحاضر إظهار للجذور الروحيّة التي تمتدّ بعيداً في تاريخ الكنيسة المارونيّة، فتصلها بتقاليدها "الرهبانيّة" الأولى، وهو مقدّمة لإيضاح حقبة غامضة في تاريخ الطوائف المسيحيّة في الشرق.

(الأدارة)

الموارنة، تلك الفئة الدينيّة التي بدت منظّمة الصفوف عهد الصليبيين
والأتراك، لها أصول تترك المؤرّخ في حيرة، يسأل ما الذي يقيم وجودهم في تاريخ الكنيسة؟ ما الفكرة التي يبطّنون أو يُظهرون؟

4- الوحدة، مجلّة دينيّة، مسكونيّة، شرقيّة / كانون الأول، آذار 1969، ص 26 – 45.

ما المبدأ - الهدف الذي يحرّكهم؟ ما الكلمة - الرسالة التي يحملون؟ أو أُعِدّوا لحملها؟

أسئلة جمّة تتبادر للذهن فيحار في الإجابة عليها. فهو لن يستلهم في جوابه واقع موارنة اليوم، مخافة أن يخيب أمله غداً. حلّه الوحيد سيستوحيه من الحقائق الأزليّة. لأنّ فكرة مصير الأمّة، كما يقول سولوفيف Soloviev، ليست فيما تسعى إليه في الزمن الحاضر بل فيما أعدّت له منذ الازل، خاطرة كهذه لا تناقض الأبحاث العلميّة بل عكس ذلك نستجلي بها، من خلال حوادث التاريخ، خطّة الله فينا. فالله، كما نعلم، قد كلّم العالم بالأحداث وعنايته تتناول مخطَطات البشر، وتصوّبها جميعاً إلى كمال هذه الخطّة بالذات.

فنحن على يقين من أنّ التاريخ في أبعاده الأخيرة هو بجوهره دينيّ. هذه نظرتنا إلى تاريخ الأمم، وهذا ما حدا بنا إلى إعادة النظر في الأسباب البعيدة التي كفلت للموارنة هذا الوجود. وبغية توفير الظروف لحكم موضوعيّ، مبني على قواعد النقد الحديث، حرصنا على الرجوع إلى المصادر الأولى التي تعرّضت بالبحث لذكر أصول الموارنة وهي بأكثرها مصادر مطبوعة، إنّما لم تُدرَس بعد دراسة وافية. نخصّ بالذكر:

1- تاريخ احبّاء الله (Philotheon Historia) للكاتب تيودوريه القورشي (397 - 457). هذا الكتاب نعتبره السفر الأول من تاريخ الموارنة، سوف يُنشر قريباً في مجموعة المناهل المسيحيّة.

2- رسائل تيودوريه القورشي ذاته، وقد صدرت في ثلاثة أجزاء في مجموعة المناهل المسيحيّة ايضاً.

3- ثمّ بعض الرسائل والمؤلّفات التي كتبها او تلقّاها رهبان دير مارون في العصرين السادس والسابع، وهي قليلة جدّاً، وقد نُشِر أكثرها بعناية العالم F. Nau، وقد تثبّتنا منها شخصيّاً في المكتبات التي حُفظت فيها، فوجدنا بعض الفروقات التي ساعدتنا على توضيح نقاط كانت لا تزال غامضة.

ولكي نكون اكثر وضوحاً في معالجة هذا الموضوع، قسمناه إلى صفحات او لوحات:

لوحة أولى، عن تاريخ الرهبان في سوريا الشماليّة.

لوحة ثانية، عن التباين العقائدي بين المدارس الفكريّة، والتنافس السياسي بين سوريا ومصر.

لوحة ثالثة، عن دور الرهبان في هذا النزاع.

لوحة رابعة، وفيها ننهي بخلاصة عن ظروف تأسيس دير مارون بجوار افاميه.

- 1 -
تاريخ الرهبان في سوريا الشماليّة

في أواخر القرن الرابع للمسيح، أو حوالي سنة 370 - 380، لهج سكان منطقة قورش بقداسة ناسكَين مُعاصرَين هما: مارسيان ومارون. عُرِف الأول بحياته النسكيّة المعتدلة التي تأخذ بالحكمة في مهادنة الجسد. واشتهر الثاني بإماتاته القاسية وتقشّفاته المذهلة.

آمن مارسيان بأنّ حياة المسيحي المثاليّة، هي إقتداء بحياة السيّد الذي كان ينمو بالحكمة والمعرفة أمام الله والناس. ولم يتصوّر مارون المسيح إلّا مصلوباً، ومن يُمكِنه الرقاد والراحة، قال باسكال، ونقاط الدمّ تتساقط من الصليب على الجلجلة؟

فاختط مارون لنفسه طريقاً جديداً، وفتح للراغبين في التقشّف باب النسك في العراء (Bios Upaïtros)، مفترشاً الأرض، ملتحفاً السماء، يقاسي برد الشتاء وحرّ الصيف. قال عنه تيودوريه مؤرّخ حياته الوحيد: "لم يكتف مارون بأنّ يُمَرِّس نفسه بالتقشّفات المألوفة، بل كان يزيد عليها ما ابتكرته حكمته، جمعاً لغنى الحكمة الكاملة، فقصد جبلاً وكرّس لله الهيكل الوثني المخصص منذ القديم لعبادة الضلال، صارفاً ايامه ولياليه تحت قبّة السماء".

فمارون، كما استنتج الباحثون، هو الرائد والمؤسس الأوّل لطريقة النسك في العراء، الطريقة التي سوف يأخذ بها فيما بعد القديس سمعان العامودي.

فبعد أن ذاع خبر قداسته اجتذب إليه عدداً من التلاميذ رجالاً ونساءً. ولم تمضي مدّة حتّى غدا اكثر نسّاك منطقة قورش من تلامذته. ولمّا وصل الأسقف الشاب، تيودوريه، سنة 423 ليتقلّد رعاية أبرشيّته، وجد أنّ القديس مارون هو الذي غرس لله هذا البستان، وقد ازدهر في أنحاء قورش قاطبة.

أمّا مارسيان فلم يكن أقلّ شهرة من مارون، إلّا أنّه كانت له في الحياة الرهبانيّة اهداف تختلف عن أهداف مارون فكان يميل طبعاً إلى الرسالة، ولهذا، نراه يوجّه تلامذته شطر افاميه التي لم تكن بعد قد طغت عليها الصبغة المسيحيّة بغية إنشاء منظّمة رهبانيّة. يذكر تيودوريه في تاريخه أنّ سمعان (غير العامودي) واغابيتوس، تلميذَي مارسيان، ذهبا إلى النقيره Nikertai، وهي بلدة بالقرب من افاميه، فأسسا هناك ديراً وعنه نشأت أديرة عدّة تخضع جميعها لنظام نسكي واحد وتتصف بروح واحدة، روح المؤسس مارسيان.

أمّا لماذا اختار مارسيان وتلامذته منطقة افاميه وهي من قورش على زهاء 150 كلم؟ فهذا ما نحن موجوزون توضيحه:

كانت أفاميه في ذلك الزمن تُعرف بعاصمة سوريا الداخليّة الآراميّة، حيث يجتمع أكبر عدد من الآراميين، سكان سوريا الصرحاء، فهي من هذا القبيل أمتن وحدة وأشدّ سورية من العاصمة انطاكية، لأنّ العنصر الدخيل كان قد طغا على أنطاكية وسادتها الحضارة اليونانيّة مكان الحضارة السريانيّة، وعلم الأثار قد افادنا أنّ افاميه لم تسيطر عليها المسيحيّة إلّا في القرن الرابع، وقد كانت حتّى ذلك التاريخ مُلتقى لمختلف

الحضارات التي انتقلت إليها عن طريق حمص وفلسطين جنوباً، وطريق قورش وآسيا الصغرى شمالاً، وطريق حلب ومنبج شرقاً، وطريق أنطاكية وقيليقيا غرباً، وقد تأسست فيها، خلال القرن الرابع، مدرسة من أقوى المدارس الفلسفيّة عُرِفت بمدرسة الفيلسوف جمبليك Jamblique القديم، ومن المحتمل أنّ بطء إنتشار المسيحيّة في تلك الأنحاء كان معلولاً لأثر تلك المدرسة.

وقولنا أنّ الدير أنشِئ ليكون منطلقاً لرسالة مسيحيّة، هو أكثر من احتمال، خاصة إذا علمنا أنّ رئيس الدير ومؤسسه اغابيتوس قد اصبح فيما بعد اسقفاً على المدينة. وسوف يخلفه اسقف آخر اسمه بوليخرونيوس Polychronius، شقيق تيودور الموبسويستي Théodore de Mopsueste أحد كبار مؤسسي المدرسة الإنطاكيّة التي سوف تتأصّل جذورها في هذه المدينة.

فالدير والمنظّمة التي تفرّعت عنه سوف تجتذب إليها مع الزمن عدداً كبيراً من الرهبان نظراً لإنفتاح أنظمتها وقوانينها على العلم والمعرفة. ومن بين الذين اجتذبتهم إليها الشاب الإنطاكي الثري تيودوريه، فهو نفسه يخبرنا انّه عندما توفي والداه باع كلّ مقتناه ووزّعه على المحتاجين، ثمّ قصد دير النقيره قرب أفاميه، وكان عدد سكّانه نيّفاً وأربع مئة راهب، وأمضى هناك سبع سنوات من 416 إلى 423 عائشاً عيشة مشتركة، مصلّياً، متامّلاً، منكبّاً على التاليف وجمع الوثائق للكتاب الذي سوف يدعوه فيما بعد (تاريخ احبّاء الله).

وفي سنة 423 بينما كان يعمل في خلوته طُلِب إليه، بل أُرغم، على قوله، أن يتسلّم إدارة أبرشيّة قورش الجبليّة الفقيرة: قال العالم بيترس أنّ رئيس اساقفة منبج (Hiéropolis) وأساقفة مجمعه، وكلَهم سوريّون لم يريدوا أن يبقى ذلك الشعاع مختبئاً فانتزعوه من عزلته، على رغمه، وأحلّوه المكان اللائق به. ولو لم يفعلوا، فأيّ وخز ضمير لم يكن ليأخذهم لتركهم، ضمن جدران دير النقيره، ألمع عبقريّ عرفته الكنيسة الشرقيّة.

ولمّا التحق بأبرشيّته، ظلّ يلجّ به الحنين إلى تلك الحياة وأولائك الرفاق. وغالباً ما كان يردّد صدى هذا الحنين في رسائله، وعندما ضاقت الدنيا في عينيه، وقد حُرم في مجمع أفسس سنة 449، كان طلبه الوحيد أن يرجع إلى ديره القديم. ولمّا افسحت له الظروف أن يدوّن في كتاب خاص "تاريخ أحبّاء الله"، أفرد لهذا الدير وللمؤسس مارسيان فصلاً من أكبر الفصول وأجملها.

وفي قورش، خلال سني أسقفيته، استعاض عن رفاقه القدامى بآخرين يختلفون عن الأوّلين نظاماً ومظهراً، إنّما لا يقلّون عنهم محبّة له وتعلّقاً به، وهو مُخبِرنا أنّه حال وصوله إلى قورش، وجد بستاناً يُزهر بأغراس ناضرة غرسها مارون ورعاها بمثله وعنايته.

أخذ الأسقف على نفسه، منذ اللحظة الأولى، أن يعمل فيه مدقّقاً في خدمته ليكون لتلك الأغراس، مكان القديس مارون، المرشد الأكبر والرفيق الدائم.

وقد كانوا بأشدّ الحاجة لمثل ذلك الراعي لأنّهم مشرّدون موزّعون في كلّ مكان من منطقة قورش، لا يجمعهم سوى حبّهم لله وإخلاصهم

لمعلّمهم ومثالهم مارون الناسك. وعندما شرع في كتابة تاريخه افسح لهم في صدر الكتاب ثلاثة عشر فصلاً من ثلاثين.

نستدلّ من نصوص الكتاب المذكور، أنّ المؤلّف لم يعرف القديس مارون شخصيّاً، لكنّه سمع عنه الشيء الكثير وعرف صفاته ومزاياه من خلال معرفته لتلاميذه، وقد كانت له نظرة خاصة إلى اطيب اغراس هذا البستان واجملها إلى الناسك يعقوب الكبير الذي يصدق فيه، كما قال تيودوريه، كلام داوود النبي: "الصديق مثل النخل يُزهر ومثل أرز لبنان ينمو"، كان ليعقوب هذا، منزلة خاصة في نفس الأسقف، يلجأ إليه وقت المحن ويطلب صلاته ودعاه قبل شروعه بمحاربة المبتدعين (Marcionistes) وغالباً ما يدعوه "اشعياه" أيّ مرشده ومنقذه، هو دائماً إلى جانبه في ساعات مرضه وما أكثر الأمراض تنتاب ناسك العراء.

ولم يكن الأسقف ليخفي هذا العطف الخاص، بل غالباً ما كشفه بتعابير تُشرق من خلالها الصداقة المتينة والاحترام المتبادل الذي كان يشدّ الأسقف إلى الناسك والناسك إلى الأسقف: حتّى انّ يعقوب كان يفضي إلى تيودوريه بأقدس شيء لديه: بما انعم عليه والهمه مخصوصاً به.

ويظهر أنّ يعقوب هذا لم يُحرز محبّة اسقفه وقدره له فحسب، بل جمع إليه قلوب مواطنيه قاطبة حتّى أنّ تيودوره كان، إذا رغب في الحصول على مطلب لرعيّته من الحاكم الروماني، يختم رسالته مستحلفاً إيّاه بمحبّته وقدره وإحترامه للناسك يعقوب: وإلى يعقوب نفسه كتب الامبراطور لاوون سنة 457 يسأله رأيه في مجمع خلقيدونيا،

وكتب في الوقت ذاته إلى القديس سمعان العامودي والقديس براداتوس، وجميعهم من النسّاك الذين اقتفوا خطّة مارون: "رأي هؤلاء وحدهم، قال Duchesne، استرشد الامبراطور في المجمع الخلقيدوني وعاملهم، وهم البسطاء، معاملة الأساقفة اصحاب الحقّ في المجامع المسكونيّة".

هذه، بإختصار، بعض خطوط اللوحة الأولى نعيد موجزها لأهميّتها فيما بعد: في أواخر القرن الرابع عاش في سورية الشماليّة ناسكان هما: مارون ومارسيان. كان الأوّل رائد مدرسة نسكيّة Erémitique مقرّها قورش والمنطقة الجبليّة التابعة لها. واسّس الثاني بواسطة تلاميذه منظّمة رهبانيّة Cénobitique في النقيره، بالقرب من افاميه، وقد اشتهرت هذه المنظّمة بالحياة الرهبانيّة المعتدلة التي جمعت بين العمل العلمي والتقشّف والنسك.

وفي سنة 416، قصد هذه المنظّمة شاب أنطاكي ثري ومثقّف اسمه تيودوريه، عاش هذا الشاب في دير النقيرة مدّة سبع سنوات. ثمّ ما عتم أن، نُقِل "مُرغماً" أسقفاً على منطقة قورش الجبليّة، حيث عرف عن كسب تلامذة القديس مارون المنتشرين في أكثر أنحاء الأبرشيّة، وقد كانت لهذا الأسقف علاقة روحيّة خاصة بأكبر هؤلاء التلاميذ سنّاً وأكثرهم فضلاً الناسك يعقوب.

هذه الصفحة الأولى: حياة رهبانيّة نسكيّة تمتدّ من سنة 360 تقريباً حتّى سنة 431 أيّ عشيّة المجمع الأفسسي.

ننتقل الآن إلى عرض خطوط اللوحة الثانية:

- 2 -

التباين العقائدي والتنافس السياسي بين سوريا ومصر

منذ فجر المسيحيّة كانت بين مفكّري الكنيسة فروق جوهريّة في كيفيّة فهم سرّ الوحدة في المسيح: المسيح الإله-الإنسان ابن مريم، من صلب داوود حسب الجسد، وابن الله الكلمة الذي تجسّد. تلك هي المعطيات الأولى التي عاشتها الكنيسة مدة ثلاثة قرون. ولمّا بلغت الفكرة المسيحيّة من النضج مبلغها حاولت أن تتناول هذا السرّ بالتحليل لتحوقه وتحصره عن قرب وتعبّر عنه بقالب يقرّبه ما أمكن إلى حقيقته وإلى الأذهان. فوجدت الفكرة المسيحيّة طريقين تمكّنان من الولوج إلى هذا السرّ، لكنّ هاتين الطريقتين تتعاكسان. الأولى تنطلق من السماء من الكلمة الإله الذي تأنّس، كما علّم القديس يوحنا، فتطغى عليها صفة اللاهوت على الناسوت فدعيت المذهب الموحّد. امّا الثانية، فتبدأ، إن جاز التعبير، في الأرض من الإنسان من ابن مريم وابن داوود إلى ابن الله، ثمّ تحاول أن تفسّر كيف أنّ الاثنين واحد.

وقد عرفت بالمذهب الثنائي واستنتجت من واقعيّة الاناجيل الثلاثة الباقية. والطريقتان صالحتان شرط أن لا تنفي الواحدة صلاح الثانية وشرعيتها. أي أن لا تقيم الواحدة مذهبها على أنقاض الاخرى.

بحسب هذين المذهبين، درج الاقدمون على فهم وتفسير الكتاب المقدس. فالطريقة الموحّدة كانت اشيع من الثانية خاصة بين الرهبان المتعبدين، لأنها أسهل منالاً وقد ترضي روح العبادة أكثر من الثانية.

وقد شاعت، على الخصوص، بين آباء الاسكندريّة حتّى عرفت "بالمذهب اللاهوتي الاسكندري". عليها سار اكليمنضوس واوريجانوس واثناسيوس، وعليها سار أيضاً القديس كيرللس. هذا المذهب يستعمل الطريقة الرمزيّة ويميل في شرح الكتاب إلى التفسير الروحي.

أمّا المذهب الثاني فهو المذهب الذي اخذ به آباء الكنيسة الأنطاكيّة، وقد شاع خاصة حيث تأثّرت المسيحيّة بالتفكير السامي العبري والارامي. يميلون فكرياً إلى الأخذ بالطريقة التعقّليّة Rationalisme في شرح الكتاب المقدس، إلى المعنى التاريخي دون الروحي، عليها سار تيودور الطرطوسي Théodore de Tarse وتودوريه القورشي Théodoret de Cyr ونسطوريوس ويوحنا فم الذهب وتيودور الموبسويستي.

وما برحت هاتان الطريقتان صالحتين سالكتين حتّى قام أسقف اللاذقيّة السوري "أبوليناريوس" سنة 361، وكان صديقاً لأثناسيوس، ونقض صلاحيّة الطريقة الثانية - الأنطاكيّة.

ولكي يكون لكلامه وقع، نشر بعض مؤلّفاته ومهرها بإمضاء القديس اثناسيوس. وقد عبّر عن فكرته في سرّ الثالوث الاقدس بهذا القول: "وحيدة هي طبيعة كلمة الله المتجسّد".

هذه الآية تبنّاها القديس كيرللوس ليحارب بها مفكّري انطاكية وكأنّها من وضع القديس اثناسيوس، ثمّ اليها سدّد الانطاكيون، بقيادة تيودوريه، أكثر طعناتهم متأكدين من صحّة نسبتها إلى "ابوليناريوس" السوري الذي شذّ عن طريقهم.

إلى هذا التباين العَقَدي بين المفاهيم اللاهوتيّة نضيف، تتميماً للوحة الثانية، لوناً من التنافس بين الإسكندريّة والقسطنطينيّة.

كان للإسكندريّة، منذ القديم، المركز الأوّل بين البطريركيات الشرقيّة نظراً لقدمها وأساسها الرسولي، ولأنّها أثبتت على ممرّ العصور وخاصة في عهد القديس أثناسيوس، أبان المحنة الأريوسيّة، أن لها من قوّة العقيدة وصلابة المواقف ما غلّبها على أشدّ المحن.

وعندما أصبحت القسطنطينيّة مقرّاً للأمبراطور الروماني، قوي نفوذ أسقفها وما فتئ يقوى ويمتدّ حتّى بلغ الأوج سنة 381 وقد منحت القسطنطينيّة حينذاك لقب "روما الجديدة".

فاشتدّ الخلاف بين المدينتين لا سيّما وقد أخذت القسطنطينيّة، وهي حديثة العهد، تنتقي لها بطاركة من رهبان انطاكية، وجلّهم من الأفذاذ الذين نشأوا على الطريقة الثنائيّة.

تلك الأحداث وما أشبه أثارت في أساقفة الاسكندريّة غيرة، فاستباحوا لأنفسهم التدخّل في أمور القسطنطينيّة الدينيّة.

نكتفي هنا بأن نذكر حدثين مهمّين طَبَعا ذلك التدخّل بطابع النزاع السافر.

الحدث الأوّل حصل في أواخر القرن الثالث بين "تيوفيل" بطريرك الاسكندريّة ويوحنا فم الذهب، الراهب الانطاكي العالم، وقد اختير ليكون بطركاً على القسطنطينيّة سنة 298 ولا مجال هنا لذكر الدور المؤسف الذي لعبه "تيوفيل" في ازاحة البطريرك يوحنا المذكور ونفيه.

أما الحدث الثاني فهو النزاع الذي ملأ القرن الخامس بأسره بين

كيرللس، ابن أخت تيوفيل، و"نسطور" بطريرك القسطنطينيّة والراهب الانطاكي القديم، وإننا لَمُطيلون وقفتنا عند احداث هذا النزاع لأنّه يشكّل، في نظرنا، السبب المباشر لإنشاء دير مار مارون في جوار افاميه ضمن المنظّمة الرهبانيّة التي أسّسها تلامذة مرسيان.

سنة 428 سمع كيرللس بفحوى مواعظ نسطور أسقف القسطنطينيّة الجديد، فثارت ثائرته وانبرى يستفزّ عليه البطريركيات كافة، فأجابه كليمنضوس، بابا رومية، مؤكّداً موقفه مفوّضاً إليه اصلاح الخطأ. أمّا يوحنا بطريرك انطاكية فاستمهله كي يعمل هو واساقفته على إقناع صديقهم نسطور بالرجوع عن موقفه الشاذ، وفيما الأمور تسير نحو حلّ سلمي إذا برسالة من كيرللس إلى نسطور تُعرف "برسالة الحرومات" Les Anathématismes وهي تزكي النار من جديد، فاكتشف فيها الأنطاكيون نَفَس أبوليناريوس، أسقف اللاذقيّة القديم، وتعابيره، وكلّفوا تيودوريه اسقف قورش بالردّ، فأتى الردّ حاسماً لأنّ رسالة كيرللس تشدّد على وحدة الطبيعة في المسيح، فإنّها، في نظرهم، لا تقلّ خطورة عن مواعظ نسطور الذي يفصل بين الطبيعتين.

ذهبت الأحداث في مجراها، فالتأم المجمع الأفسسي الأوّل سنة 431 وتمثّلت المدرستان الانطاكيّة والاسكندريّة بمفكرين من ألمع شخصيات القرن الخامس على الإطلاق وهما: كيرللس اسقف الاسكندريّة وتيودوره أسقف قورش، وانتهى الخلاف مؤقتاً سنة 433 ببيان مشترك دعي "صيغة الوحدة" وضعه تيودوريه نفسه، لذا غلبت عليه الصفة الانطاكيّة وكان فيه انفتاح واسع وتفهّم عميق للتفكير الاسكندري. وهكذا تمّ الاتّفاق

واعترف كلّ من المفكرين بفضل الآخر وعلمه، وكان لا بدّ أن ينتهي هذا الخلاف لأنّه حصل بين مفكرين حقيقيين وكانت نهايته خيراً في سبيل توضيح الأفكار، وتطوير المفاهيم الاهوتية، وتوحيد الاصطلاحات اللغويّة.

مضت السنون وغاب الأشخاص الذين مثّلوا احداث المأساة النسطوريّة: مات البابا سكست الثالث وخلفه لاوون الكبير، وكان لاوون من المقرّبين للمذهب الثنائي الانطاكي، ومات يوحنا الانطاكي سنة 442 وخلفه نسيبه دومنوس وكان هذا يثق كلّ الثقة بعلم تيودوره ومقدرته، ثمّ مات كيرللس سنة 444 وخلفه ديسقورس نسيبه ولم يكن البطريرك الجديد على شيء من علم كيرللس وسياسته. هؤلاء جميعاً تركوا مسرح الأحداث ما خلا واحداً وهو أسقف قورش تيودوريه، هذا أصبح، بعد موت كيرللس، المرجع الوحيد والسلطة اللاهوتيّة الكبرى في الشرق قاطبة كما كتب فيه المؤرخ:دوشن".

وأَخْـذاً بهذه الميزة عنده، استدعاه بطريرك انطاكية الجديد، دومنوس، ليكون إلى جانبه ويرشده بأحكامه اللاهوتيّة السديدة، فبنى له في انطاكية منزلاً يحلّ فيه كما في كرسيه في قورش، ويجتمع هناك بأخلص اصحابه واعوانه. خلال هذه المدّة لاحظ تيودوريه أنّ السواد الأكبر من الرهبان، بل الرأي العام الرهباني، قد أخذ يميل إلى المذهب الموّحد مؤثراً طريقة الإسكندريّة وتعاليم القديس كيرللس على الطريقة الانطاكيّة. لأنّ المذهب الإسكندري الموحّد كان احسن ملائمة لروح العبادة، يساعد على التأمّل والإنجذاب الروحيين. وقد كانت الاسكندريّة ومصر والصعيد، بفضل القديس انطونيوس، أماكن مقدّسة بالنسبة إلى

الرهبان، يشخصون إليها ببصائرهم مستلهمين منها النهج النسكي وطرق التصوف على اختلافها، ولم يكن خفيّاً على احد، التأثير الكبير الذي كان للرهبان في تقرير مصير النزاع العقائدي، فراح كلّ من الفرقين يعمل على كسب تأييد اكبر عدد ممكن من الرهبان.

- 3 -

دور الرهبان في الصراع العقائدي بين الانطاكية والاسكندريّة

خلال هذه الهدنة الموآتية لتيودوره وصحبه، استنسب هذا الاخير أن يجسّد فكرته القديمة التي جمع لها الوثائق والمعلومات وألّف كتابه الشهير " تاريخ احبّاء الله "، وهو بجوهره تاريخ للحياة النسكيّة في سوريا الشماليّة خصوصاً في قورش وافاميه وانطاكية. وقد أتى الكتاب فعلاً كأنّه نوع من إعادة الاعتبار للحياة الرهبانيّة السوريّة. فلم يتناول فيه بالنقد طرق النساك السوريين الغريبة، بل عكس ذلك نراه يوزع اكاليل الغار على هؤلاء الابطال المجاهدين، مؤسسي الحياة الرهبانيّة في سوريا، مبيّناً بطولتهم ومقوّماً اعمالهم القشفة ومُظهراً الربط الخفيّة التي تشدّ بعضهم الى بعض، يقيناً منه أنّه عامل على اكسابهم وحدة وقيمة معنويّة جديدة ومعيداً اليهم الاعتبار والثقة بنفوسهم كي يخف حماسهم ونزوعهم إلى مذهب القديس كيرللس وإلى كلّ شيء مستورد من مصر او دخيل. فالكتاب، كما يقول العالم بيترس، بعنوانه نفسه، كان مطالبة بحق لسوريا على

مصر. لأنّ نسّاك سوريا كانوا اذا قوبلوا برهبان مصر، محتقرين مهملين لعيشهم القشف وافتقارهم إلى الوحدة والتنظيم.

وتعليلنا هذا يستند إلى أحدث طرق النقد الداخلي، والأدلّة التي تثبت صحته كثيرة، لكنّنا نكتفي هنا بإيراد برهان واحد وهو أنّ المؤلّف لم يذكر في كتابه إلّا النساك السوريين الذين عاشوا في بقعة من الأرض معيّنة، بين قورش وافاميه وانطاكية، ومنبج هذه البقعة ذاتها اصبحت، فيما بعد، المهد الأوّل للذين سوف يطلق عليهم اسم موارنة، ومن بين النساك السوريين أنفسهم، لم يتناول بالبحث، سوى النساك الذين ساروا حسب المخطط الانطاكي، وهم اكثرهم من قورش وافاميه وانطاكية، هؤلاء الذين ألّفوا، بعد المجمع الخلقدوني، كتلة متراصة مركزها افاميه - وهي اشدّ وأصفى وطنيّة من غيرها - ليدافعوا عن العقيدة الخلقيدونيّة التي كانت نتيجة جهاد الانطاكيين عامة وتيودوريه خاصة.

هذا الكتاب ألّفه أسقف قورش حوالى سنة 445 أي بعد موت كيرلس. وإذا تابعنا استعراض الأحداث، وقفنا سنة 448 نشهد دخول اوتيخا، رئيس رهبان القسطنطينيّة، مسرح الأحداث. فهذا الراهب المسنّ كان صديقاً للقديس كيرلس مناصراً للمذهب الموحّد. وكان يتمتّع في العاصمة وعند الامبراطور تيودوسيوس بنفوذ كبير.

وحال دخول اوتيخا هذا الصراع العقائدي مدّ له ديوسقورس، أسقف الاسكندريّة ونسيب كيرلس، يد المساندة وراحا يعملان معاً، فتصدّى لهما فلفيان، اسقف القسطنطينيّة ودومنوس، اسقف انطاكية، وكان من الطبيعي أن يلجأ هذان إلى علم تيودوريه فيردّ أسقف قورش

على اوتيخا بكتاب في ثلاثة اجزاء، كتاب آية في المنطق الجدلي دعاه "المستعطي" (Eraniste).

أمّا الامبراطور تيودوسيوس الثاني، فرغبةً منه في دعم موقف اوتيخا وديسقوروس، قد دعى إلى مجمع ثاني في أفسس واعدّ كلّ شيء ليكون النصر حليفهما: وجّه امراً إلى تيودوريه يمنعه من مغادرة أبرشيّة قورش، حاظراً عليه حضور المجمع المرتقب، وامراً آخر يولي فيه ديوسقوروس رئاسة المجمع الآتي، وامراً ثالثاً يسمح لبرصوما خصم تيودوريه ورئيس رهبان سوريا، الموالي للقديس كيرللس، بحضور المجمع وكانت تلك بادرة فريدة. فلمّا التأم المجمع سنة 449 أتى "برصوما" مستصحباً عدداً كبيراً من رهبانه، وكان لهم ما ارادوا بالعنف والتهديد، وقد حَرَمَ ديوسقوروس، خلال هذا المجمع، زعماء المدرسة الانطاكية وعلى رأسهم تيودوريه، ولمّا طلب ديوسقوروس من بابا رومية، لاوون الأوّل، بأن يصادق على المجمع، رفض ودعاه "مجمعاً كاذباً"، ثمّ ارسل رسالة لتيودوريه يحلّه من حرمه ويوافقه على معتقده. ولكن تيودوسيوس اصدر امراً ثانياً ينفي فيه أسقف قورش، فطلب الأسقف أن يذهب إلى روما لكي يحاكم هناك أو أن ينفيه إلى ديره القديم في النقيرة، فسمح له الامبراطور بأن يتوجّه إلى ديره القديم. فترك كرسيه في قورش وقصد الدير. وقد رافقه إلى منفاه هذا عدد كبير من اصحابه واتباعه كما صرّح هو في إحدى رسائله.

وهناك في دير النقيرة بالقرب من افاميه امضى الأسقف مدّة ثلاث سنين من 22 آب 449 حتّى ايلول 451 وكانت هذه المرحلة من أخصب

مراحل حياته تأليفاً ومراسلة. وعندما توفي تيودوسيوس سنة 451 فوجئ القصر بسياسة جديدة إذ تقلّد القائد الكاثوليكي مرسيان الحكم، وقتل وزير تيودوسيوس ونفى اوتيخا لأنّهما كانا مصدراً للبلبلة، ثمّ أمر بإعادة تيودوريه وانصاره من منفاهم، فلم يرضَ تيودوريه بهذا الحلّ الشخصي بل طلب بإلحاح من زعماء الامبراطوريّة عقد مجمع جديد يصلح ما افسده المجمع الأفسسي الكاذب، ويُرجع إلى الحقيقة التي يناضل من اجلها، رونقها القديم ونصاعتها حسب ما اوضح هو في رسائله. فكان له ما اراد ودعا الامبراطور إلى مجمع مسكوني يعقد في مدينة خلقيدونيا بالقرب من القسطنطسنيّة. فاجتمع المجمع الخلقيدوني في الثامن من تشرين الأول سنة 451 ودخله تيودوريه دخول الظافرين، كما قال دوشن، بين صخب وضجيج اليمين (المصريين) وتهليل وتصفيق الشمال (السوريين) ولا بدّ لنا من الوقوف، فيما يختص بهذا المجمع، على حدثين مهمّين بالنسبة إلينا:

أوّلاً: لقد اظهرت الأبحاث العلميّة الحديثة انّ تيودوريه كان له الأثر الكبير في صياغة قانون خلقيدونيا العقائدي، وأنّه كان على اتمّ الاتفاق مع ممثلي البابا لاوون الكبير الذي اظهر في مناسبات عدّة عدم ارتياحه إلى تعابير القديس كيرللس. وقد أثبت مؤخّراً مرسال ريشار رئيس قسم الأبحاث العلميّة في باريس، أنّ الفضل في إدخال كلمة Hypostase (ذات الاستعمال الاسكندري) في قانون خلقيدونيا، ومعادلتها بلفظة (Prosopon) أيّ الشخص الانسان La personne يعود إلى سعة إدراك تيودوره. لأنّه بإدخاله هذه الكلمة التي لم تكن من استعمال

مدرسة انطاكية قد برهن على كونه عرف أن يتخطّى المدلول اللفظي إلى المعنى اللاهوتي، وفتح بذلك باباً جديداً ينطلق منه المذهب "الخلقيدوني الجديد" (Néo-Chalcidonisme) الذي حاول أن يلائم بين تعابير المدرستين ويصهرهما في استعمال واحد فرد. وهذه البادرة، كما يقول شارك ميللر، قد سجّلت لتيودوريه وهي في نظرنا من مفاخره التي تستدعي احترامنا. هذا المذهب نفسه ايّ الخلقيدوني الجديد سار عليه رهبان افاميه بنوع عام ورهبان دير مارون بنوع خاص.

ثانياً: والحدث الثاني الذي يهمّنا هو الاصلاح الرهباني الذي دعا اليه الامبراطور مارسيان وقرّره المجمع الخلقيدوني في جلسته السادسة: ففي هذه الجلسة حضر مارسيان وزوجته بلخيريا بأبّهه، وبعد أن شكر الله على إحلاله الأمان والسلام في مملكته، هدّد بالعقوبات كلّ فرد، اكليركيّاً كان ام علمانيّاً، يثير صعوبات عقائديّة جديدة، ثمّ عرض على الأساقفة الثلاثة مشاريع قوانين: منها حصر إنشاء الاديرة بسلطته وسلطة الأسقف المكاني، ثمّ إخضاع الرهبان جميعاً لسلطة الأساقفة.

وقد صادق المجمع على هذه المشاريع واصدر فيها قوانين عُرفت بقوانين الإصلاح الرهباني، لأنّ رهبان "اوتيخا" و "برصوما" كانوا مصدر قلق واضطراب في الامبراطوريّة. تتناول هذه القوانين الإصلاح الرهباني: بمظهريه، الإيجابي والسلبي: تشجيع الحياة الرهبانيّة والعمل على ازدهارها وتنقيتها من العناصر المشاغبة والمخلّة بالأمن، **والاستعاضة عنهم بأولئك الذين عُرفوا بمحبّتهم للسلام والتأمّل والتقشّف والصلاة المتواصلة.**

ولم يكد المجمع ينتهي في تشرين الأوّل سنة 451 حتّى أصدر الامبراطور "مارسيان" سلسلة أوامر ينفّذ فيها قرارات المجمع، من بينها قرار 28 حزيران سنة 452 وجّهه إلى رهبان برصوما و"أوتيخا"، يمنعهم عن الاجتماعات العامّة ولا يأذن لهم في بناء الأديرة ويحجز أديرتهم وأرزاقهم ثمّ يطردهم من أنحاء الامبراطوريّة كافة. **وفي تلك السنة ذاتها أيّ 452 أصدر أمراً آخر ببناء دير في جوار أفاميه على اسم القديس مارون**. يقول أبو الفداء صاحب حماة ما نصّه: "ولسنة خلت لملكه، بنى مرقيانوس دير مارون الذي في حمص".

- 4 -
ظروف تأسيس دير مار مارون

فيكون إنشاء الدير بأمر خاص من مرقيانوس (451 - 457) حلقة من مخطّط وضعه الامبراطور بالاشتراك مع أساقفة المجمع الخلقيدوني حفظاً للسلام في الامبراطوريّة، ودعماً للقضيّة الخلقيدونيّة، وهذا الاستنتاج تؤيّده الوثائق التاريخيّة لأحداث القرن السادس التي نتجت عن المجمع الخلقيدوني وإنّي لموجز، قبل أن أورد هذه الوثائق، ظروف إنشاء هذا الدير.

كان للرهبان في ذلك الزمان تأثير كبير في إنهاء الصراع العقائدي حول طبيعة المسيح وكان معظمهم يناصر مذهب القديس كيرلس لسهولته، ومطابقته لروح العبادة، ولأنّ كيرلس قد عرف أن يستغلّ اسم

القديس اثناسيوس واسم القديس انطونيوس مؤسس الحياة الرهبانيّة.

وكان تيودوريه أسقف قورش يحرص على أن تأتي نهاية النزاع العقائدي لصالح التعاليم التي ناضل في سبيلها نيفاً وثلاثين سنة والّف في موضوعها اكثر من ثلاثين مجلداً ولما دخل اوتيخا رئيس رهبان القسطنطينيّة و"برصوما" السوري حلبة النزاع وكاد الرأي العام الرهباني المناضل يميل بكامله إلى تعاليم الاسكندريّة، لم يبقَ "لتيودوريه" سوى اللجوء إلى رفاقه القدامى رهبان دير النقيرة وافاميه واصحابه الجدد، تلامذة القديس مارون الناسك المنتشرين والمشتتين في اكثر أنحاء قورش الجبليّة.

وحده كان باستطاعته أن يخرجهم من عزلتهم ويجمعهم في دير واحد يحمل اسم معلّمهم الأكبر ضمن منظمّة رهبانيّة يعرفها جيّداً ويحبّها، ذاك الذي اخرجهم ، فعلاً من النسيان ليجعل من حياتهم المثاليّة صفحة من اجمل صفحات تاريخ النسك.

وعندما نفي من "قورش" إلى "أفاميه" لحقه ورافقه، كما قال هو، عدد كبير من انصاره ومحبّيه. ومَن انصاره ومحبّوه غير الذين كان يلجأ إليهم في المحن والشدائد؟

فانتهز الانتصار الرائع لفكرته في مجمع خلقيدونيا ورأى أن يضمن لهذه العقيدة عنصر دفاع وثبات يؤمن بها ويناضل في سبيلها، فكان أنّه سعى لدى الامبراطور وأسس لأولئك المجاهدين الأبطال الذين عُرفوا بحبّهم للصلاة والصوم وكبح الأهواء، ديراً على اسم رائدهم الأوّل في منظّمة رهبانيّة عزيزة إلى قلبه، تجمع إلى الانفتاح على العلم والمعرفة،

التأمّل والصلاة والعمل النسكي. وقد فضّل منطقة "أفاميه" على "قورش" لأنّ هذه الاخيرة كانت منطقة مقفرة بعيدة عن المواصلات، فمن ثمّة ضئيلة الأثر والانفتاح، في حين كانت افاميه، كما ذكرنا، ملتقى للحضارات وعاصمة سوريا الثانية يغلب عليها العنصر الآرامي السوري، وتسيطر فيها الحضارة السريانيّة على الحضارة اليونانيّة، وقد نعمت منذ بدء المسيحيّة من الاساقفة الذين تبعوا سياسة دينيّة معيّنة نالت رضى المجاهد الانطاكي الأكبر. ومن بين هؤلاء الأساقفة بوليكرونيوس شقيق تيودور الموبسويستي مؤسس المدرسة الفكريّة الانطاكيّة.

لم يمضِ زمن حتّى عظم شأن هذا الدير وتبوّأ المركز الأوّل بين اديار سوريا الخلقيدونيّة وأصبح كما يقول Arthus Voobus مؤرخ النسك الشرقي، القلعة الوطيدة للعقيدة الكاثوليكيّة حسب التحديد الخلقيدوني.

وإنّنا نورد باقتضاب قسماً من القرائن والأدلّة المستقاة من المصادر القديمة والوثائق الأكيدة إثباتاً لنظرتنا:

1- بعد المجمع الخلقيدوني سيمحى ذكر تلامذة القديس مارون من منطقة قورش ويتحوّل نشاطهم كلّه إلى منطقة افاميه ومناطق الجنوب المجاورة لأفاميه، أمّا "تيودوريه" فلا يذكر احد من مؤرخي حياته أنّه رجع إلى كرسيه في قورش بل يميل أكثرهم إلى الاعتقاد بانّه صرف حياته في احد اديار افاميه، كما جاء في إحدى رسائله، وقد كتبها بعد موت الامبراطور تيودوسيوس وقبل انعقاد مجمع خلقيدونيا "بأنّه لن يعود ثانية إلى "قورش" لأنّه لن يناضل في سبيل استعادة مركز حافل بالمتاعب، بل نصرة للحقيقة الحريّة وحدها بالجهاد والتضحية بالذات".

2- وفي سنة 517 بعد خمس وستين سنة من تأسيسه نرى أنّ دير مارون قد اصبح الدير المنشأ لمنظّمة رهبانيّة تحوي أكثر من ثلاثين ديراً، جميعها في سورية الثانية وقريبة من العاصمة "أفاميه". ومن بين الأديار التي كانت تخضع لسلطة رئيس دير مارون الديران القديمان اللذان انشأهما سمعان واغابيتوس، تلميذا مارسيان الناسك معاصر القديس مارون، ونرى ايضاً أنّ من أهداف هذه المنظمة الحفاظ والدفاع عن العقيدة الخلقيدونيّة: لأنّه لمّا استولى الأسقف ساويروس المعادي لعقيدة خلقيدونيا على كرسي انطاكية، عيّن حليفه بطرس اسقفاً على افاميه، فلم يحسن هذا الأمر في اعين الرهبان المذكورين، فتنادوا لاجتماع خطير بالقرب من دير سمعان في سوريا الأولى وخارج نطاق ولاية بطرس الأسقف. فأقام بطرس الأسقف عليهم كميناً فقتلوا منهم ثلاث مئة وخمسين راهباً، وقد أحرقوا ونهبوا أكثر من سبعة أديرة. هذه الحوادث ذكرها الرهبان الباقون في رسالتين بعثوا بالواحدة منهما إلى بابا رومية، هرمزدا، وبالاخرى إلى مجمع أساقفتهم.

3- وفي سنة 536 استرجع الخلقيدونيون نفوذهم فعقدوا مجمعاً في القسطنطينيّة وأنابت أديار سوريا الثانية عنها، راهباً من دير مارون ليمثّلها، فكان يوقّع على المحاضر بصفته ممثّل الدير الذي يملك السلطة على اديار سورية الثانية.

4- ومن سنة 529 إلى 545 أيّ عهد بطريركيّة افرام اميد على انطاكية، سيسيطر رهبان دير مارون سيطرة لاهوتيّة على بطريركيّة

انطاكية لأنّ البطريرك المذكور قرّبهم إليه مسترشداً بآرائهم. فقد جاء في رسالة لأصحاب الطبيعة الواحدة محفوظة في المتحف البريطاني، أنّ رهبان دير مارون كانوا اساتذة ومعلّمين للبطريرك افرام اميد، وقد عُرف هذا البطريرك باضطهاده لأصحاب الطبيعة الواحدة ونضاله في سبيل تثبيت المبدأ الخلقيدوني الجديد الذي خطّى طريقه تيودوريه، وقد ترك هذا البطريرك مؤلفات ضخمة في هذا المعنى. ولكن تلك الحال لم تطل لرهبان دير مارون، لأنّ الامبراطور يوستينيابوس قد شعر بالخطر الخارجي يحدّق بمملكته فرأى، توحيداً للقوى الداخليّة، أنّ يعمل إلى استمالة أصحاب الطبيعة الواحدة، فنصحوه بأن يعقد مجمعاً جديداً يحرم فيه زعماء المدرسة الانطاكيّة الاموات، من دون أن يمسّ عقيدة خلقيدونيا لئلاّ يغضب بابا رومية. وفي سنة 553 التأم المجمع وحرم زعماء مدرسة انطاكية، وفي طليعتهم تيودوريه اسقف قورش وقد مضى على وفاته زهاء مئة سنة، فأُحرِقت اكثر كتبه ولم يبقَ من المؤلّفات التي سبقت مجمع خلقيدونيا إلّا قسم ضئيل، وكان لا بدّ لهذا الحرم من أن يؤثّر في انصاره الذين تبعوا دير القديس مارون وقد ارشدنا العالم الفرنسي، فرنسوا نو F. Nau، إلى مخطوط سرياني قديم محفوظ في المتحف البريطاني، فوجدنا فيه قسماً من الرسائل التي تبودلت سنة 592، لأربعين سنة خلت من تاريخ الحرم، بين رهبان "بيت ملرون" ورهبان "بيت ارباز" على أثر مناقشة علنيّة في انطاكية بين رهبان "بيت مارون" الذين " يمثلون الفئة الكاثوليكيّة المؤيّدة للجمع الخلقيدوني"، وبين "رهبان بيت ارباز" الذين "يمثلون اصحاب الطبيعة الواحدة". وقد استهلّ هؤلاء رسالتهم

إلى رهبان بيت مارون بهذه العبارة: "إلى غرسة الكرمة الخلقيدونيّة، إلى خلف نصبة لاوون، بابا رومية، وإلى فرع المرارة الذي أنبتته الكرمة التي نصبها تيودوريه، أسقف قورش وبكلمة إلى أبناء الإنشقاق الكبير الذي حصل في الكنيسة سنة 451 وفسخ أعضاء المسيح وبعثوها أجزاء: إلى رهبان بيت مارون المقيمين في نطاق منطقة أفاميه".

وقد جاء في هذه الرسالة أنّهم "هم أصحاب الطبيعة الواحدة" قد استطاعوا التخلّص من "الأحمق" "اوتيخا" بينما الرهبان الموارنة لم يستطيعوا أن يتخلّصوا بعد من زعماء المدرسة الانطاكية ومن ثيودوريه بنوع خاص.

ثمّ يخلصون إلى "أن الحرم الذي رشق به هؤلاء بعد زمن طويل يطالكم انتم وامّكم جماعة خلقيدونيا" ثمّ يعرضون عليهم حلّاً إذا رغبوا في التخلّص من الحرم، فما عليهم إلاّ انّ يتنكّروا إلى تعاليم المضلين المجدفين وخاصة تيودوريه، ويلتحقوا بالمسيحيين الحقيقيين.

5- وفي سنة 610 زار الامبراطور هرقل سوريا فكانت أوّل زيارة له فيها لدير القديس مارون لأنّه كان يتزعّم الحزب الخلقيدوني". وفي هذه المناسبة قد أمر بأن يضم إلى الدير المذكور قسم كبير من ارزاق اديرة اصحاب الطبيعة الواحدة حتّى قيل عنه أنّه كان مارونيّاً.

6- وفي سنة 718 كان في دير مارون مكتبة كبيرة من أكبر مكاتب سوريا يدير شؤونها ثلاثة رهبان كما ورد في ذيل المخطوط الوحيد الباقي من هذه المكتبة والمحفوظ في لندن في المتحف البريطاني.

تلك بعض الأدلّة التي أوردتها إثباتاً لهذه القضيّة تلخّص بأن دير القديس مارون الذي أنشئ بالقرب من أفاميه على أثر المجمع الخلقيدوني سنة 452 قد حمل، في حقبة لا تزال تفتقر إلى الدرس، ثقل تراث المدرسة الانطاكيّة الفكري.

انطلاقاً من هذا الحدث، قد حرصت على عنونة هذه الدراسة المقتضبة بالمارونيّة والمدرسة الانطاكيّة، يقيناً منّي أنّ المارونيّة مذهب فكري لاهوتي متوارث، له صفته المميّزة المتّصلة بحضارة قديمة كبيرة، والمطبوعة بطابع إقليمي خاص قبل أن تكون طائفة، حسب المهوم المتداول، محصورة العدد تدور في حلقة الصراع الطائفي تنازعاً للبقاء.

دَيْر مار مارون[5]:
دير البلور - مغارة الرَّاهب

في تاريخ الموارنة القديم، وفي ذهن وقلب كلّ مارونيّ صادق ومتعبّد، صورةٌ لصرحَيْن أساسيَّيْن يحلمُ بهما في سعيِهِ نحو القداسة في اتِّباع السيِّد المسيح على الطّريق الصّعب وهُما: المحبسة والدَّيْر.

المحبسة والدَّير

المحبسة

لم تكن قديمًا كما هي اليوم، بَيتًا يأوي إليه النَّاسك لِلتَّعبُّدِ والصَّلاة، بَلْ كانت جناحَ هيكل وثنيّ قديم، حُوِّلَ إلى مركز إكرام وعبادة للإله الحقّ، كما فعلَ "مارون"، رائد النُّسك في العراء[6]؛ أو كانَت زاويَةَ سورٍ مُهدَّم، كما فعلَ "أوسابيوس"، الَّذي بدَأ حياتَه في دَير ثمَّ انتقلَ مختارًا

5- نُشر في مجلة النجوى-المَسيرة.
6- المارونيّة لاهوت وحياة، الكسليك، لبنان 1992، ص 62.

عيشة الرَّاهب في الهواء الطَّلق، وقد كانَ السّورُ كِناية عن جدارٍ صغيرٍ بعُلُوِّ إنسان، يُكَوِّنُ سياجًا دونَ سَقفٍ حيثُ يعيشُ النَّاسكُ مُستَتِرًا عن الأنظار، لكنَّه يبقى مُعَرَّضًا لتقلُّباتِ الطَّقس؛ أو كان النَّاسك يبني له "اساتكون" على تلَّة مجاورة، كما فعلَ "لمناوس"، تلميذُ "مارون"؛ أو "سلامانيس" الَّذي كان على الضّفّة الشّماليَّة من الفرات. "ثُمَّ عبرَ النَّهر واعتَزَلَ في كوخٍ لا باب له ولا نافذة".

باختصارٍ، كانَ ثمَّة متوحِّدون في القورشيَّة، بَيْدَ أَنَّ العَدَدَ الأكبَرَ من نُسَّاك هذه المنطَقَة كانوا من تلامذة القدّيس "مارون"، يعيشون في الهواء الطّلق كما تَعَرَّفَ عليهم شخصيًّا "ثيودوريطس" المؤرِّخ، وعُنِيَ بهم عناية خاصَّة: "لم يكتَفِ مارون بالممارسات العاديَّة، بل ابتكَرَ ممارسات أخرى واجتَذَبَ عَدَدًا كَبيرًا من التَّلاميذ"[7].

الدَّير

أمَّا الدَّيْرُ فلم تشتهِر به القورشيَّة، في الشَّمال الشَّرقيّ من سوريا الفُراتِيَّة، حسب التَّقسيم الرُّومانيّ، بل خَبِرَته أفاميه أو قَلعة المضيق اليوم، وهي على مئة وخمسين كيلومترًا من القورشيَّة في سوريا الثَّانية ذات السُّهول الزِّراعيَّة الواسِعَة وَالينابيع الغزيرة.

أفاميه هذه كانَ يجتمعُ فيها أكبرُ عددٍ من الأراميِّيْن، سُكَّان سوريا الصّحراء. وهِيَ من هذا القبيل، أمتن وحدةً وأشدّ أصالةً من قورش

7- المارونيّة لاهوت وحياة، ص 63، (أكثر معلومات هذا المقال مقتبسَة من كتابنا، المارونية لاهوت وحياة، منشورات مكتبة جامعة الروح القدس/23، الكسليك، لبنان 1992، أو بالفرنسية *Théodoret de Cyr et le monastère de St. Maroun*, Kaslik/Liban 2ᵉ edition, 1987.

ومن العاصمة أنطاكية، لأنَّ العنصرَ الدَّخيل كانَ قد طغى على أنطاكية، وسادَتها الحضارَة اليونانيَّة مكَانَ الحضارة السّريانيَّة الأراميَّة؛ يُفيدُنا علمُ الآثار أنَّ المسيحيَّةَ لم تُسَيطِرْ على أفاميه، إلاَّ في القرنِ الرَّابع، إذْ إنَّهَا كانَت حَتَّى هذا التَّاريخِ، مُلتَقًى لمختَلَف الحضارات الَّتي انتَقَلَت إليها عن طريقِ حُمص جنوبًا، وقورش وآسيا الصُّغرى شَمَالاً، وحَلَب شَرقًا وأنطاكيا غَربًا، وَقَد تأَسَّسَت فيها مَدرسَة من أقوى المدارس الفلسفيَّة الوثنيَّة، عُرِفَت بمدرسة جمبليك القديم. لهذه الأسباب وغيرِها، سوفَ تَتَّجه إليها أبصار نسَّاك القورشيَّة وأنطاكية الَّذينَ كانَت الغيرة على نَشرِ رسالة المسيح، تتأجَّج في صدورهم، وقد صمَّموا على إنشاء الأديار الرَّسوليَّة في مُحيطِها[8].

ظُرُوفُ إنشاءِ الدَّير

من بين هؤلاء الغيارى على نشر رسالة المسيح، النَّاسك القورشيّ الأصل "أغابيطوس"، تلميذ "مرقيانوس" النَّاسك. ففي أواخر القرن الرَّابع للمسيح أو حوالي سنة 370-380 ذاعَ، بين سُكَّان منطقة قورش، خبر قداسة ناسِكَيْن مُعاصِرَيْن هُما: "مرقيانوس"، ناسك صحراء "كالسيس"، وهي على منتصف محور قورش شمالاً، ثُمَّ آفاميه جنوبًا؛ و"مارون"، ناسك العراء على جبل قورش كما ذَكَرنا. عُرِفَ الأوَّل بحياتِهِ النُّسكيَّة المعتَدِلَة، الَّتي تأخُذُ بالحِكمَةِ في مُهادَنَة الجسد، والثَّاني

8- انظر إلى الخريطة للتعرّف إلى مكان قورش ثمّ أفاميا.

بتقشُّفاته الصَّارمة ونُسكِهِ في الهواء الطَّلق. آمنَ "مرقيانوس" بأَنَّ حَيَاةَ المؤمن المثاليَّة هِيَ اقتِداء بحياة المسيح، ولم يتعرَّف "مارون" على السَّيِّد المسيح إلاَّ مصلوبًا لفداء الإنسان...

لم يكن "مرقيانوس" أقلّ شهرَة من "مارون"، إلاَّ أنَّ أهدافَه في الحياة الرُّهبانيَّة كانَت تختلفُ عن أهداف "مارون"، إذ كانَ يميلُ بطبعِهِ إلى الرِّسالة، ولهذا وجَّهَ تلاميذَه شطرَ أفاميه، ذات الأكثريَّة الوثنيَّة، بُغيَةَ إنشاء منظَّمة رهبانيَّة رسوليَّة. يذكُرُ "تواودوريطس" أنَّ "سمعان" (غير العاموديّ) و"أغابيطوس" تلميذَي "مرقيانوس" النَّاسك ذهبا إلى النقيرة Nikertai في سوريا الثَّانية، وهي بلدة قرب أفاميه، وأسَّسا هناك ديرًا، نشأَت عنه عدَّة أديار فيما بعد، تخضعُ جميعُها لنظام نُسكيّ واحد وتتَّصفُ بروحٍ واحدة هي روح المؤسِّس "مرقيانوس". إنَّ المنظَّمة الَّتي تفرَّعت عن هذا الدَّير سوف تجتذبُ إليها مع الزَّمن عددًا كبيرًا من الرُّهبان، وذلك نَظَرًا لانفتاحِ أنظِمَتها على العلم والمعرفة والصَّلوات المشتركة، ومن بين الَّذين اجتذبتهُم إليها الشَّاب الأنطاكيّ الثَّريّ "ثيودوريطس"، فهو نفسه يخبرنا أنَّه بعد أن توفِّيَ والداه، باعَ كُلَّ مقتناه ووزَّعَه على المحتاجين، ثمَّ قصد دير النقيرة قُربَ أفاميه، وكانَ عدد رهبانه يزيدُ على أربع مئة راهب. وهناكَ أمضى سبعَ سنوات، من سنة 416 - أي ستّ سنوات بعد موت "مارون" - حتَّى سنة 423، حين رُقِّيَ أسقفًا على أبرشيَّة قورش الجبليَّة، مسرح جهاد "مارون"، وهناكَ ظَلَّ يَلِجُّ به الحنين إلى رفاقه القدامى رهبان منطقة أفاميه، كما تعرَّفَ في أبرشيَّته الجديدة قورش على النُّسَّاك تلامذة القدِّيس "مارون"،

فأَحبَّهم وخَدَمهم وزارهم فَردًا فَردًا في مناسكهم، كما يذكُرُ هوَ في تاريخه. وبِفَضْلِ عنايته بهاتين المؤسَّستَيْن الرُّهبانيَّتَيْن في أفاميه وفي قورش، تَمَّ التَّواصُلُ بينَ هذين الوسطَين في ظلّ وعناية الأسقف الغيور.

إلى تلك الحياة الرّهبانيَّة المنظَّمة في أفاميه، وإلى أولئك الرِّفاق، غالبًا ما كانَ "ثيودوريطس" يُرَدِّدُ صَدى حنينه في رسائله، وعندما حُرِمَ في مجمع أفسس (الغير الشّرعيّ) سنة 449، إبَّانَ الصَّراع العقائديّ حول الطَّبيعة أو الطّبيعتين في السَّيِّد المسيح، وضاقَت الدُّنيا في عينَيه لم يَطلب سوى العودة إلى ديرِه القديم في أفاميه، دون أن ينقطع عن الاهتمام بنُسَّاك قورش. وفي منفاه هذا دوَّنَ كتابَه الشَّهير "تاريخ أحبَّاء الله" أو "التَّاريخ الدِّينيّ"[9]، وهو تاريخ للحياة الرُّهبانيَّة والنّسكيَّة في سوريا الشَّماليَّة وفي مناطق قورش وأفاميه وأنطاكية، وقد أتى الكتاب فعلاً، وكأنَّه إعادة اعتبار للحياة الرُّهبانيَّة الشَّرقيَّة، يقينًا منه أَنَّ هذا العمَلَ يُحَفِّزُهُم إلَى الوحدَة، فَيَخفُّ حَمَاسَهُم ونُزوعَهُم إلَى مَذْهَب "كيرلّس الإسكندرِيّ"، وإلَى كُلّ ما هو دخيل أو مستَورَد من مِصر، الَّتي كانَت تُعْتَبَرُ آنَذَاك مَهْدَ الحياة الرُّهبانِيَّة. يقولُ العالمُ "بيترس (Peeters)": "إنَّ الكتاب، كما يوحي عنوانه، كان مُطالبة بحقّ سوريا (الآراميّة) على مصر. لأنَّ نسَّاكَ سوريا كانوا، بالمقارنة مع رهبان مصر مُحتَقَرين لعيشهم القشف، وافتقارهم إلى الوحدة والتَّنظيم"[10]. هذا الكتاب ألَّفه أسقف قورش حوالي سنة 445، أي بعد موت "كيرلس"،

9- **Théodoret de Cyr**, *Histoire des moines de Syrie*, éd. P. Canivet, in *Sources chrétiennes*, n° 57, en deux volumes, Paris 1979.

10- **بولس نعمان**، المارونية لاهوت وحياة، ص 146.

وإذا تابعنا استعراض الأحداث، نشهَدُ دخولَ "أوطيخا" رئيس رهبان القسطنطينيّة مسرَحَ الأحداث سنة 448، فهذا الرَّاهب كانَ صديقًا لـ"كِيرللس"، ومُناصِرًا لمذهب الطَّبيعة الواحدة في السَّيِّد المسيح. وحَالَ دخول "أوطيخا" هذا الصِّراع العقائديّ، مَدَّ له "ديوسقورس"، أسقف الإسكندريَّة الجديد ونسيب "كيرللس"، يَدَ المساعَدَة وراحا يعملان مَعًا ضِدَّ المذهب الأنطاكِيّ الثُّنائِيّ. وَلكن لم تمضِ بِضع سنوات حَتَّى تُوُفِّيَ الأمبراطور "ثيودوسيوس" المناصر للعقيدة الَّتي دافَعَ عنها "كيرللس"، ولمَّا تقَلَّدَ الحكم القائد الكاثوليكيّ "مرقيانوس" (Marcien) سنَة 451، قتل وزير الأمبراطور "ثيودوسيوس" ونفى "أوطيخا"، ثُمَّ أمرَ بإعادة "ثيودوريطس" وأنصاره من المنفى، ثمَّ دعا إلى مجمع مسكونيّ جديد في مدينة خلقيدونية سنة 451 بالقرب من القسطنطينيَّة وأدخَلَ "ثيودوريطس" إلى المجمع دخولَ الظَّافرين، كما قالَ المؤرِّخ "دوشان"[11]: بين صخب اليمين (مصر) وتهليل وتصفيق الشَّمال (السُّوريِّين الأنطاكيِّين).

ولم يكد المجمع ينتهي، في تشرين الأوَّل سَنة 451 حتَّى أصدَرَ الأمبراطور "مرسيان" سلسلةَ أوامر تهدفُ إلى تنفيذِ قراراتِ المجمع، من بَينِها قرار 29 حزيران سنة 452، الَّذي منعَ رهبان برصوما السُّوريّ، و"أوطيخا" عن الاجتماعات العامَّة وعن بناء الأديرة، واحتَجَزَ أديرتهم وأرزاقَهم، ثُمَّ أَمَرَ بطردِهم من أنحاء الأمبراطوريَّة كافَّة. وأصدَرَ سَنَة 452 مَرسومًا ثانِيًا يأمرُ فيه بِبِناءِ ديرٍ في جوارِ أفاميه على اسمِ أكبر

11- المرجع ذاته، ص 148-147.

نُسَّاك القورشيَّة "مارون"، وَقَد جمعَ فيه أكثرَ تلامذته المشتَّتين في أنحاء قورش كافَّة. يقولُ "أبو الفداء" صاحِب حماة: "ولِسَنَة خلَت من ملكه بنى الأمبراطور "مرقيانوس" (Marcien) ديرَ مارون الَّذي في حمص"[12]، لأنَّ أفاميه، زمنَ الحكم العربيّ، كانَت قد أصبحت مدينة ثانويَّة تخضعُ لحاكم حمص وحماه "أبو الفداء".

فإنشاء الدَّير بأمر خاصّ من الأمبراطور يكون حلقة من مخطَّط إصلاحيّ وضعه أباء المجمع، وعلى رأسهم اللاَّهوتيّ الكبير "ثيودوريطس"، ونفَّذه الأمبراطور حفاظًا على السِّلم، ودَعْمًا للقضِيَّة الخلقيدونيَّة.

عَظُمَ شأن هذا الدَّير، وتبوَّأ المركَزَ الأوَّل بين أديار سوريا الخلقيدونيَّة حتَّى أصبَحَ، كما يقولُ مؤرِّخ النُّسْك الشَّرْقِيّ Arthur Vööbus القلعَة الوطيدة للعقيدة الكاثوليكيَّة حسبَ التَّحديد الخلقيدونيّ الَّذي كتبَهُ "ثيودوريطس"[13].

بَعْدَ المجمع الخلقيدونيّ والمراسيم الَّتي أصدرَها الأمبراطور "مرقيانوس"، لم نَعُد نَسمع أيَّ ذكرٍ، في الرَّسائِل والكتب، لتلاميذ القدِّيس "مارون" في منطقة قورش، وقد تحوَّل نشاطهم كلُّه إلى منطقة أفاميه ومناطق الوسط المجاورة لأفاميه. أمَّا "ثيودوريطس" فلا يذكر أحدٌ من مؤرِّخي حياته أنَّه رجع إلى كرسيه في قورش بل يميلُ أكثرُهم إلى الاعتقاد بأنَّه صرف آخر أيَّامه في أحد أديار أفاميه، كما جاءَ في

12- أبو الفداء. المختصر في تاريخ البشر، دار الكتاب اللّبناني، بيروت 1960، 1، ص. 81.
13- **Vööbus Arthur**, *History of Aseticism in the Syrian Orient*, t. II p. 252.

إحدى رسائله: "بأنَّه لن يعودَ ثانية إلى قورش، لأنَّ نضالَه لم يكن من أجل استعادة مركز حافل بالمتاعب (لأنَّ أصحاب الطَّبيعة الواحدة سيطروا على قورش)، بل نصرة للحقيقة الَّتي حدَّدها مجمع خلقيدونية، لأنَّها وحدها الحريَّة بالجهاد والتَّضحية بالذَّات"[14].

مَكَان دَير مارون

في العهد الرُّومانيّ تَقَسَّمَت سوريا عدَّة مرَّات، ثُمَّ استَقَرَّت في العهد البيزنطِيّ على التَّقسيم التَّالي:

سوريا الأولى: عاصِمَتُها أنطاكية وبعض مدنها سلوكيه، اللاّذقيّة، جبلة، حلب وكالسيس...

سوريا الثَّانية: عاصمتها أفاميه وبعض مدنها حماة، أريتوزا، بالانيا...

سوريا الفُراتيَّة: عاصمتها منبج، وبعض مدنها قورش، ساموزات، زوكما...

ولكن عندما خضعت سوريا للإسلام، على أثر معركة اليرموك، سنة 636، قُسِّمَت من جديد إلى أربعة أقضية أو مناطق عسكريَّة (جند)، وهي دمشق، حمص، الأردن وفلسطين.

قضاء حمص هذا، كانَ يغطِّي كُلّ سوريا الشَّماليَّة، بما فيها مدن أفاميه وحلب. يَتَّضح لنا أنَّ حمص، زمن حكم الرُّومان، كانت عاصمة فينيقيا اللُّبنانيَّة، ولقد وجَّهت نشاطها صوب الجنوب نحو هليوبوليس

14- **بولس نعمان**، المارونية... ص 151، حاشية 19.

(بعلبك) ودمشق وتدمر... أمَّا في عهد الإسلام، فقد أصبحت مركز قضاء كبير جدًّا، أو منطقة عسكريَّة توجِّه نشاطَها نحو الشَّمال، نحو حماة وأفاميه وكلسيس بسبب كونها قاعدة عسكريَّة للفتح المتَّجه أساسًا نحو الشَّمال، وكما يشير الأب "لامنس" فإنَّ حمص، حتَّى قبل الإسلام، أخذت تمتدّ نحو الشَّمال، لِذا فإنَّ عبارة "أبو الفداء" "دير مارون الَّذي في حمص" لا يَجبُ أن تُؤخَذَ بمَعْناها الحرفيّ، إذ يُمكن أن تعني دير مارون الَّذي في منطقة حمص أو التَّابع لمنطقة حمص، لأنَّ دير مارون كانَ على مسافة بضعة كيلومترات من أفاميه وغير تابع لأيَّة قرية أو مدينة، وقد يُنسَبُ إذَن، بِسُهولة إلى أفاميه أو إلى حمص، إلى البلد المجاور أو إلى العاصمة.

"أبو الفداء"، المؤرِّخ المسلم، الَّذي كتب في عصر لم تكنْ فيه أفاميه إلاَّ أطلالاً، يُمكنُه أن يتكلَّمَ على دير مارون قُربَ أفاميه، كما على دير مارون في منطقة حمص.

نفهمُ جيِّدًا هذه العبارَةَ عندما نُلاحظُ أنَّ "أبا الفداء"، حاكم حماة، سَبَقَ وَكَتَبَ في مؤلّفه "التَّاريخ العامّ": "شيزر (لاريسا) وحماة كانتا صغيرتَين جدًّا زمن الاحتلال العربيّ وتقعان ضمن منطقة حمص الَّتي كانت هي العاصمة". فلا سبب حقيقيًّا للشَّكّ في شهادة المؤرِّخ العربيّ، على العكس فإنَّ كلّ شيء يشهد لمصلحته: مركزه، ثقافته، رحلاته، والتَّناسق الكامل بين الحدث نفسه وظروف التَّاريخ الدِّينيّ نحو سنة 452.

يمكننا إذًا أن نعتبر صحيحًا أنَّ دير مارون قُربَ أفاميه الَّذي ذكَرَتهُ الوثائق الرَّسميَّة المتعدِّدَة والَّذي سيُصبحُ لاَحِقًا مَقَرًّا عامًّا لِلخلقيدونيِّين في القَرنَين السَّادِس والسَّابِع، بُنِيَ بالقُرب من أفاميه بأمرٍ صادر عن الأمبراطور ضدّ رهبان "أوطيخا" وأتباعه في 28 تمّوز سنة 452، ولكن في أيّ مكان بالتَّحديد من أبرشيَّة أفاميه كانَ يقع هذا الدَّير؟

مَوقعُ الدَّيْر في أفاميه

هنا تبقى الكلمة الفصل للمؤرِّخين أوَّلاً، وبنَوعٍ خاصّ، الَّذين ذكروا اسم دير مارون أو مرَّان من أمثال "ياقوت" في كتابه "معجم البلدان"، و"ابن عبد الحقّ" في "مراصد الاطّلاع"، وللتَّنقيب الأثريّ الَّذي تشير إليه أقوال المؤرّخين ثانيًا، وهذا الأخير هو الأهمّ في نظر العلماء والباحثين.

يقولُ الأب "بطرس ضو"، الَّذي جمعَ أكثر أقوال المؤرِّخين العرب في الجزء الأوَّل من موسوعته في تاريخ الموارنة، "وابن عبد الحقّ، المتوفّي سنة 1308، وضعَ ملخَّصًا لمجمع البلدان دعاه "مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع" وقد كرَّرَ فيه أقوال ياقوت"، بخصوص دير مارون ودير مرَّان يقول: "ودير مرَّان أيضًا على الجبل المشرف على كفرطاب قربَ المعرّة، به قَبرُ بن عبد العزيز...". و"ابن عبد الحقّ" هذا زارَ المكان بذاته وأجرى تحقيقًا مع أهالي المعرّة: "وسألت بعض أهل المعرّة عنه (قبر

الخليفة عمر) فقالوا الدَّير الَّذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز يُعرَفُ بدير النقيرة، ودير سمعان هو دير آخر قريب منه"[15].

ودير مرَّان أو مارون هُوَ المكان المسمَّى الآن "تلّ مرَّان" الواقع إلى الجنوب الشَّرقِيّ من "معرّة النّعمان"... واسمُهُ "تلّ موران" Tell Mouran على الخارطة الَّتي وضعها الجيش الفرنسِيّ. وقد أجرى العالمان "جانين" و"دومينيك سوردل" تحقيقًا استطلاعيًّا في الأماكن المعيّنة ذاتها، وتوصَّلا إلى التَّأكيد أنَّ دير مرَّان هو المحلَّة المعروفة الآن بـ"تلّ مرَّان" وأنَّ النّقيرة Nikertaï هي القرية المسمَّاة الآن "قيراطة"...

وقد زرتُ شخصيًّا هذا التَّلّ عدَّةَ مرَّات بانتظار أن تسمَحَ لنا الظُّروف بالكشف الحِسِّيّ عن الآثار، لأنَّ الموقع والكشف الحسِّيّ هُمَا البرهان الأكيد في العلم التَّاريخيّ، وهذه المحلّة تُعرَف بالنِّسبة للعامَّة اليوم بالدَّير الغربيّ قُربَ "معرّة النعمان".

مَغارَة الرَّاهِب في الهرمل

لا توجَد أيَّة وثائق تاريخيَّة ولا أيَّة كتابات أثريَّة تُرشدُ إلى أصل هذه المغائر في الهرمل، لكنَّ مؤرِّخي البقاع العرب، في القرون الوسطى أطلقوا عليها اسمَ "مغارة الرَّاهب"[16]. لقد زرتُ هذه المغائر مرارًا مع علماء الآثار، وفي تقديري الشَّخصيّ، بالاستناد إلى مُحادثات علميَّة أجريتُها

15- **الأب بطرس ضو**، تاريخ الموارنة، I، ص. 151.
16- **رينه دوسو** (R. Dussaud)، الحوليات الأثرية السورية، دمشق 1953، المجلّد الثّالث، ص. 85-86، **الأب بطرس ضو**، **تاريخ الموارنة**، الأول، ص 149-148.

مع العالم الأثَـريّ الأستاذ "شاكر غضبان"، أنَّ رهبان ديـر مـارون ورفاقهم رهبان الأديرة الخلقيدونيُّون، عندما أصبحوا بين نارَي الفاتح العَرَبيّ والمُدافِع البيزَنْطِيّ، قَرَّروا الانتقالَ إلى جبال لبنان الحصينة وقد سلكوا على دفعات متتالية طريق نهر العاصي معكوسة، لسهولة التَّنقُّل والعيش حولَ مجاري الأنهر، من مصبِّه في أنطاكية، ومجراه في سهول سوريا الثَّانية القريبة من أفاميه، حتَّى منبعه في الهرمل، وقد استخدموا هذه المغائر القديمة، كما حفروا غيرها أعمق منها ومن منبع النَّهر حتَّى يقطعوا إلى الضَّفَّة المقابِلَة، ومنها يتسلَّقوا الجبال حتَّى الأرز، وجبال العاقوره، ومن هذين المنفذين انتشروا ما بين وادي قاديشا ووادي نهر ابراهيم حَتَّى القبيَّات شمالاً وبسكنتا جنوبًا. وقد أخبَرَني الأستاذ "شاكر غضبان" أنَّه شخصيًّا سَلَكَ هذه الطَّريقَ صعودًا حَتَّى الأرز ليَتَحَقَّقَ من إمكانيَّة وصَوابيَّة هذه النَّظَرِيَّة.

كَمَا يُظَنُّ أيضًا أنَّ ملوكَ بعلبك الأيُّوبيِّيْن قد وسَّعوا هذه المغائر والمداخِل الَّتي تُؤدِّي إليها، وجَعَلوا منها مَوقعًا دِفاعِيًّا كَي يردّوا ملوك "كونتيّة" طرابلس (الفرنج). يظنُّ "رينان" Renan، الَّذي زارَ هذه المغائر ووصفَها بدقَّة، أنَّ الزيادات الَّتي أجراها الأيُّوبيُّون قد شوَّهت منظر المغائر[17]. يذكر الأب Lammens أنَّ الجبل المُطلّ على هذه المغائر، مع الأملاك المجاورة هي للرُّهبان اللُّبنانيِّين، "والبعض منهم يسكنُ هذا المكان في عصرنا، مع أنَّ سكَّان هذه المنطقة كلّهم من المتاولة"[18].

17- **E. Renan**, *Mission de Phénicie*, 119 B. Candé, see Lebanon, Bey... 1961, p. 397-401.

18- **الأب لامنس**، تشريح الأبصار، ص 110.

الخاتمة

نَظَرًا لعملي الطّويل في هذا المجال، أقترِحُ المباشَرَة بإنجاز تحقيقَين هامَّين لكَمال العمل في هذا المجال:

الأوَّل: تصوير فيلم وثائقيّ عن الهجرة الكبرى للموارنة من سوريا الشَّماليَّة إلى لبنان، أي من مصبّ العاصي في المتوسِّط في مدينة أنطاكية، مرورًا بوسط سوريا الثَّانية أي أفاميه وحماة وشيزر... حتَّى منبع العاصي في الهرمل، ومن منبع العاصي إلى جبل الأرز، وادي قنُّوبين ثُمَّ القبيَّات شمالاً، ثُمَّ جبل العاقورة وقرطبا ووادي نهر ابراهيم في الوسط، ثمّ بسكنتا في الجنوب.

الثَّاني: المباشرة في التَّنقيب الأثريّ العلميّ عن الدَّير، عندما تسمح الظّروف في منطقة الدير الغربي - النقيرة - قيراطه... كما كنَّا قد ذكرنا سابقًا.

الكسليك، في 21/9/2009

قراءة في تاريخ الموارنة القديم والحديث:
مسارٌ طبيعي أم دعوة نبويّة؟[19]

عندما بدأتُ في البحث العلميّ عن تاريخ الموارنة، لم أكن أفكّر مطلقًا بأن للموارنة دعوة خاصة، نبويّة كانت أم نخبويّة. إنّما فكرت بقوّة الإيمان، التي رافقت مسيرتهم مدى التاريخ، وبالتصميم الثابت والعنيد على الحياة الحرّة مع المسيح، التي حرّكت هذه الجماعة الصغيرة، التي تكوّنت حول دير مار مارون – العاصي، بالقرب من أفامية، على أثر المحن والصراعات العقائديَّة والاضطهادات التي رافقت وأعقبت المجمع الخلقيدوني سنة 450، والتي دامت، دون انقطاع، حتى الفتح العربيّ للبلاد السوريَّة سنة 632-640، عندما أُلجأت قيادتهم إلى الاعتصام في جبال لبنان: "فُرض عليهم أن يعيشوا في عزلة، وفي طبيعة جافَّة قاسية فأعملوا يدهم في الصخور فنحتوها، فإذا هي سطوح مجلّلة متدرجة وجنائن رائعة" كما كتب الأخوان جان وجيروم

19- محاضرة ألقيت في الاكليريكيّة البطريركيّة المارونيّة، غزير، في إطار الاحتفاليّة بزيارة هامة القديس مارون إليها في 22 تشرين الثاني 2010.

Tharaud [20]. أو كما كتب الشاعر "لامرتين" : "إنّ هذا الشعب الذي لا يعرف الراحة والذي لا يملك ملاذاً يلجأ إليه لممارسة ديانته إلاّ خلف هذه القمم والمنحدرات، قد حوّل الصخر إلى أرض مثمرة، وحرث وحفر الثلم تلو الآخر، راسِمًا لوحة من الأثلام لا تعرف لها نهاية، ودقّ الحجر ليجعل حتى من غباره غبارًا مثمرًا... ".

همّهم الأول، بعد أن تكوَّنوا جماعة إيمان وتجمّعوا من مختلف أبرشيَّات بطريركيَّة أنطاكية، أن يعيشوا إيمانهم بيسوع الإله والإنسان، حتى ولو اضطروا أن يهجروا، من جديد، الأرض والوطن والمسكن والأرزاق.

ولأنَّهم آمنوا بيسوع المتجسّد إنسانًا، "وقد أخلى ذاته لابساً صورة الإنسان"، وخالط الناس جميعًا وخدمهم وأحبّهم حتى يفتديهم، أحبّوا هم الإنسان على مثاله، وركّزوا مجتمعهم الجديد على المبادىء الإنسانيَّة والمسيحيَّة مبتدئين بالتعرف على محيطهم الطبيعي والإنساني الجديد، والتأقلم مع طوائفه ومكوّناته والعمل معهم وخدمتهم، وبهذه الطريقة انسجموا مع الشعوب المحيطة بمقرّاتهم الجديدة، ومع الزعامات المحلية الحاكمة، وبدأوا معهم إعمار لبنان، موظّفين لهذه الغاية، طاقاتهم العمليَّة والاجتماعيَّة والمهنيَّة، شرط الحفاظ على بُعدين هما علّة ومبرّر وجودهم: **هويَّتهم الدينيَّة وحريَّتهم الإنسانيّة**. وفي عهد الأمراء العسّافيّين التركمان (1516-1591)، ثم مع الأمراء المعنيّين الدروز (1584-1633)، ثم مع الأمراء الشهابيّين السنَّة (1632-1842)، وبطلب منهم ثمّ الاتصال بروما وبالغرب، لأن همّ هؤلاء الأمراء كان

20- **Jean et Jérôme Tharaud**, *La route de Damas*, p. 192.

الاستقلال وازدهار مناطقهم، فلم يجدوا، آنذاك، أفضل من الموارنة مَن يُؤمّن لهم الاستقلال والازدهار والانفتاح على التقدُّم العالمي.

وبفضل هذا التعاون الصادق والمخلص، وانفتاحهم على الغير وقبولهم الآخرين كما هم، انتشروا في كافة أنحاء لبنان راسمين صورة لبنان الحديث، وبفضل تخالطهم وتوظيف طاقاتهم وإمكاناتهم مع باقي السكّان، مَتَّنوا اللُّحمة بين العائلات اللُّبنانيَّة، ومعهم أيضًا بدأوا يفكِّرون بإمكانيَّة بناء وطن حرّ مستقلّ، متعدِّد الطوائف والمكوِّنات، يعيش فيه المرء إيمانه وإنسانيَّته بحرِّيَّة، في زمنٍ وفي محيطٍ لم يتعرَّفا إلاّ على الدكتاتوريَّات الدينيَّة والإمبراطوريَّات العسكريَّة والرأي الواحد.

وفي سنة 1584، وهي السّنة التي خلف فيها "فخر الدّين" أباه "قرقماز" في زعامة الدّروز، أسّسوا، بمساعدة الكنيسة الكاثوليكيّة، المعهد الماروني في روما، وبفضل هذا المعهد وتلامذته، قامت نهضة علميّة تعليميّة في الشّرق وفي الغرب: من مطبعة دير قزحيّا سنة 1584، إلى مدارس حلب، إلى مدرسة عين ورقة أمّ المدارس في لبنان... فكان لتلامذة هذه المؤسّسات التّعليميّة الفضل الأكبر في إنشاء المدارس في كلّ قرية ومدينة، وتحت كلّ سنديانة، وكان لهم الفضل في إدخال الطّريقة العلميّة في الغرب، وقد احتلّوا آنذاك، مراكز علميّة في مختلف جامعات أوروبا، كجامعة باريس وإسبانيا وروما وفلورنسا...

هذه المسيرة التّصاعديّة الشّاقة والمضنية تحوّلت مع الزّمن، بطريقة طبيعيّة، إلى نواة وطن تعدّدي، يجمع الطّوائف جميعاً دون أيّ تصميم مُسبق أو تخطيط توسّعي، بل بروحٍ إنسانيّة صافية، مُحبّة خَدومة، قابلة

للتّطور والحوار. فلم يُعرف عنهم أنّهم ظلموا أو عملوا باستقواء وبروح فوقيّة مُتعالية، أو توخّوا التّبشير والوعظ والإرشاد بغية فرض عقيدتهم وأفكارهم، فلا "روحيَّة، حسب المفهوم القديم للنبوءة، تُنذر وتُذكّر بالعهد"، ولا من يدّعي بينهم أنّه "فم الله وصوته الصّارخ"، بل روح إنسانيّة بسيطة متواضعة، ولكن عنيدة ومثابرة، تعيش إيمانها ببساطة وبطريقة ناعمة رقراقة تنساب بين الأشواك والصّخور الصّلبة والغابات الكثيفة لتصبّ في منبعها الأصيل يسوع الإله-الإنسان، كما صوّرته الأناجيل والتّقاليد. فالذي أحبّ أن يشرب من مائها شرب وارتوى دون منّة، والذي تخطّاها وعَبَرَ عنها، سُرَّ برؤيتها تنساب رقراقة تروي الأرض وتُخصبها، كما وصفهم المستشرق النّمساوي "ميسلين" في القرن التاسع عشر: "أناس يعيشون من الماء والبقول، لا يُسيئون إلى أحد، ولا يُضرّون به في شيء... لذلك أحبّ هذا الشعب الوديع الأنيس البسيط الصّالح والمؤمن.. وأقول أيضاً المنوَّر الرّاقي، ولا نور ولا رُقيّ من غير الإيمان"... "بالحقيقة إنّه لأسهل على الأعداء، أيّاً كانوا، أن يزعزعوا جبال لبنان من أساساتها من أن يُضعِفوا الإيمان في قلوب الموارنة".

هكذا كنت أركّز تفكيري في تاريخ الموارنة على قوَّة الإيمان والمثابرة على العمل، والجهاد في سبيل كمال إنسانيَّتهم، ولكنَّ الموضوع الذي طُلب منّي، ومطالعاتي في أثارهم الأدبيَّة والروحيَّة، والتأمُّل في مسيرتهم، جعلتني أتنبّه إلى اتّساع معنى النبوءة عندهم وفي آثارهم الأدبيّة، وأنَّها لم تكن من حظّ الأفراد فحسب، كما هي النبوءة قديمًا، وأن هذا الإيمان الذي ألهَمَهُم هذه المسيرة الشاقَّة والراسخة، هو هو بعينه الإيمان

الذي ألهم الأنبياء قديمًا، كما ألهَم الجماعة المسيحيَّة الأولى المخلصة لإيمانها، وإلاّ فما قيمة يوم العنصرة في تاريخ الكنيسة المسيحيَّة؟ ألم تُلهب الجماعةَ المسيحيَّةَ الأولى كلّها وتحوّلها إلى مبشِّرين بالإنجيل؟ إلى رسل ملهمين أذاعوا البشارة في المسكونة قاطبة! وإذا أعطى "بولس" في رسائله الأفضليَّة للمحبَّة بقوله: "المحبَّة لا تسقط أبدًا، أمَّا النُّبوءات فتبطل"، فإنَّه، حسب المفسِّرين، كان يعني أنَّ النبوءة لن تسقط إلاّ في نهاية الأزمنة، وأنَّ مجيىء المسيح وتجسّده لم يُلغِ موهبة النبوءة بل بالعكس أتى ليُعمِّمها على الشعب كلّه، كما تَمنَّى موسى سابقًا (العدد 29/11) "ليت جميع أمم الرب أنبياء فيجعل روحه عليهم"، أو كما رأى يوئيل أنَّ هذه الأمنية سوف تتحقّق في آخر الأزمنة: فروح الله عمّت كلّ الأحياء وكلّ الأجساد، لأنَّ الرؤيا والنبوءة هي أشياء شائعة في شعب الله الجديد، وأن موهبة النبوءة عمَّت الكنيسة الرسولية (أعمال 27/11؛ 1/13؛ 21/10).

وفي الكنائس التي أسَّسها بولس أرادها أن لا تكون مُمتَهَنة، بل وضعها في رتبة أعلى من مواهب الألسن (1كور 14/1-5). "أمَّا المتنبِّىءُ فيكلّم الناس بما فيه بناءٌ وتعزيةٌ وتشجيع... المتكلِّم بلسان يبني نفسه أما المتنبِّىء فيبني الكنيسة... وباختصار فإنَّ نَبيَّ العهد الجديد، كما هي الحال في تاريخ الموارنة، لا يهتمُّ في معرفة المستقبل فحسب، ولكنَّه يحرص على البناء بالمثل والقدوة والشهادة، بناء الجماعة، بناء المستقبل، يحرّض و يُغْري بسلوكه وهذه مهامّ تقترب جدًّا، لا بل تتفوّق على التبشير والوعظ، خصوصًا في محيط مختلط كالذي عاش فيه الموارنة والذي نعيش فيه

اليوم. فالنموذج النبويّ الجديد للشهادة المسيحيَّة الذي انتهجه الموارنة في تاريخهم، يدعو المؤمنين والجماعة للاندماج كليًّا في حياة بيئتهم، وبهذه الطريقة يتحوّلون إلى علامات إنجيليَّة بإخلاصهم لعقيدتهم أوَّلاً وللوطن وللحكم وللشَّعب وللثَّقافة.

هذه الصِّفات حَبَّبتهم وقرّبتهم إلى الشعب والحكَّام والأمراء والمحيط الغير المسيحيّ، وظلّوا هم محتفظين بهويَّتهم الخاصَّة وبالحرِّيَّة الَّتي وهبها لهم السيِّد المسيح.

نعم الكنيسة المارونيَّة هي كنيسة نبويَّة بمقدار ما الوطن الذي وَضَعوا أساساته، والأرض والمحيط المتعدِّد والمتنوّع الذي اندمجوا فيه، فَقَبلهم وقَبلوه، تكَوِّن عناصر أساسيَّة غير منفصلة عن علّة وجودها. لأنَّه، عندما نتحدّث عن الأمَّة المارونيَّة، نفكّر تلقائيًّا بلبنان الوطن، لأنَّ هذه الأرض لولا الإنسان اللُّبنانيّ المسيحيّ الذي سَكَنها وعمل فيها وأخصبها، لأصابها القحط والبوار والتصحّر ما أصاب غيرها من بقاع الشرق، كما قال الأب "ميشال الحايك"، وكما رَدَّدتُ في مقدّمة المذكّرات، والإنسان اللُّبنانيّ المسيحيّ الَّذي لجأ إلى هذه الأرض لو لم يلتصق بدوره بهذه الأرض المباركة لظلَّ هائمًا على وجهه حتَّى الضياع، كما ضاع العديد من أمم الشرق...

وهنا لا بدّ لنا من أن نتساءل معًا، هل ما يزال الموارنة أمناء لرسالتهم التاريخيَّة، لهذه الروح النبويَّة الجماعيّة الَّتي ألهمتهم هذه المسيرة؟

وهل تَعي الكنيسة المارونيَّة اليوم عظمة هذا التحقيق الذي أنجزت خلال تاريخها؟

وما هو مقدار أمانتها اليوم لدعوتها النبويَّة هذه ورسوليَّتها المنفتحة على الجميع؟

صحيح أنَّها حوّلت لبنان إلى ملجأ، إلى حصن للأقليَّات الدينيَّة والإثنيَّة في المنطقة انطلاقًا من قناعتها برسالتها النبويَّة، ولكن هذا لا يكفي لأنَّ عليها أن لا تعزل نفسها اليوم حتَّى ولو عانت الأمرَّين من هذه المنطقة المعذَّبة المعذِّبة؟

لقد حقَّقت إنجازًا آخر أهمّ وأكبر، يوم رفضت أن تبني سُورًا عازلاً حول لبنان الصغير، وطمحت إلى بنيان لبنان الكبير المتعدِّد المكوِّنات، لتظلّ أمنية لتاريخها ومخلصة لدعوتها النبويَّة ورسوليَّتها.

وصحيح أيضًا أنَّ قَدرًا كبيرًا من الروحانيَّة والحيويَّة قد جفّ في هذه الجماعة، ولكن مَن قال أن الرسالة النبويَّة هي بحاجة إلى العدد الغفير؟ إنَّ الروح النبويَّة ما انطفأت ولن تنطفىء فيها، وإلاّ لَصَعُب علينا فهم رسالة القدِّيسين دون الرجوع إلى المواهب النبويَّة! لماذا استفاقت اليوم بالذات روح القداسة فيها؟ أليس تذكيرًا لنا وتوبيخًا قاسيًا، لأنَّنا نحن الأحياء قد تقاعسنا عن حمل الرسالة؟ لماذا نبع الدم والماء من حائط قبر القدِّيس شربل، على مرأى ومشهد من الجميع، حتَّى ذاعت رسالته في العالم قاطبة؟ لماذا بقيت الأجساد سالمة في مدافنها حتَّى الساعة؟ لماذا ارتفعت صروح الأب يعقوب لإيواء المعذّب والشَّريد والبائس والمريض جسديًّا ونفسانيًّا؟ أليست هذه علامات إنجيليَّة نبويَّة صارخة؟ علامات لوجود الله فيما بيننا وفي أديارنا وبيوتنا ومعابدنا ومجتمعنا تُوَبِّخُ وتُحَرِّض من أجل حمل الرسالة إلى آخر رمق؟

هذه الحقائق والتأمُّلات في الماضي والحاضر قد أفهمتني حقيقةً ساطعة وهي أنَّ المؤرِّخَ وحدَه، مهما علا شأنه، والباحث مهما تعمّق في بحثه هو بحاجة إلى القدِّيس والروحانيِّ والشاعر ليكون بحثُه كاملاً، فالحقيقة ليست بحثًا علميًّا معمَّقًا وحسب، بل هي رؤيا وصلاة في الأعماق، واتِّحاد صوفيّ بمن هو الحقيقة الكاملة، بمن هو الطريق والحقّ والحياة. إنَّ حَدْسَ القديس والروحانيّ والشاعر هي الأقرب إلى الرؤيا والنبوءة حسب العهد الجديد.

وفقّكم الله وأنماكم لتصلّوا وتتأمَّلوا بما عمل الآباء والأجداد، وما يريده الله والشعب الطيِّب منَّا ومنكم، وأن تكتبوا أيضًا صفحات مشرقة واضحة تذكيرًا للأجيال الطالعة بأنَّ الكنيسة المارونيَّة والكنيسة الشرقيَّة هي الكنيسة الشهيدة والشاهدة أبدًا لتجسيد المسيح في هذه البقعة من العالم.

فالمتأمِّل اليوم في حال الموازنة، والمراقب بمحبَّة وعمق، يلاحظ أنَّ شيئًا من الوَهَن والإحباط قد انتاب شعبنا وكنيستنا، إكليروسنا ورهباننا، أساقفتنا وكهنتنا، وإنَّ سفينتنا سكرى مضطربة حائرة تتخبّط. ولكن إذا فكَّرنا مليًّا وبالعمق لتحقَّقنا أنَّه ولا مرّة كنّا الأكثر عددًا، ولا مرَّة كنّا الأكثر غنىً، ولا مرَّة كنَّا الأكثر قوَّةً، بل **كنَّا دائمًا الأكثر إيمانًا، والأكثر عزمًا ونشاطًا في العمل، والأكثر تصميمًا على تتميم رسالتنا كاملة، وأنَّنا كنَّا دائمًا ملائكة هذا الشرق ومُلهِمِيه لا شياطينه ومأجوريه...**

يوم اجتاحت قبائل البربر مدن الغرب، في العصور الوسطى أصيبت الشعوب الأوروبيَّة المُتَخَمَةُ والعَفِنَةُ بالهلع والذهول ودبَّ الخوف، وبدأَ قَليلو

الإيمان بالتحضير للهرب، كتب لهم كاهن، كان قد سبقهم بالهرب من أمام الفاندال (البرابرة) والتجأ إلى "هيبونة" في أفريقيا، بالقرب من القدّيس أغوسطينوس، وربّما استقى منه بعض الشجاعة والإيمان، قال:

من يدري، لعل البرابرة لم يتمكنوا من الدخول في الإمبراطورية إلا لتمتلئ كنائس المسيح في كل مكان، في الشرق وفي الغرب بهذه القبائل التي لا يُحصى عددها! أفلا يجب أن نُسَبِّحَ برحمة الله ونشيد بحمده، إذ إنه باندثارنا وفنائنا تعرّفت أمم وشعوب لا تُحصى إلى حقيقة يسوع المسيح التي لم يكن من الممكن الاتصال بها والتعرّف إليها إلا بهذه الطريقة؟[21]

21- *Orose, Pour lire l'histoire de l'Eglise*, **Jean Comby**, T.1, éd. du Cerf, p. 175.

الموارنة والكرسيّ الرّسوليّ
أو العلاقات البنّاءة

اليوم تفرح الكنيسة المارونيّة وتبتهج مع أبنائها، في لبنان وبلدان الانتشار، لمبادرة وضع تمثال القدّيس مارون في بهو كاتدرائيّة مار بطرس في روما، وتعتبر هذه المناسبة من عمل الرّوح أكثر منها من عمل الإنسان، لأنّها تكلّل علاقاتٍ دهريّةً بين الكنيسة المارونيّة وكنيسة مار بطرس، عمرها حوالي ألفٍ وستّ مئة سنة. هذه العلاقات التّاريخيّة نوجزها في ثلاث مراحل أساسيّةٍ.

مرحلة التّأسيس

أو مرحلة بناء العقيدة الموحّدة، وقد تحقّقت في مجمع خلقيدونية سنة 451 (أي ثلاثون سنةً بعد وفاة مار مارون). خلال هذا المجمع، تمّ الاتّفاق العقائديّ بين الآباء الأنطاكيّين برئاسة ثيودوريطس، أسقف قورش، ومؤرّخ حياة القدّيس مارون، وبين البابا لاوون الكبير، من خلال رسالته الشّهيرة إلى آباء المجمع.

على إثر هذا المجمع، أسّس الأباء الأنطاكيّون، بسماحٍ من الأمبراطور مرسيان، ديرًا على اسم النّاسك مارون القورشيّ، في منطقة أفاميا، من سوريا الثّانية، وجمعوا فيه كلّ الرّهبان النّسّاك، تلامذة القدّيس مارون، وأوكلوا إليهم الدّفاع عن العقيدة الخلقيدونيّة الكاثوليكيّة كما أثبتها المجمع المذكور.

هذا الاتّفاق، وما تبعه من صراعٍ عقائديٍّ وخلافاتٍ واضطهاداتٍ، دامت أكثر من مئتي سنة، هو الّذي متّن العلاقات الطّيّبة بين كنيسة روما والموارنة، وهو الّذي أكسب الموارنة، مع الزّمن، صفةً هامّةً، تقيهم التّقوقع والانزواء، وتجنّبهم التّحجّر، وتسمح لهم بالانفتاح على كلّ تقدّمٍ لاهوتيٍّ، وتطوّرٍ حضاريٍّ. ومنذ ذلك التّاريخ شكّل الكرسيّ الرّسوليّ، بالنّسبة للموارنة القاعدة الذّهبيّة الثّابتة الّتي على إيقاعها يطوّرون عقيدتهم ويجدّدونها.

وإثباتًا لهذه العلاقات نورد نصًّا من رسالة البابا لاوون الكبير إلى الأسقف توادوريطس، مباشرةً بعد المجمع، يطلب منه فيها أن يثابر على الدّفاع عن الكنيسة الكاثوليكيّة، "وأن يكون يده اليمنى في الشّرق لاستئصال البدع والهرطقات"، كما ذكر Le Nain de Tillemont.

بعد هذا التّاريخ يحصل الفتح العربيّ (624-640) وتنشأ الخلافات العقائديّة والسّياسيّة بينهم وبين اليعاقبة حول الإرادة الواحدة وحول الولاء لبيزنطيا وحضارتها، الأمر الّذي جعل الاتّصال بروما والقسطنطينيّة مستحيلاً، فالتجأوا إلى جبال لبنان وأوديته، وندر ذكرهم في التّواريخ حتّى منتصف القرن العاشر، حين ذكرهم المسعودي

في تاريخه، قال: "إنّ دير مارون والصّوامع المحيطة به دمّرت من جرّاء الغزوات العربيّة وظلم السّلطان."

ومنه نستخلص أنّه لم يبق في سوريا من الموارنة، بعد سنة 956، وهي سنة وفاة المسعودي، إلاّ جماعاتٌ صغيرةٌ.

أمّا المرحلة الثّانية، فقد كان من المفترض أن تكون زمن الصّليبيّين، في ربيع سنة 1099، لكنّ الصّليبيّين كانت لهم أهدافٌ أخرى غير مساعدة المسيحيّين، ولم تكد تنتهي هذه الفترة حتّى بدأ عهد المماليك، وكان من أقتم العهود، عندها رجع الموارنة إلى جبالهم وحصونهم، وبدأوا بتنظيم مجتمعهم الدّاخليّ روحيًّا واجتماعيًّا حتّى الفتح العثمانيّ سنة 1516، وتلزيم المقاطعات إلى الأمراء.

المرحلة الثّانية

أو مرحلة بناء الإنسان المارونيّ، وقد تحقّقت في عهد الإمارة بواسطة الزّيارات الرّسوليّة المتعدّدة، وأهمّها زيارتان: زيارة الأب يوحنّا إليانو من قبل البابا غريغوريوس الثّالث عشر سنة 1578، وزيارة الأب إيرونيموس دنديني سنة 1596، ومع هاتين الزّيارتين بدأت النّهضة العلميّة والاجتماعيّة، وتعدّدت البعثات المتبادلة بين الشّرق والغرب، الّتي خلقت الجسر العظيم الّذي عبر عليه لبنان وحده، من بين مجموعة الأقطار الشّرقيّة، من مرحلة القرون الوسطى إلى مرحلة القرون الحديثة. من مرحلة النّسخ والنّسّاخ واحتكار العلم والكتاب إلى مرحلة الطّباعة ونشر المعرفة والكتاب. وفي سنة 1584، تأسّس المعهد المارونيّ في روما، وبفضل

هذا المعهد وتلامذته، قامت نهضةٌ علميّةٌ تعليميّةٌ في الشّرق والغرب: من مطبعة دير قزحيّا سنة 1584 إلى مدارس حلب، إلى مدرسة عين ورقة أمّ المدارس في لبنان، فكان لتلامذة هذه المدارس الفضل الأكبر في إنشاء المدارس في كلّ قريةٍ ومدينةٍ، وتحت كلّ سنديانةٍ، وكان لهم الفضل في إدخال الطّريقة العلميّة لترتيب وتنظيم المكتبات، تشجيعًا للأبحاث، وقد احتلّوا آنذاك مراكز علميّةً متعدّدةً، في مختلف جامعات أوروبّا كجامعة باريس وإسبانيا وروما وفلورنسا.

هذا التّيّار المزدوج الاتّجاه أحكم الصّلات، وقرّب المسافات، ومزج الحضارات ففتح أمام الغرب أبوابًا واسعةً على الشّرق ولغاته وآدابه وعلومه وأديانه، وسمح للشّرق بأن ينهض فكريًّا وعلميًّا واجتماعيًّا. **وقد علّمتنا التّجارب أنّ لنا دورًا أساسيًّا في نقل ومزج الحضارات، وإنّنا نجحنا كلّ مرّة قصدنا بذاتنا الغرب، فاغترفنا من منابعه، وإنّنا أخطأنا كلّ مرّة تخلّينا عن دورنا هذا وأفسحنا له أو لغيره أن ينقل ما يشاء من حضارته إلينا.**

المرحلة الثّالثة

أو مرحلة بناء الوطن-الرّسالة، بدأت هذه المرحلة مع البابا يوحنّا بولس في إرشاده الرّسوليّ الّذي وجّهه إثر محنة لبنان الأخيرة، قال: "عندما دعوت، في 13 حزيران 1991، سينودس الأساقفة، إلى جمعيّةٍ خاصّةٍ من أجل لبنان، كان وضع البلد مأساويًّا..."، فالإرشاد إذًا يعبّر عن حالة القلق والمعاناة الّتي عاشها قداسته خلال محنة لبنان اللاّ متناهية.

"لذا دعوت الكاثوليك المقيمين على أرضه إلى مسيرة صلاةٍ وتوبةٍ وتفكيرٍ عميقٍ، لأنّ صحّة لبنان وعافيته وعطاءه الإنسانيّ هي من صحّة وصدق الكاثوليك وشهادتهم والتزامهم الإنجيل"

فالإرشاد هذا موجّهٌ أصلاً إلى الكنيسة الكاثوليكيّة في لبنان والمسيحيّين كافّةً، ولكنّه يشمل أيضًا المسلمين والدّروز واللّبنانيّين عامّةً "لأنّ إعادة بناء لبنان لا تتحقّق إلاّ بمشاركةٍ ناشطةٍ من قبل الجميع." وقد ذكر اسم لبنان في المتن والهوامش أكثر من مئتين وخمسين مرّةً، دلالةً على حبّه وإيمانه برسالة لبنان. فلبنان بالنّسبة إليه، هو بلدٌ حضاريٌّ، أرضٌ مقدّسةٌ، مجتمعٌ تعدّديٌّ وهو أخيرًا دعوةٌ خاصّةٌ ورسالة حوارٍ.

هذه باختصارٍ، بعض خطوطٍ من صورة لبنان الوطن الرّسالة، كما وردت في الإرشاد الرّسوليّ، وهي بالطّبع ليست من صنع الخيال، ولا هي مثاليّةٌ، إنّها ثمرة الحبّ الواعي المقترن بالحقيقة والتّاريخ المشترك. صورةٌ انتزعت من أعماق هذا التّاريخ، صاغها شعب لبنان بالصّبر على المحن والجهاد حتّى الدّم والانفتاح على الغير وقبوله، وبالمثابرة على الأمانة للكنيسة.

صورةٌ صاغها الحبّ والحقيقة: حبّ الأب الأقدس وحقيقة لبنان الرّسالة، لأنّه ليس ثمّة غير الحبّ والحقيقة، وبالتّالي العلم المستوحى من الحماسة، قادرًا على الولوج إلى أعماق الأمور وتصويبها، صورةٌ عرف الأب الأقدس أن يخرجها إلى العلن في هذا الإرشاد، وكأنّها نشيد أناشيد لبنان. هذه الصّورة إذا قبل بها المحيط دعوةً للبنان، يبلغ معها لبنان إلى مستوى الرّسالة الّتي عناها البابا يوحنا بولس الثّاني.

مرهج بن نيرون الباني[22]
ابن النـّهضة المارونيـّة الأولى وأحد أركانـها

تمهيد

بين الأب "يوسف الخوري" (1918 - 2010)، رائد النـّهضة الموسيقيـّة المارونيّة وملهمها في القرن العشرين، الّذي نكرّمه في هذه المجموعة من الأبحاث، وبين "مرهج بن نيرون"، ابن النّهضة المارونيّة الأولى في القرن السّابع عشر، الّذي نعرّف به في هذا المقال، أوجه شبهٍ عديدةٍ، أهمّها أنّهما تصدّرا نهضةً مارونيّةً علميّةً، صالحت الإنسان المارونيّ مع مفاهيم عصره الرّوحيّة والفكريّة والفنّيّة، ذلك أنّ المارونيّة الّتي نشأت مع تثبيت عقيدة الطّبيعتين الإلهيّة والإنسانيّة في السّيّد المسيح، سوف تواكب، بإذن الله، مسيرة الإنسانيّة في تطوّرها وتكاملها "حتّى تبلغ إلى ملء قامة المسيح" (أفسس 13/4).

22- مقدمة لكتابه المترجم من اللاتينية إلى الفرنسية، منشورات جامعة الروح القدس، الكسليك، 2006.

فالأب «يوسف الخوري» كان، في نظري، من العمالقة الّذين أحيوا التّراث القديم وسكبوا فيه، من روحهم ونبوغهم ما زاده رونقًا وحيويّةً، فكأنّه قطعةٌ من هذا التّراث، قدّت من صخور «قنّوبين» الصّلبة، ونغمٌ من شلاّلات «قاديشا» الهادرة.

تعرّفت إليه، حال دخولي الطّالبيّة، في دير سيّدة النّصر في بلدة «غوسطا»، في منتصف الأربعينات، وكان لا يزال راهبًا دارسًا في ريعان شبابه، يأتينا من حينٍ إلى اخر، ليملأ فراغًا في نظام التّدريس، فيملأنا، بذات الوقت غبطةً وحماسًا، بأسلوبه القصصيّ السّاحر، عن قلعةٍ أثريّةٍ قديمةٍ في بلدته «ريش دبين»، ويدخلنا في دهاليزها وتعرّجاتها، ثمّ يتركنا هناك مع مخيّلتنا نتشوّق الأمثولة القادمة.

وتمضي الأيّام، فيذهب هو للتّخصّص في الموسيقى في فرنسا، وندخل نحن في عالمٍ اخر، لا يقلّ سحرًا وجاذبيّةً، في الابتداء في دير «كفيفان»، وتبقى صورته وأقاصيصه في مخيّلتنا، لنرجع ونلتقي من جديدٍ، في بداية الخمسينات من القرن الماضي، في الصّرح الجديد، في «الكسليك»، ذي الحجارة الصّفراء، وكان هذا الصّرح مستطيلاً واحدًا، وحوله كومٌ من بقايا حجارته الصّفراء، نتمشّى حولها بصعوبةٍ، غير ابهين، نخطّط معًا بحماسٍ، ليكون صرحنا الفكريّ العتيد أمتن وأصلب من أسسه الصّخريّة.

إلى روحه الطّاهرة، أهدي هذا المقال عن «مرهج بن نيرون الباني»، ابن النّهضة المارونيّة الأولى.

- I -

كيف دخل الموارنة عصر النّهضة الأولى؟

قبل أن أبدأ بالكلام على "مرهج بن نيرون"، أو "Faustus Nairon"، كما سوف يعرف في ما بعد، لا بدّ من مقدّمةٍ توضح كيف دخل الموارنة عصر النّهضة، ولمن يعود الفضل في تحضير الأجواء وتمهيد الطّريق لأمثال "الصّهيونيّ" و"الحاقلانيّ" و"الدّويهي" و"السّمعانيّ" و"الباني" وغيرهم من أركان النّهضة المارونيّة في القرن السّابع عشر.

إنّ دخول الموارنة عصر النّهضة قد تمّ، بمبادرةٍ بابويّةٍ كريمةٍ، وبمساعدة رهبان القدّيس "فرنسيس"، حرّاس الأراضي المقدّسة، الّذين قاموا بوساطةٍ بنّاءةٍ بعد مجمع "فلورنسا"، الّذي انعقد سنة 1439، لتقريب وجهات النّظر بين "روما" والكنائس الشّرقيّة.

على أثر هذا المجمع، توطّدت العلاقة بين الموارنة والرّهبان الفرنسيسكان، مع العلم أنّها كانت قد ابتدأت قبل ذلك التّاريخ، في لبنان وقبرص والقدس، عام 1246 مع "Lorenzo da Orte" في عهد البابا "Innocent IV".

1- الأخ "غريفون" Griphon رسول الموارنة[23]

استنادًا إلى هذه العلاقة القديمة والمجدّدة، أرسلت "روما"، بعد مجمع "فلورنسا"، مرسلين اثنين، للاهتمام بأمور الموارنة، هما الأخ الفلامنكي "غريفون دي كورتريك" و"فرنسيسكو ساغّارا" البرشلونيّ، فكان لهما، وللأخ "غريفون" بنوعٍ خاصٍّ، أكبر الفضل وأبلغ الأثر في ترسيخ هذه العلاقة، بين الموارنة والكرسيّ الرّسوليّ. وقد أقاما في دير القدّيس "فرنسيس" في "بيروت"، حيث تعلّم الأخ "غريفون" اللّغات الشّرقيّة، وبنوعٍ خاصٍّ اللّغة العربيّة.

قبل مجيء "غريفون" Griphon إلى الشّرق بزمنٍ، كانت هذه العلاقة قد تحوّلت إلى صداقةٍ، فكان الموارنة عندما يحجّون إلى "القدس" بأعدادٍ كبيرةٍ زمن الأعياد الكبرى، كالميلاد والقيامة، يستقبلهم الفرنسيسكان ويسهّلون لهم الضّيافة في المدينة المقدّسة وفي بيت لحم، وهم بدورهم، كانوا يشعرون بالأمان إلى جانبهم، ويشتركون بمراسم العبادة في مختلف هياكل المدينة، وكان حارس جبل صهيون هو الّذي يعمّد أطفالهم، وإذا مات أحدهم في "أورشليم"، كان يدفن في مدافن الرّهبان، "لأنّ الموارنة، كما كانوا يردّدون، هم مسيحيّون حقيقيّون ومؤمنون...".

23- عن الأخ غريفون والموارنة، راجع:
Lammens Henri, *Frère Gryphon et le Liban au XVᵉ siècle*, in *Revue de l'Orient Chrétien 4* (1899), p. 68-104.
Arce Augustin, *Maronitas y Franciscanos en el Libano 1450-1516*, in *Miscelánea de Terra santa, II*, Jerusalem, 1973, p. 149-269.

الأخ "غريفون" هذا، هو الّذي وضع الأسس لعلاقةٍ دامت إلى ما بعد الفتح العثمانيّ للبلاد، سنة 1516، بعد أن قضى في لبنان مدّة خمسٍ وعشرين سنةً، من 1450 حتّى سنة وفاته في "فاماغوستا"، قبرص سنة 1475.

لقد أتى الشّرق باندفاعٍ شخصيٍّ انسجامًا مع قانون القدّيس "فرنسيس"، قضى سبع سنواتٍ في "القدس" يدرس اللّغة العربيّة واللّغات الشّرقيّة؛ ولمّا تحقّق أنّ رسالته بين المسلمين هي شبه مستحيلةٍ، أخذ يحضّر نفسه للعمل في الأوساط المسيحيّة الشّرقيّة، وكان في "القدس" انذاك، عدا المسلمين، قليلٌ من اليهود، حوالي 500 نفسٍ، وأكثر من ألف مسيحيٍّ من مختلف الطّقوس، وكان اللاّتين أقلّهم عددًا.

تعلّم اللّغة العربيّة، وكان ذلك سهلاً عليه، لأنّه كرّس نفسه لخدمة المحبّة بين المسيحيّين الشّرقيّين، وكان هؤلاء يقومون على خدمة المعابد الّتي احترمها "صلاح الدّين"، خلال غزوته سنة 1187. وفي أيّامه، كان في "القدس" ثماني جماعاتٍ تملك أو تستثمر أحد المعابد في القبر المقدّس: اللاّتين بواسطة الفرنسيكان والرّوم والسّريان والجورجيّون والأرمن واليعاقبة والأقباط والأحباش.

ولم يكن للموارنة أيّ معبدٍ في القبر المقدّس، بل كانوا يسكنون في المدينة بصورةٍ دائمةٍ، ويقيمون احتفالاتهم حيث يشاؤون، وفي أغلب الأحيان حيث يقيم رهبان القدّيس "فرنسيس". ففي كتابٍ عن العبادة

الدّائمة في الأراضي المقدّسة[24]، يذكر Bonifacis Ragusa أنّ جميع الرّؤساء في جبل لبنان، "أي بطريرك أنطاكية، الّذي يقطن في الجبل المذكور في دير السّيّدة مريم في قنّوبين، ورؤساء الأساقفة والمطارين والكهنة والشّمامسة، كانوا يحضرون القدّاس ويحيطون بالقبر المقدّس، مرنّمين أناشيد وتراتيل فرحةً مسبّحين العليّ... كلٌّ بلغته...".

ولمّا أتمّ "غريفون" Griphon استعداده في "القدس"، عيّنه الكرسيّ الرّسوليّ سنة 1450 مع معلّمه Fra François de Barcelone لخدمة الرّسالة بين الموارنة. وكان للفرنسيسكان ديرٌ في "بيروت" وقد أوقف إليهم، منذ زمنٍ، على أثر أعجوبةٍ حصلت فيه، فحوّلوه إلى مركزٍ للرّسالة، لكنّهما فضّلا الإقامة مع الموارنة في قراهم للتّعرّف عن قربٍ إلى حياتهم "الّتي كانت تشبه، كما يقول الفرنسيسكانيّ Eugène Roger حياة الرّهبان في أديارهم، ولكنّهم كانوا يرجعون، من وقتٍ إلى اخر، إلى ديرهم في بيروت".

وكان الموارنة انذاك قد تنظّموا تنظيمًا إقطاعيًّا، يرتبطون فيه بنيابة "طرابلس" لدفع الضّرائب، ولكنّهم في الواقع كانوا يتمتّعون باستقلالٍ ذاتيٍّ واسعٍ، وحرّيّةٍ دينيّةٍ تامّةٍ، وكانوا مقسّمين إلى مقاطعاتٍ يحكمها المقدّمون من بني قومهم، مع اعترافهم بالبطريرك رئيسًا حقيقيًّا، وبهذه الطّريقة استطاعوا أن يعيشوا، كما يذكر Eugène Roger، قرونًا طويلةً بفضل إيمانهم الّذي كان يقوّيه كونهم محاطين بأعداء من دينٍ اخر".

24- **Bonifacius Stephanus Ragusinus**, *Liber de perenni cultu Terrae santae*, Venetiis 1875, p. 28-29.

أمضى الأخ "غريفون" Griphon في لبنان مدّة 25 سنةً، من 1450 حتّى سنة وفاته في قبرص، في Famagousta، في الثّامن عشر من شهر تمّوز سنة 1475؛ وبعد وفاته بحوالي أربعين سنةً، كان الموارنة لا يزالون يؤدّون له الاحترام، كما كتب Francesco Soriano الّذي سيخلفه في خدمة الموارنة سنة 1514:

«All the Maronites up to this day call him saint Griffon and every time they mention his name, they kiss the hand and place it on the head for reverence».

2- رائد النّهضة التّعليميّة

إنّ نشاط الأخ "غريفون" لم ينحصر في العمل الرّسوليّ البحت، أو الثّقافيّ والتّعليميّ للموارنة، بل تعدّاه إلى خلق نخبةٍ من أبنائهم تستطيع أن تكمّل العمل النّهضويّ، فاجتذب إلى الحياة الرّهبانيّة ثلاثة شبّانٍ موارنةٍ، وأرسلهم إلى "البندقيّة"، ومنها إلى "روما"، حيث درسوا في دير "Araceli"، وفي دير مار بطرس، اللّغات اللاّتينيّة والإيطاليّة والاداب والفلسفة واللاّهوت، وكانوا باكورة الموارنة الّذين درسوا في الغرب. وبعد انتهاء دراستهم، عادوا إلى الشّرق، فقضوا بعض الوقت في جبل "صهيون"، ثمّ توجّهوا إلى "بيروت"، إلى دير المخلّص، ومنه أشعّوا علمًا ومعرفةً، وثقافةً لاهوتيّةً وقانونيّةً بين مواطنيهم.

عن اثنين منهم نعرف القليل، وهما: الأخ "حنّا" الّذي أصبح مطرانًا على "العاقورة"، والأخ "فرنسيس" الّذي توفّى باكرًا، أمّا الثّالث فهو:

"جبرائيل ابن القلاعي" أبو النّهضة المارونيّة، الّذي ناضل، بعد رجوعه، بالكلمة والكتابة والعمل. وقد درس بعمقٍ المؤلّفات اللاّهوتيّة الّتي تتناول معتقدات الموارنة، وردّ عليها.

وله مؤلّفاتٌ عدّةٌ في التّاريخ واللاّهوت والقانون، حفظت في أديرة لبنان، خصوصًا في دير "قنّوبين" (قديمًا).

يقول "مرهج بن نيرون": "إنّ جبرائيل ألّف رسالةً رائعةً في الأسرار، ووضع مؤلّفاتٍ عدّةً، نثرًا وشعرًا (زجلاً)، حول الشّعوب الشّرقيّة وبدعهم. هذه المؤلّفات موجودةٌ في دير السّيدة في "قنّوبين" في لبنان؛ ومؤلّفاتٌ أخرى في الأخلاق، موجودةٌ في مكتبة الموارنة في "روما"؛ ورسالةٌ حول الكهنوت، موجودةٌ في دير مار أنطونيوس قزحيّا...".

وقد اهتمّ بمؤلّفات "ابن القلاعي"، بنوعٍ خاصٍّ، العلاّمة "السّمعانيّ" في مكتبته الشّرقيّة ("روما" 1656)، كما كتب عنه مؤخّرًا، الأب "جوزف مكرزل"، حارس مكتبة جامعة الرّوح القدس، أطروحةً علميّةً، وهي مقاربةٌ عن حياته ومجموعة مؤلّفاته[25].

بقيت هذه العلاقة متينةً وفاعلةً، حتّى اختتام المجمع اللاّتيرانيّ الخامس في 16 اذار سنة 1517، وهي سنة قيام الحركة الإصلاحيّة في الغرب مع "لوثر".

25- **Joseph Moukarzel**, *Gabriel Ibn al-Qila'i (ca 1516), Approche biographique et étude du corpus*, préface de Gérard Troupeau, PUSEK 2007.

3- التّحوّلات الكبرى وتدخّل الكرسيّ الرّسوليّ المباشر

إنّ نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السّادس عشر هي حقبةٌ مليئةٌ بالأحداث الّتي مهّدت لتحوّلاتٍ كبرى جذريّةٍ في التّاريخ، وقد كان لها تأثيرٌ كبيرٌ على سياسة الكنيسة في الغرب، مع ثورة "لوثر" Luther الإصلاحيّة، وقيام الرّهبنة اليسوعيّة (1545) بأهدافٍ رسوليّةٍ دفاعيّةٍ، وانعقاد المجمع التردنتينيّ الإصلاحيّ الشّامل (1545-1563)؛ كما كان لها تأثيرٌ على سياسة الكنيسة في الشّرق، بعد سقوط اخر معقلٍ للإسلام في إسبانيا 1492، وانتهاء عهد المماليك في منطقتنا، وسيطرة الإمبراطوريّة العثمانيّة مع السّلطان "سليم الأوّل" سنة 1516.

4- استبدال المرسلين الفرنسيسكان بالمرسلين اليسوعيّين

هذه الأحداث حرّكت الكنيسة الكاثوليكيّة، فبدأت بتجميع طاقاتها وتحديث أساليب رسالتها بالتّركيز على العلم والمعرفة والعقيدة، لتحدّ من خسارتها في الغرب وتفتّش على افاقٍ جديدةٍ وقوى جديدةٍ في الشّرق، بواسطة رسلٍ جددٍ مسلّحين بالعلم والعقيدة والرّوح النّضاليّة، ولعلّ هذه الأجواء هي الّتي حتّمت استبدال المرسلين الفرنسيسكان بمرسلين جددٍ من الرّهبنة اليسوعيّة النّاشئة، المدرّبين على روحانيّة القدّيس "أغناطيوس دي لويولا" ونظاميّته المثاليّة، والّتي كانت قد وضعت نفسها وطاقاتها الرّوحيّة والعلميّة والاجتماعيّة في خدمة الدّفاع عن البابويّة.

تلقّف الموارنة بسرعةٍ مبادرات الكنيسة هذه، وكان الرّهبان الفرنسيسكان قد أعدّوهم لذلك، ووضعوا ذواتهم وطاقاتهم على موجة التّطوّر والتّحديث، متجاوبين مع إرساليّتي الأب "يوحنّا باتيستا اليانو" اليسوعيّ، الأولى سنة 1578، والثّانية سنة 1580؛ وإرساليّة الأب "إيرونيموس دنديني" اليسوعيّ سنة 1596. وفي وقتٍ قياسيٍّ، من جهة السّرعة في التّنفيذ، تقرّر إنشاء المدرسة المارونيّة في "روما" سنة 1584، وأرسلت أوّل مطبعةٍ إلى الشّرق، إلى دير مار أنطونيوس قزحيّا في الشّمال (1585)، وقد تزامن ذلك مع استلام "فخر الدّين المعنيّ"، صديق الموارنة، إمارة "الشّوف" عن أبيه "قرقماز"، وصدر أوّل كتابٍ في اللّغة السّريانيّة والعربيّة - الكرشونيّة حسب رأي "السّمعانيّ"، وقد كان ذلك حوالي مئتي سنةٍ، قبل أن يرسل "نابوليون" أوّل مطبعةٍ إلى مصر.

بعد حوالي اثنتي وخمسين سنةً من تأسيس المدرسة المارونيّة في "روما"، يدخل هذه المدرسة الطّالب "مرهج بن نيرون"، الّذي سيصبح أحد أركان النّهضة المارونيّة.

فمن هو "مرهج" هذا؟ ما قيمة كتابه عن تاريخ الموارنة؟ ما هي الظّروف الّتي دعته إلى تأليفه؟ كيف كان علماء الموارنة قبله يفهمون تاريخ كنيستهم؟

- II -

"مرهج بن نيرون الباني" أو "Faustus Nairon"

هو التّلميذ الثّاني والسّبعون في لائحة تلامذة المدرسة المارونيّة في "روما"، دخل هذه المدرسة سنة 1636، وكان له أخوان "نيكولا" و"جان ماتيو"، وقد درسا مثله في المدرسة عينها. إنّه شقيق "كونستانس"، زوجة "إبرهيم الحاقلاني"، العالم المعروف وتلميذ المدرسة المارونيّة.

ولد سنة 1628 في "روما"، حيث استقرّ والداه اللّذان كانا قد انتقلا إلى "روما"، ربّما بتأثيرٍ من "إبرهيم الحاقلاني"، صهرهما.

يتحدّر "مرهج" من بلدة "بان" في شمالي لبنان، موطن والديه. بعد تخرّجه من المدرسة المارونيّة في "روما"، رجع إلى لبنان سنة 1649، بطلبٍ من صهره، العالم الكبير "إبرهيم الحاقلاني"، ليضع نفسه في خدمة كنيسته، على عهد البطريرك "يوحنّا الصّفراوي"، الّذي كان قد أنهى مراجعة بعض الكتب في اللّيتورجيّا، على أن يرفعها، في ما بعد، إلى الطّبع في "روما"، تخلّصًا من أخطاء النّقلة، وتسهيلاً لاستعمالها في الرّعايا.

سرّ البطريرك جدًّا بهذا التّلميذ وباستعداده للخدمة؛ ولمّا كان "فوستوس" Faustus لا يزال شمّاسًا، منحه البطريرك شخصيًّا رتبة الشّدياقيّة في "عرمون - كسروان"؛ وفي الثّامن من شهر اذار سنة 1650، منحه رتبة الكهنوت في دير مار عبدا "هرهريّا"؛ وفي السّنة عينها، أرسله إلى "روما" ليلتمس من قداسة البابا الإذن بطباعة "الفنقيط" أي المتعيّد (كتاب الأعياد المارونيّة) مصحّحًا.

يذكر "Faustus Nairon" في مقدّمة كتابه عن الموارنة، أنّه عرض الأمر على قداسة البابا وعلى المسؤولين عن المجمع الشّرقيّ، فقبلوا وأمروا بطباعة كتاب الـ "فنقيط" Phenqith أوّلاً، ثمّ كتب الأناجيل وأعمال الرّسل والرّسائل الرّسوليّة، منعًا للتّحوير والتّحريف؛ وللحال، تألّفت لجنةٌ للمتابعة، كان هو أحد أفرادها إلى جانب نسيبه "إبرهيم الحاقلانيّ" وغيره من العلماء.

ولمّا أنهى مهمّته، لم يعد إلى لبنان، بل بقي في "روما" يعلّم، لأنّه كما يقول "Jean de la Roque" في مذكّراته: كان قد تميّز بإتقان اللّغات الشّرقيّة، الأمر الّذي أهّله لأن يعيّن خلفًا لـ "إبرهيم الحاقلانيّ"، أستاذًا لهذه اللّغات في جامعة "روما" (La Sagesse - Sapiencia).

إلى جانب اهتمامه بطباعة الـ "فنقيط" Phenqith والكتب المقدّسة، وضع مؤلّفاتٍ عدّةً، أهمّها:

1- Evoplia fidei catholicae romanae historico-dogmatica, Rome 1694.

2- Dissertatio de origine, nomine ac Religione Maronitarum, Rome 1679.

وقد ترجم ونشرناه في مكتبة جامعة الرّوح القدس[26].

26- *Essai sur les Maronites, leur origine, leur nom et leur religion*, par **Faustus Nairon de Ban**, Rome 1679. Traduction française, indices et tables par Benoîte; introduction et édition, Abbé Paul Naaman, Kaslik-Liban, 2006.

هذا الكتاب هو، بنظر النّقّاد، من المؤلّفات الأولى الّتي حاولت فهم وشرح النّقاط الغامضة أو المتخاصم فيها من تاريخ الموارنة، وهي تدور حول ثلاثة مواضيع: الاسم، النّشأة والعقيدة.

فالمؤلّف كان يعيش في داخله أزمةً وتناقضًا، بين حبّه للكنيسة الكاثوليكيّة الرّومانيّة الّتي ولد ونشأ وتثقّف في مدارسها، وبين إخلاصه لكنيسة ابائه وأجداده الّتي كان يعمل لنهضتها وازدهارها.

كان يقرأ عن الموارنة في كتب المؤرّخين الأجانب، أو في كتب الخصوم، فيتألّم لهذه المعالجات المغرضة والسّطحيّة، لموضوعٍ جوهريٍّ بالنّسبة إليه: موضوع تاريخ المارونيّة، كنيسة أجداده.

يلصقون بهم تهم الهرطقة مجّانًا، مع أنّ الموارنة لم يخطر يومًا ببالهم الخروج عمدًا، عن إطاعة "روما". فكلّ من كتب عن الشّرق أو زاره، أو نزل في ضيافتهم وحماهم، ادّعى، بعد رجوعه، شرف هدايتهم إلى الكنيسة الكاثوليكيّة. وبما أنّ المصادر الّتي بين يديه هي، إمّا مضلّلةٌ أو غير كافيةٍ، قرّر السّفر إلى موطن أجداده للتّفتيش عن مراجع أكيدةٍ وشهاداتٍ صحيحةٍ، بالإضافة إلى "استنشاق هواء لبنان المنعش"، كما كتب هو.

وقبل أن يسافر إلى لبنان، كتب لأكثر وجهاء شعبه، ليقابلهم ويأخذ شهاداتهم، ويرجع بوثائق وشهاداتٍ محقّقةً. لكنّ هذا الكنز الثّمين الّذي جمعه في رحلته، استلبه القراصنة خلال رجوعه بالباخرة، الأمر الّذي دعاه إلى تأخير كتابة تاريخه، لأنّه "كان يرغب في كتابة مؤلّفٍ كاملٍ وموثّقٍ". ولكن بناءً على إلحاح الأصدقاء من إيطاليا وفرنسا وألمانيا وغيرهم الكثر، يطلبون التّعرّف إلى تاريخ الموارنة وأصولهم وأركان

عقيدتهم الدّينيّة، وتنويرًا لتاريخ الكنيسة العامّ، "كتبت هذا الكتاب عن تاريخ الموارنة وسوف أكتب في المستقبل غير هذا الكتاب".

ولكن قبل أن نوجز محتوى هذا الكتاب، لا بدّ من الإجابة على سؤالٍ يتبادر إلى الذّهن، وهو: كيف كان الموارنة قبله يفهمون تاريخ كنيستهم؟

لقد اقتصرت معرفة علماء الموارنة لتاريخهم على بعض نقاطٍ متفرّقةٍ، أكثرها خلافيّة أو دفاعيّة، نجدها في أكثر الكتب القديمة، كردودٍ على اتّهاماتٍ مجّانيّةٍ.

أمّا هذا الكتاب، فقد تميّز بطابعه المنهجيّ والعلميّ، لأنّه جمع أكثر الأقوال والتّهم، ونظّمها وردّ عليها بالتّفصيل، ثمّ وزّعها بتسلسلٍ منطقيٍّ يمكن اعتباره نواةً لكتابة التّاريخ، حول مواضيع ثلاثةٍ، كما يتّضح من العنوان:

«De origine، nomine ac religione Maronitarum»

أي الأصل والاسم والعقيدة.

هذه العناوين نختصرها في هذا المقال بعددٍ من الأسئلة تعطي فكرةً عن الكتاب، وتخوّلنا، في النّهاية، حقّ تقييمه.

أوّلاً: في الاسم والنّشأة

هل ترجع نسبة الموارنة إلى "مارون" النّاسك الّذي ذكره "توادوريطس القورشيّ" في كتابه "التّاريخ الدّينيّ"؟ أم ينسبون إلى "يوحنّا مارون" البطريرك الأنطاكيّ الّذي "حارب الضّلال"، وحاربه

خصوم الموارنة، وشكّكوا في وجوده؟ أم ينسبون إلى دير مار مارون بالقرب من نهر "العاصي" Oronte، في جوار مدينة "أفاميا" Apamée و"حمص" Emèse، الّذي اشتهر زمن الخلافات العقائديّة حول الطّبيعة الواحدة والطّبيعتين في السّيّد المسيح؟ أم ينسب إلى قرية Maronia الّتي ذكرها الكاردينال Baronius، في كلامه عن الرّاهب "مالخوس" Malchus، وهي على بعد ثلاثين ميلاً من أنطاكية؟ أم هي كلمةٌ قد اشتقّت من الأصل السّريانيّ Morio وتعني "السّيّد"؟

حول هذه الأسئلة، لا يجد الكاتب أيّ إحراجٍ أو صعوبةٍ في التّأكيد على نسبتهم إلى "مارون القورشي" النّاسك، وإلى الدّير الّذي أنشأه تلاميذه على اسمه في منطقة "أفاميا"، على أثر مجمع "خلقيدونية"، وبأمرٍ من الاباء الأنطاكيّين والأمبراطور "مرسيان" الّذي ترأّس المجمع المذكور.

لهذا فإنّ الكاتب يسرد شيئًا من حياة "مارون" وتلاميذه، رهبان منطقة "أفاميا"، كما وردت في تاريخ "تيودوريطس"؛ ثمّ ينتهي إلى هذه الخلاصة الموجزة: إنّ الموارنة لم يأخذوا اسمهم عن أيّ هرطوقيٍّ، اسمه "مارون"، ولكن عن "مارون" النّاسك الّذي عاش قبل زمن الهرطقات، لأنّ كلّ الوثائق تؤكّد صحّة هذه النّسبة، ولأنّه ليس من المعقول أن يكون الموارنة قد احتفظوا باسم شخصٍ هرطوقيٍّ بعد "ارتدادهم المزعوم" إلى الكثلكة.

ثانيًا: في العقيدة

هل كانوا دائمًا أمناء لعقيدتهم الكاثوليكيّة؟ ولماذا نسبت إليهم الهرطقة المونوتاليّة؟ كيف يردّون على المؤرّخ الصّليبيّ Guillaume de Tyr وعلى "سعيد ابن البطريق" المعروف بـ"بطريرك الإسكندريّة" الّذي استند إليه Guillaume de Tyr؟

وهل كان "توما من حرّان"، أسقف "كفرطاب"، مارونيًّا؟ كيف تخلّصوا منه؟ وما علاقتهم بالأمبراطور "هرقل" الّذي مهّد لحلٍّ وسطٍ بين الطّبيعة الواحدة والطّبيعتين، وهو الفعل الواحد Monoénergisme، والّذي مرّ بديرهم عندما زار سوريا، وأغدق عليهم الهدايا، حتّى قيل عنه إنّه كان مارونيًّا؟ وإذا كانوا من دعاة المونوتاليّة، فلماذا لم يرشقهم المجمع السّادس (680-681) بالحرم، كما رشق غيرهم من "المونوتاليّين"، أتباع الطّبيعة الواحدة؟

هذا القسم من الكتاب هو من أهمّ الأقسام، وقد كلّفه جهدًا وعناءً، في البحث وجمع الوثائق، من الغرب والشّرق، والرّجوع إلى المراجع القديمة، وقد ذكرها في مستهلّ الكتاب.

لكلّ هذه الأسباب، أتى ردّه على المؤرّخ الصّليبيّ والبطريرك الإسكندريّ و"توما الكفرطابي" وغيرهم، قويًّا وموثّقًا، وهو من الدّقّة بمكانٍ، حتّى أنّ المؤرّخين الّذين أتوا بعده، استندوا إليه، واستفادوا من مراجعه ومنطقه. وقد خلص إلى هذه النّتيجة، وهي أنّ الّذين يتكلّمون

على إرادةٍ واحدةٍ في السّيّد المسيح، لا يعتبرون أنّ له إرادتين متضادّتين، بل إنّ الإرادة الإنسانيّة تخضع للإلهيّة بحسب نصّ المجمع[27].

ثالثًا: كيف كان الموارنة يعالجون قضايا مجتمعهم؟

هل كان لهم تنظيمٌ اجتماعيٌّ وقيادةٌ في الزّمنيات؟ أم كانوا دائمًا تحت إمرة البطريرك؟ يقال عنهم إنّهم كانوا يختارون أمراء من بني قومهم، فما علاقة الأمراء بالبطريرك؟ وما علاقتهم بالمردة؟ وبالحروب ما بين المردة والمسلمين؟ وما بينهم وبين الهراطقة؟ وكيف حسمت قضيّة المردة؟ وما كان تأثير إبعاد المردة عن لبنان، على الموارنة؟

أخيرًا، ما هي علاقتهم ببطريرك أنطاكية اللاّتينيّ "هايمريك"، الّذي يقال إنّه أرجعهم إلى الكثلكة؟ هل صحيحٌ أنّهم عندما انقسموا إلى قسمين بعد موت البطريرك "حجولا" († أوّل نيسان 1367)، بسبب ترويج البعض منهم لكتابات "توما الكفرطابي"، تدخّل البطريرك الأنطاكيّ اللاّتينيّ وصالحهم؟ كيف تسرّبت الهرطقات إلى كتبهم؟ هل حدث ذلك نتيجةً لفقرهم وجهلهم؟ هل كان حقًّا مجتمعهم فقيرًا وجاهلاً؟ ألم يكن فيهم أغنياء وزعماء وقادةٌ أمثال "أبي نوفل الخازن"

27- Cf. *Essai sur les Maronites*, … p. 95-96, aussi note p. 19:
«De ces textes l'on déduit que ceux qui affirment de cette manière une seule volonté n'entendent pas que dans le Christ seigneur serait seulement une unique volonté absolument, mais qu'il n'y a pas en lui deux volontés contraires ; seulement l'humaine est soumise à la divine… Il n'y a rien de plus catholique, en est témoin le sixième concile général lui-même dans la session dix-sept».

وغيره؟ ألم يكن بينهم علماء تخطّوا، في تأثيرهم، لبنان والشّرق، وكانت لهم أيادٍ بيضاء على العلم، حتّى في الغرب، أمثال "الحاقلانيّ" و"الدّويهي" وغيرهما كثر؟

كلّها أسئلةٌ لم نحاول التّبسّط في شرحها، لأنّها قد توضّحت بما فيه الكفاية، في كتب البطريرك العلاّمة "إسطفان الدّويهي"، وحديثًا مع المطران "بطرس ديب" وغيره من المؤرّخين، وحتّى نترك للقارئ مجالاً لمطالعة الكتاب في الأصل وفي التّرجمة، فينهل منه الجواب مباشرةً.

- III -

القيمة التّاريخيّة

هذه هي، باختصارٍ كلّيٍّ، أهمّ المواضيع الّتي تطرّق إليها "Faustus Nairon" في كتابه عن تاريخ الموارنة. عالجها بتقنيّةٍ تاريخيّةٍ كانت سائدةً في عصره؛ ولكن بعد أكثر من ثلاثة قرونٍ، هلاّ يزال لهذا الكتاب قيمةٌ تاريخيّةٌ؟

ممّا لا شكّ فيه، أنّ المؤلّف كان يتمتّع بثقافةٍ عاليةٍ، تؤهّله للبحث العلميّ والتّاريخيّ، وقد مارسه سنواتٍ عدّةً، بعد أن نشأ على مبادئ النّهضة الإيطاليّة، وتربّى على منهجيّة العصور الكلاسيكيّة، وقد شهد له كتبةٌ ورحّالةٌ كبارٌ أمثال "Jean de la Roque" الّذي قال: "لقد كرّس حياته كلّها للدّرس والتّنقيب... يبقى لنا من اثاره عدّة مجلّداتٍ في العقيدة وتطبيقاتها... وقد تميّز بين مواطنيه خاصّةً بكفاءته وتضلّعه

في اللّغات الشّرقيّة، وقد خلف الحاقلانيّ على كرسيّ التّعليم في "معهد الحكمة"، وعلى كرسيّ التّرجمة في مجمع انتشار الإيمان..."[28]

أو كما اعتبره "ريشار سيمون" (Richard Simon) في شرحه لكتاب "المرسل البابويّ إيرونيموس دنديني": "عالمًا وملفانًا، دافع عن أمّته ضدّ الهرطقات الّتي ألصقت بها"[29].

هذه الثّقافة والمنهجيّة الكلاسيكيّة، وضعهما Faustus في خدمة كنيسته وشعبه، وقد تميّز تاريخه بالنّقاط التّالية:

1- الرّغبة في التّعرّف إلى الماضي، وبنوعٍ خاصٍّ، التّعرّف إلى ماضي كنيسته وارتباطها الدّائم بكنيسة "روما". إنّه رائدٌ في هذا المجال، فهو أوّل من فكّر بوضع مؤلّفٍ جامعٍ عن تاريخ كنيسته، حتّى ولو اقتضاه الأمر تضحياتٍ جمّةً. هذا الحماس بالذّات هو من صفات المؤرّخ الحقيقيّ، وهو المدخل لكلّ كتابةٍ؛ فلا عملٌ ناجحٌ دون حبٍّ، وبالتّالي دون علمٍ مستوحًى من الحماسة؛ وحده الحبّ يستطيع أن يتحمّل التّضحيات ويلج إلى الأعماق. ولكنّ العلم هو أيضًا يحتاج لأن يكون

28- **De la Roque, Jean**, *Voyage de Syrie et du Mont Liban*, édité par Jean Raymond, Beyrouth 1981, p. 152-153: «Il a consacré toute sa vie à l'étude… il nous reste plusieurs monuments de sa doctrine et de son application… il se distingua parmi ses compatriotes, surtout par sa grande capacité dans les langues orientales et fut, dans la suite, le successeur d'Echellensis dans sa chaire de professeur au Collège de la Sagesse et interprète de la Congrégation de la Propagande…»

29- **Dandini Jérôme**, *Voyage du Mont Liban*, traduction et commentaire par Richard Simon, Kaslik, Liban, 2005, p. 169.

صريحًا، شفّافًا، فلا يحقّ له أن يطمس الحقائق أو يخفيها، كما أنّ الحماسة تحتاج إلى مراقبةٍ للذّات والميول. فهل نجح Faustus في كبت اندفاعه؟

2- العناية بجمع الوثائق والمراجع والشّهادات الحيّة أينما وجدت، في الغرب أم في الشّرق. لذا قرّر السّفر إلى لبنان، علّه يجد ضالّته، فجمع ما جمع من وثائق وكتبٍ وشهادات معاصرين مميّزين، ولكنّ الظّروف لم تساعده.

3- درس الوثائق ومقابلتها واستخلاص النّتائج: هذه الوثائق والشّهادات المتبقّية، مع ما تركه له نسيبه "إبرهيم الحاقلانيّ"، أخضعها كلّها للدّرس والمساءلة والمقابلة والنّقد؛ ولمّا وجدها غير كافيةٍ، توقّف عن النّشر، أمانةً للتّاريخ. ولكنّ إلحاح الأصدقاء والرّاغبين في الاطّلاع على تاريخ الموارنة، شحذ عزيمته، فكتب هذا التّاريخ الّذي بين أيدينا، واعدًا بإكماله في المستقبل.

4- ولكن بالرّغم من تضلّعه في كتابة التّاريخ، أتى كتابه هذا دفاعًا عن قضيّةٍ، أكثر منه تاريخًا، بحصر المعنى، لشعبٍ وكنيسةٍ، فيه بعض الذّاتيّة والمواقف الشّخصيّة. فلم يكن عند المؤلّف البعد الكافي عن الموضوع، حتّى يأتي تاريخه علميًّا، إنّما كان له فضل البادئ والممهّد، لكلّ الّذين سوف يأتون بعده ليكتبوا تاريخ الموارنة، بمن فيهم العلاّمة "الدّويهي" الّذي كان Faustus يذكره بكثيرٍ من التّجلّة والاحترام والتّقدير

(ص 114)، والّذي كان يصغره بسنتين، ولكنّه كان يفوقه، لا من حيث تقنيّات التّاريخ - لأنّها لم تكن قد توضّحت بعد - ولكن من حيث قوّة الشّخصيّة وحدّة الذّكاء و"سعة الاطّلاع والتّضلّع في تاريخ الكنيسة الغربيّة والكنائس الشّرقيّة، وفي اللّيتورجيّا واللاّهوت... ".

ومع ذلك، يمكننا القول إنّ "الدّويهي" قد استفاد من علم Faustus، وممّا تركه له العلاّمة "الحاقلاني"، وقد اطّلع على كتابه ودافع عن الموارنة مثله، ولكن بطريقةٍ أبلغ وأفعل، وكلّ الّذين سوف يحاولون الكتابة عن الموارنة بعد "الدّويهي"، سوف يرجعون إلى ما كتبه Faustus ويتبعون نوعًا ما، نهجه الدّفاعيّ.

الخاتمة

إنّ النّظرة إلى التّاريخ، كما نفهمها اليوم، والّتي أصبحت أكثر علميّةً وموضوعيّةً، لم تكن بعد، زمن "فوستوس" Faustus، قد تبلورت بالمنهجيّة العلميّة. بحيث يهتمّ الباحث التّاريخيّ اليوم بالأسباب البعيدة والقريبة الّتي تساعد على تطوير الأفكار والمجتمعات، كما يهتمّ بالعلاقات الاجتماعيّة وبالتّطوّر الاقتصاديّ والفنّيّ، وبمختلف النّشاطات الإنسانيّة، ويضعها في إطارها الموضوعيّ.

فلا عجب إذًا ألاّ نجد لدى "فوستوس" Faustus هذا الإطار العلميّ والتّاريخيّ الّذي نجده لدى المؤرّخين المحدثين.

لذلك، لا نجد عنده بحثًا في الأصول، ولا في المحيط الإنسانيّ والطّبيعيّ، ولا في المستوى الثّقافيّ وطرق العيش والعلاقات مع باقي الشّعوب المجاورة؛ بل جلّ ما نجده لديه هو التّركيز على نقطةٍ واحدةٍ حتّى ولو أهمل باقي النّقاط، ولم يكن ليستعين بالعلوم المساندة لعلم التّاريخ كعلم النّفس وعلم الاجتماع والدّيموغرافيا وغيرها، والّتي بدونها لا يمكن قراءة الوثائق وفهم الأحداث بطريقةٍ علميّة.

وهذا ما لم يكن معمولاً به أو معروفًا في تلك الحقبة. لذلك نجد أنّ "فوستوس" في بحثه لم يدخل إلى تاريخ الموارنة من خلال التّاريخ الكنسيّ العامّ، بل تناوله من زاويته الخاصّة، ونحن نعرف اليوم أنّه ما من تاريخٍ مقبول إلاّ ما كان وليد النّظرة الشّاملة، شمولٌ لا من حيث الأحداث، بل من حيث ترابط المواضيع بعضها ببعضٍ، واتّصالها الوثيق بباقي الفروع والعلوم ومختلف العناصر الّتي يتكوّن منها الحدث التّاريخيّ. ولكن ما بالنا نحاسبه على علمٍ لم تكن قد توضّحت معالمه بعد، ولم يضعه موضع التّنفيذ، حتّى أكثر مؤرّخينا المعاصرين. فضله الكبير أنّه أحبّ موضوعه، وعمل له بإدراكٍ واجتهادٍ وتضحيةٍ وبحثٍ، وحقّق وفتّش عن الوثائق، ودرسها وناقشها وقابل بينها، كما فتح بابًا واسعًا لكتابة تاريخ كنيسته وأمّته، يأخذ بمكتسبات العلم الحديث.

الكسليك، في 2011/3/22

دور البطريركيّة المارونيّة تاريخيًّا[30]

قَدَرُ الموارنة أن يكونوا شهودًا للحريّة في هذا الشّرق، وقَدَرُ أسياد يانوح وقنّوبين والدّيمان، وما بينها من مغاور ، أن يحملوا، هموم الحريّة وهموم الموارنة، وما أكثرها وما أثقلها في هذا الشّرق الحبيب! غير أنّ الموارنة قد تعلّموا من بولس الرّسول أنّ المحبّة لا تزول ولا تبالي بما ينالها من السّوء، أمّا الرّئاسات والنّبوءآت والألسن فإنّها تبطل وتزول إن لم تكن بالمحبّة.

والمؤسسّة البطريركيّة لو لم تكن في جوهرها محبّة وتضحية لزالت وانمحت، بعد خمسةَ عشرَ قرنًا من المحن والصّعوبات، من التّشرّد والإضطهادات، من محاولات التّنكّر لها والإستقواء عليها من الدّاخل، ومن محاولات إزالتها والتّآمر عليها من الخارج. وإنّي لموجز معاناتها التّاريخيّة ببعض المراحل.

30- جامعة الروح القدس، الكسليك.

تأسيس البطريركيّة

منذ البدء وفي نهاية القرن السّابع، وعلى أثر الخلافات والإنقسامات حول الطّبيعة والإرادة في السّيد المسيح، وبعد سقوط البطريركيّات في الإسكندريّة وإنطاكية تحت ضربات الفاتح العربي، وانقطاع الإتّصال بروما وبالقسطنطينيّة بسبب الحروب ما بين البيزنطيين والعرب، ولئلاّ يضيع القطيع ويتشتّت، قامت البطريركيّة المارونيّة، في نهاية القرن السّابع، في ديرٍ يرأسه راهب أسقف على إسم النّاسك مارون بالقرب من نهر العاصي ومدينة آفاميه عاصمة سوريا الثّانية، لتسُدَّ فراغًا في القيادة وتحتضن الشّعب المشرَّد، وترشده إلى أمكنة آمنة حصينة في جبال لبنان وأوديته، حيث استقبلهم، على دفعات متتالية، إخوان لهم في العقيدة الخلقيدونيّة، التي تزعموا الدّفاع عنها منذ منتصف القرن الخامس حتّى العاشر. وقد، استقرَّت هي معهم، بين المغاور والكهوف، لا تبالي بما تعانيه من ضيق وتشرُّد، لأنّ المحبّة "لا تسعى إلى راحتها أو منفعتها بل تصبر على كلّ شيء وترجو كلّ شيء".

التّكيّف مع طبيعة لبنان

أمّـا المرحلة الثّانية، فتتميَّز بالتّكيّف مع طبيعة لبنان الوعرة وبالإنطواء على الذّات، وتنتهي بعودة الإتّصال بروما بواسطة الصّليبيين، وقد كان تأثيرها عميقًا وحاسمًا. فتتطبّع الموارنة خلالها، قيادةً وشعبًا، بوعورة بيئتهم الجديدة وأصبحوا، كما يقول كمال الصّليبي، شعبًا

صلبًا، مُتراصّ الصّفوف شديد البأس غيورًا على كيانه ودينه، واستمرَّت البطريركيّة تقوم بِمَهَمَّات القيادة، وترشده في الأمور الرّوحيّة والزّمنيّة وتؤمِّن له مستودعًا لخبرته... وكان البطاركة يعيشون إلى جانب الشّعب ببساطة ووداعة يشاركونه في أفراحه وأتراحه.

وبالرّغم من التّحصّن، لم تخلُ هذه المرحلة من امتحان عسير زمن المماليك، فقد قُتِل خلالها وتشرَّد وأُحرق عدد من البطاركة والأساقفة... وقد كتب مؤرِّخ السلطان قلاوون واصفًا أسر البطريرك لوقا البنهراني فقال: "إتَّفق أنّ في بلاد طرابلس بطركًا عتا وتجبَّر واستطال وتكبَّر وأخاف صاحب طرابلس (المملوكي) وجميع الفرنجة (الصّليبيين) وكان إمساكه فتوحًا عظيمًا أعظم من افتتاح حصن أو قلعة".

وبعد استقرار نسبي شرعت القيادة بتوجيه أبنائها نحو البناء الدّاخلي للبنان والإمتداد فيه من الشّمال إلى الجنوب، بحيث أنّ الرّقعة اللبنانيّة القائمة اليوم تنتهي بالإمتداد الماروني آنذاك، وقد حصل هذا الإنتشار بتشجيع من الأسر المسيطرة لأنّهم رأوا فيهم قوّتين حقيقيّتين: قوّة داخليّة عاملة بنّاءة، وقوّة خارجيّة تفتح له البحر وتصلهم بالتّجارة والتّقدّم العالميين، وقد إعْتُبِروا آنذاك الجامع المشترك للطّوائف جميعًا، فلا انحيازات لهم في الدّاخل، بينما لهم علاقات وطيدة بإيطاليا وروما وفلورنسا.

وفي هذه المرحلة بعينها كان الإنسجام تامًّا، ليس فقط بين البطريركيّة والإمارة اللبنانيّة، على اختلاف مذاهب الأمراء وأديانهم وحسب، بل بين الكنيسة والزّعامة المارونيّة الجديدة وكان هؤلاء عكس المقدَّمين شديدي

الغيرة على مصلحة الكنيسة. وبقي التّلازم على صفائه إلى يوم تحوّلت الإمـارة الشّهابيّة إلى إمـارة مارونيّة مع الأمـير يوسف بن بلحم سنة 1770، ومن بعدها إلى سنة 1841 حيث حيكت حولهم الدّسائس من الدّاخل والخارج، خصوصًا مع الإمبراطوريّتين العثمانيّة والبريطانيّة، وانتهت بمذابح سنة 1860 في القائمقاميّة الدّرزيّة.

طيلة هذه المدّة، وخلال المحن القاسية، لم يغب قطٌّ عن بال القيادة المثل الشّعبي المأثور "من لا وطن له لا دين له" فتخطّوا محنة سنة 1860 ونبذوا الأحقاد وأقبلوا، منذ أُعْلِنَ نظام المتصرّفيّة سنة 1864 ، على التّعاون مع شركائهم في الوطن لإنجـاح التّجربة اللبنانيّة الجديدة، محوّلين عصبيّتهم الدّينيّة تدريجيًّا إلى ولاءٍ للبنان كوطن يجمع بينهم وبين الطّوائف الأخرى ضامنًا مصالح الجميع والعيش الكريم للجميع.

فكرة الوطن التّعدّدي

في المرحلة الثّالثة أخذت فكرة الوطن التّعدّدي الجامع تتبلور، وقد كانت البطريركيّة هي القوام والمؤسّسة الضّامنة لهذه الفكرة، يقينًا منها أنّ بنيانًا بهذه الأهميّة والخطورة وفي هذه المنطقة المشرقيّة الرّافضة للأوطان آنذاك، لا بدَّ له من إرادة مخلصة صلبة مجرّدة عن كلّ غاية. فعادت إلى خبرتها مع فخر الدّين، وضرورة إرجاع الرّقعة اللبنانيّة إلى ما كانت عليه من الإتّساع، فأخذوا يعملون مطالبين بالموانئ البحريّة والمناطق المحاذية للجبل، وهي السّناجق والأقضية وقد فعلوا ذلك بحسٍّ وطني صاف غيرَ أخذين بالإعتبارات الطّائفيّة الضّيقة، لأنّ قسمًا كبيرًا

من سكّان هذه الأقضية والسّناجق كان مسلمًا، ولم يتحقّق سعيهم إلاّ في نهاية الحرب وتقلّص الوجود العثماني سنة 1918. وفي الأوّل من أيلول سنة 1920 تحقّق الحلم وأعلن الفرنسيّون دولة لبنان الكبير في حدوده الحاضرة وهي، كما قلنا، حدود الإنتشار الماروني على عهد الإمارتين. وقد تمَّ ذلك على أثر حماس شعبي منقطع النّظير، كما يقول يوسف السودا في مذكّراته، ولجان عمل في باريس والإسكندريّة وبيروت، ومفاوضات باشرها، منذ البدء، وترأس أهمّها البطريرك الياس الحويك بتفويض من الشّعب اللبناني ومجلس الإدارة المؤلّف آنذاك من ممثّلين عن الطّوائف اللبنانيّة كافّة.

الإستقلال

وكرجل دولة مسؤول عن الفئات اللبنانيّة كافّة، تخطّى البطريرك الياس الحويّك رغبة البعض من أبنائه، واختار من بين الطّروحات المعروضة يومذاك، خيار لبنان الكبير، الذي يلبّي طموحات المفكّرين الحريصين على المبادئ والأفكار التي يمكن أن يقوم عليها تعاون مسيحي- إسلامي، يؤدّي بالنّهاية إلى ضمان الوجود المسيحي الحرّ من جهة، وإلى التّعاون مع المحيط العربي الواسع من جهة ثانية، أي يضمن، بالوقت ذاته، إستقلاليّة الوطن وقابليّته للحياة والعيش معًا بكرامة.

وبتركيزه على هذا الخيار الحرّ يكون البطريرك الحويّك قد وضع ذاته في خطّ المراحل التّاريخيّة الكبرى التي قادها أسلافه البطاركة والتي لا تهدف إلاّ إلى الإستقلال والإنفتاح على الغير.

وبما أنّ فكرة الوطن التّعدّدي الجامع تفترض، كما يقول الصّليبي، ألاّ يكون لبنان وقفًا على الموارنة وحدهم بل على جميع اللبنانيين على السّواء، شرط أن يتحمّل الجميع مسؤوليّاتهم تجاه الوطن اللبناني والقيم الإنسانيّة الشّاملة التي بُنِيَ عليها.

وكأمٍّ مثاليّة عرفت الكنيسة البطريركيّة أن تُغَيِّبَ ذاتها بعد أن عملت وعانت سحابة أجيال وأجيال، لتحلّ الجمهوريّة اللبنانيّة محلّها في القيادة، وتعمل على تطوير الوطن وتحديثه وجعله المكان الأنسب لنمو المواهب وتألّقها.

أيّها السّادة، هَمُّ الموارنة الوحيد منذ البدء وعبر العصور كان الحريّة والعيش الكريم، كما كان يحلو للمفكّر اللبناني الكبير تقي الدّين الصلح أن يردّد في مجالسه: "إنّ للمسلمين الفضل في استقلال لبنان عن العالم العربي، ولكن للموارنة وحدهم فضل الحفاظ على الحريّة والدّيمقراطيّة".

أيّها السّادة هل لنا اليوم أن نفيد من معطيات التّاريخ وتجارب الماضي القريب فنُعيد سويّة، مسلمين ومسيحيين، قراءة تاريخ لبنان الحديث؟

وهل هذه القراءة تختلف كثيرًا عن توجيهات الإرشاد الرّسولي، وتوصيات المجمع البطريركي، وعمل البطريرك نصر الله صفير، ومن سبقه من البطاركة، الدّؤوب والمضني والذي يختصر ببراعة توجيهات الإرشاد وتوصيات المجمع ويستمر امتدادًا طبيعيًّا لرسالة البطاركة عبر التّاريخ في توجيه المواطنين جميعًا نحو التّعالي عن الصّغائر والتّفاهم مع الغير والعيش معًا بكرامة، تحقيقًا لرسالة لبنان الوطن المثال؟

الكسليك في 2006/4/16

المارونيّة بين الدين والدولة: رأي في نزاع الشرق الأوسط[31]

صراع حضاري

تمنّيت لو أنّ هذا الصراع الذي نشهد اليوم في الشرق الأوسط، كان صراعاً سياسياً وحسب، واوجست منه خيفة وقد تحقّقت أنّه صراع حضاري فريد من نوعه. هو صراع حضاري لا يُقارَن بأيّ تحوّل تاريخي آخر، كالتحوّل التاريخي الذي عاشته اوروبا في القرن السادس عشر، على أثر الاكتشافات العلميّة وانتشار حركة البعث والانسانيّة، عندما ضَعُفَت فكرة الدولة المسيحيّة الواحدة، وبرزت إلى الوجود فكرة الدولة الحديثة المستقلّة.

ذاك كان صراعاً مُحيياً، صراعاً بنّاءً، لأنّ المسيحيّة دخلت في نزاع مع ذاتها، مع الحضارة التي أنشأتها، مع القوى الحيّة الفاعلة الكامنة فيها والقوى الراقدة المتمركزة.

31- محاضرة في جامعة القديس يوسف في 7 شباط 1973.

أمّا هذا فَيُنْعَت بالميت، لأنّه تنازع بين حضارتين عريقتين، الواحدة منها تنازع الاخرى رقعةً من الأرض، بدل أن تدخل في حوارٍ ذاتيٍّ بنّاء. إنّ المعركة بين العرب واسرائيل اخذت تتحوّل إلى صراع حضاري بين الإسلام واليهوديّة. ففي صراع الحضارات هذا، ما دور المسيحيّة وما موقفها؟ ما موقف المسيحيّ اللبنانيّ وما دوره؟

للإجابة على هذا السؤال، ولتوضيح معالم هذا الدور أعود بكم، بلمحات خاطفة، إلى التاريخ، إلى نشأة المسيحيّة وتطوّرها وانفصالها عن اليهوديّة، ثمّ إلى نشأة الإسلام وفتوحات البلدان التي تُعرف اليوم بإسم الدول العربيّة. وهنا نتوقّف عند ردّات الفعل المسيحيّة المختلفة، وبنوع خاص - نظراً لإختصاصي - عند الحلّ الماروني القديم الذي هو محور بحثي.

اليهوديّة قوميّة عنصريّة

لقد أظهرت الدولة الرومانيّة، قبل المسيحيّة، نوعاً من التسامح تجاه محاربي العقيدة الوثنيّة، ولم تطلب من مُعتَنِقي المذاهب الجديدة إلاّ مسلكاً وعملاً يدلّ على احترام الآلهة والامبراطور، واعتبرت الفعل الخارجي كتقديم البخور مثلاً، علامة اخلاص للدولة. فكانت تسمح للأمم المغلوبة أن تحافظ على عبادة آلهتها وتوجد لهم مكاناً بين آلهة الرومان، شرط الّا يكونوا موحّدين. وقد خصّت اليهود بأكبر قسط من هذا التسامح، لأنّها اعتبرت ديانتهم، وإن موحّدة، مرتكزة على اساس قوميّ، فلا خوف إذاً على ديانتها الرسميّة من الارتدادات. لذا دعى ترتليانوس اليهوديّة "ديانة

شبه رسميّة استترت تحت ظلالها المسيحيّة الناشئة مدّة من الزمن". هذا بالنسبة للدولة الرومانيّة، امّا بالنسبة لليهود فإنّ طريقة مذدوجة، لفهم ديانتهم، كانت قد شاعت فيما بينهم: تختص الأولة بفلسطين، يسيطر عليها ضيق الفكر والانغلاق على كلّ ما ليس يهوديّاً. وقد انتشرت الثانية خارج فلسطين في بلدان الشتات، وهي لا تختلف عن الأولى إلاّ بفقدان التزمّت والتصلّب المبالَغ فيهما في اليهوديّة الفلسطينيّة. هذا الاتجاه الاخير الذي نلحظه صريحاً في مؤلفات فيلون الاسكندري اليهودي، سوف تستفيد المسيحيّة من انفتاحه، لتعبّر وتنتصر بواسطته على الوثنيّة.

المسيحيّة انسانيّة عالميّة

ولمّا تمّ ملء الزمن، وجاء المسيح، اعتُبِرَتْ المسيحيّة حركة يهوديّة داخليّة. وظلّت تحفَل برعاية الدولة الرومانيّة رغم توحيدها ونظرتها العالميّة المسكونيّة إلى أن حصل الانفصال التام بينها وبين اليهوديّة في انطاكية حولي سنة 49 للميلاد، أيّ عشرين سنة تقريباً بعد موت السيّد المسيح. وإليكم كيف ولماذا ظهرت المسيحيّة في انطاكية وليس في فلسطين.

في حوالي سنة 49 للمسيح، كانت الكنيسة قد ازدهرت وازداد عدد المؤمنين حتى بلغ بضعة آلاف، وقد تقدّمت، بنوع خاص، في الأوساط اليهوديّة، عندما كان هؤلاء يعترفون بأنّ مصلوب الجلجلة هو نفسه المسيح المنتظر، أمّا في الأوساط الوثنيّة فإنّ تقدّمها كان بطيئاً. وحدث أن اثار دخولُ هذه العناصر الغير اليهوديّة في الديانة المسيحيّة جمّاً من المعضلات. فرسالة المسيح، وإن طغت، عمليّاً، على الوحي القديم، لم

تظهر على خلاف مستحكم معه. قال السيّد المسيح: "لقد أتيت لأكمّل الشريعة لا لأنقضها". إنطلاقاً من هذه الآية وأمثالها، استخلص بعض المسيحيين المتحدّرين من أصل يهودي، أنّ على الراغب في الانضمام إلى جماعة المسيح، الخضوع أوّلاً لعوائد ومقتضيات الشريعة الموسويّة. ولم يطل الزمن حتى تحوّل هذا التباين المسلكي، إلى خلاف نظري عقائدي قسم الجماعة المسيحيّة الأولى إلى فئتين: فئة أولى ذات نزعة يهوديّة وفئة ثانية ذات نزعة أمميّة. وهذه المسألة بالذات، مسألة العلاقات مع الوثنيين، كانت قد أقلقت، سابقاً، خاطر القديس بطرس نفسه، عندما أتى شاطئ البحر المتوسط حاملاً كلمة الخلاص، وقيل له أنّ وثنيّاً، قائد مئة، سوف يطلب إليه الدخول في كنيسة المسيح. حينذاك شعر بطرس باضطراب داخلي كبير، اخرجه منه السيّد المسيح بإلهام إلآهي خاص (أعمال 10 – 1). هذه المسألة ذاتها قد طُرِحَتْ من جديد، إنّما بطريقة أكثر إلحاحاً، في الأوساط الوثنيّة خارج فلسطين، حيث كان بولس ورفاقه قد حملوا إلى الأمم بشارة المسيح: فكان كلّما ازداد عدد الوثنيين الراغبين في الدخول، تبيّن أنّ المرور بالمرحلة اليهوديّة، قبل اعتناق الإيمان الجديد، شيء لا فائدة منه. عند هذا، رأى بولس بنظره الثاقب وعبقريته الفذّة واندفاعه في سبيل الانجيل، أن يثير القضيّة في مجمعٍ عام في اورشليم، فكان له ذلك. وإذا ببطرس ويوحنا ويعقوب (الفئة اليهوديّة) يضعون أيديهم بأيدي بولس وبرنابا (الفئة الأمميّة)، ويُصدِرون قرارهم الشهير للمسيحيّة جمعاء "بان الروح القدس ونحن رأينا ألّا تحمّلكم ثقلاً جديداً..." وهكذا حُسِمَ الخلاف وانطلقت المسيحيّة متحرّرة من رواسب

الزمن والقوميّة، مؤكِّدةً أنّها ملك للبشر اجمعين، مستقلّةً عن القضايا القوميّة والسياسيّة، قائمةً على متطلّبات الحياة الداخليّة.

فكرة الوسط الحضاري

ونتساءل كيف فهم الرسل، وكيف عاش المسيحيون الأوّلون هذه الانطلاقة الجديدة التحرّريّة؟ من الواضح والأكيد أنّ المسيحيّة عالميّة انسانيّة بجوهرها، غير أنّه تحتّم عليها أن تنشأ في وسط جغرافي تاريخي وفكري، أيّ في وسط حضاري. وفكرة الوسط الحضاري هذه، هي إحدى المعطيات الأكثر اهمّية بالنسبة لتاريخ الكنيسة لأنّها، في الواقع، تشمل قضيّة العلاقة بين المسيحيّة والاخلاق، بين الكنيسة والدولة، وتطال ايضاً قضيّة امكانيّة وجود وحدود عدد من الكنائس الخاصة الانطاكيّة والرومانيّة والبزنطيّة مثلاً، ضمن الوحدة الكاثوليكيّة. ذلك أن نعمةَ المسيح ونورَه يعملان وُفقَ المعطيات الطبيعيّة التي ترتكز في جوهرها، على المعطيات الفائقة الطبيعة. يعني ايضاً أن الفرق بين كنيسة واخرى لا يمسّ جوهر المسيحيّة، بل طريقة عيشها وممارستها لواجباتها. إنّ الوسط الفكري الحضاري يُكسبها مظهراً خُلُقيّاً خاصاً ويحدّد علاقتها مع الوطن الأمّ. أي أنّ الوسط الفكري الحضاري اللبناني يحدّد علاقة المسيحيّة اللبنانيّة، بالاخلاق اللبنانيّة والدولة اللبنانيّة، أيّة كانت الاخلاق وأيّاً كان نظام الدولة. لذا تعدّدت الطقوس تعدّد الحضارات القديمة والحديثة، التي نشأت وتنشأ المسيحيّة في وسطها الفكري الحضاري. وتبقى المسيحيّة مع ذلك مُلكاً للبشر أجمعين، مستقلّة عن القضايا السياسيّة، قائمة على متطلّبات الحياة الداخليّة.

محاولة تدويل المسيحيّة

ولكن هذا الاستقلال عن القضايا السياسيّة، وتلك النظرة الشموليّة، لم يمنعا بعض المسيحيين من أن يحاولوا وضع قيودٍ للمسيحيّة، وأن يجعلوا من دينهم دولةً. غير أن المسيحيّة المتحرّرة عرفت واستطاعت، بما لها من حيويّة داخليّة روحانيّة، أن تثور على ذاتها وتُحَرِر اوروبا من عقدة الدولة المسيحيّة الواحدة، القائمة على دعامتين قويّتين: البابويّة والامبراطوريّة. وما تاريخ المجامع المسكونيّة إلاّ تعبيرٌ صادقٌ عن الحياة المسيحيّة عَبر أزمات تطوّرها المتكامل، وخلال مجابهتها العالم المتطوّر والفكرة الانسانيّة والحضارات المتعاقبة. فالمجامع المسكونيّة التي حصلت، كانت بالفعل مناسبة لتجديد الكنيسة "وعصرنتها" : فالحقائق الازليّة حاضرة فيها أبداً، لكنّها قد تتجمّد بعض الاحيان، أو تطمس بفعل الجهل والضلال او بمرور الزمن الرتيب. على أنّ "الدفعات الجديدة من الحيويّة تُعيد إليها تألّقها الأوّل لكمال رسالة المسيح، حسب حاجة ومقتضيات كلّ عصر". (البابا يوحنا الثالث والعشرون).

الاسلام والقوميّة

كان هذا شأن المسيحيّة مع ذاتها ومع اليهوديّة القوميّة، فما هو شأنها مع الاسلام؟

نشأ الاسلام، ولا شك، متاثّراً باليهوديّة والمسيحيّة في أنٍ معاً ونزلت تعاليمُه الروحيّة كالطَلّ على جفاف الصحراء الوثنيّة. ولكن لست أعرف

كيفَ؟ وأينَ؟ ومَن سمح للعدو، على حدّ قول السيّد المسيح، أن يأتي كاللص ليلاً، ويُبذر الزوان في حقل الحنطة. لا اعرف كيف سمح الخلفاء لأنفسهم أن يحيدوا عن تعاليم الرسول، ويربطوا الاسلام الروحي بمجتمع معيّن وحضارة خاصة ولغة محدّدة. لا اعرف كيف ولماذا؟ لم يفصلوا بين الحقيقة الروحيّة والنُظم الاجتماعيّة، بل على العكس من ذلك اعتبروا النُظم الاجتماعيّة المؤقّتة، التي وُضِعَت أصلاً لنقل الانسان العربي من وسط بدويّ بدائي، إلى وسط حضاري متقدّم. فاعتبروا هذه النُظم المؤقّتة نظماً خالدة خلود الحقيقة الروحيّة، نازلة معها من السماء. فكان إن ربط الاسلام، ربطاً مُحَكّماً بين الدين والدولة، بين الدين والاخلاق والعادات وأُجبِرَ كلَ مُعتَنق تعاليمه الروحيّة أن يعتنق الاخلاق والعادات التي هي وليدة حضارة معيّنة، هي الحضارة العربيّة. والفتح الاسلامي، ألم يتحوّل إلى غزوٍ عربيٍّ كاسح، مسح من الوجود كلّ حضارة لا ترتبط عُضويّاً بالحضارة العربيّة؟ فإذاً بمصر القبطيّة الفرعونيّة، والبلدان الافريقيّة المجاورة لها، تُصبح بين ليلة وضحاها مغرباً عربيّاً قحّاً. وإذا بسوريا الآراميّة تطمس كلّ معالمها الحضاريّة، فتبان وكأنّها وُجِدَت مع الفتح العربي (632 - 636). لذا أظنّ أن قد أُسيء فهم الاسلام واعتُبِرَ، عكس طبيعته، كاليهوديّة، ديناً قوميّاً.

ويوم اطلّ الاسلام على سوريا، اطلّ بملامحه القوميّة والعربيّة، فكانت ردّات الفعل المختلفة، من مسيحيّة ممزّقة مشلّعة احزاباً احزاباً، إثر صراعها مع ذاتها ومع الامبراطوريّة البيزنطيّة التي جعلت من المسيحيّة دين الدولة، ورامت أن تحقّق بواسطتها انتصارات سياسيّة باهرة.

فما ردّات الفعل هذه وما هو الحلّ الماروني الذي اعتبره الزمن افضل الحلول للبقاء والصمود؟

قلت اطل الفتح العربي على سوريا والمسيحيّة اشلاء مبعثرة: فالنساطرة قد تراجعوا إلى الشرق وناصروا الفرس، وأيَّ سلطان آخر، شرط أن يكون خصماً للبزنطيين. واصحاب الطبيعة الواحدة وبينهم اليعاقبة، قد اتّجهوا اوّلاً إلى الفرس ثمّ إلى العرب، وقد خفوا لاستقبالهم مهلّلين مردّدين مع أحد مؤرّخيهم: "إنّ ربّ النقمة، نجّانا على يد الاسماعليّة. أيّ المسلمين من يد الروم أي البزنطيين". أمّا الملكيون وهم الروم والموارنة، الذين كانوا على دين الملك، فسينالون - وقد وقعوا في قبضة الفاتح، وانقطعوا عن حماية الامبراطور - "جزاء الأعداء علاوةً على حظّ الكافرين". وهؤلاء ايضاً، سوف تنبت بينهم بذور خلافات جديدة، منها دينيّة لاهوتيّة حول الفعل والمشيئة في السيّد المسيح، ومنها طقسيّة وطنيّة حول اللغة والليتوجيّا الكنسيّة: فالموارنة كانوا اكثر من غيرهم سوريّةً، واكثر تعلّقاً بطقوس انطاكية ولغتها وحضارتها السريانيّة.

المارونيّة تتحوّل إلى شبه قوميّة

إن الفتح العربي قد أثار في الشعب المسيحي السوري ردّات فعل مختلفة لا بل متضاربة. وقد تميّز الردّ الماروني بالرفض، رفض "الامر الواقع" عربيّاً كان أم بزنطيّاً. لقد رفضوا التنازل عن لغتهم وحضارتهم: بزنطيّةً "مسيحيّة" كانت الحضارة البديل، ام عربيّةً اسلاميّةً، لا فرق. الامر الذي لم يقرّهم عليه قسم كبير من رفاقهم الملكيين الذين

استكتبهم العرب في دواوينهم وتعاونوا معهم لاتقانهم اللغة اليونانيّة. ورفضوا ايضاً التنازل عن معتقدهم المسيحي الخلقيدوني، كما رفضوا استبداله بمعتقد مسيحي آخر أم اسلامي، لا فرق ايضاً. وآثروا التخلّي عن كلّ شيء، حتى عن الأرض والوطن والمسكن في سبيل المحافظة على خطّهم الفكري والديني والحضاري.

وعندما ضاقت بهم سبل العيش، وقد كانوا يسكنون القسم الشمالي الخصب من سوريا، آثروا النزوح إلى أيّ بلد آخر على أن يتنازلوا عن خطّهم الفكري الحضاري المسيحي. وكان لهم أن يختاروا بين منطقتين خلقيدونيّتين، هما قليقيا الأولى في الشمال الشرقي، وفنيقيا اللبنانيّة والساحليّة في الجنوب الغربي. ولكن، بما أنّ قيليقيا الأولى كانت على خطّ النار بين جيوش الامبراطور البزنطي وجيوش الفاتح العربي، فضّلوا اللجوء إلى فنيقيا اللبنانيّة الجبليّة، الوعرة المسالك، وسلكوا إلى ذلك سبيل الترحال القديم، أي ضفاف النهر، حتى وصلوا إلى منبع العاصي في الهرمل حيث لا تزال آثارهم ظاهرة بيّنة حتى الساعة. ومن الهرمل تسلّقوا جبال الارز - حيث لا تطالهم خيّالة الفاتح العربي - واستوطنوا الجبل والوادي المقدس، واخذوا لهم منفذاً إلى البحر في بلاد البترون، ليواصلوا تجارتهم التي كانوا قد ألِفوها في سوريا الشماليّة: أيّ الزيت والزيتون والحبوب والخمور على انواعها، كما أثبت ذلك العالِم الأثري الشهير "جورج تشالنكو" في كتابه "القرى القديمة في سوريا الشماليّة". وفي الموطن الجديد، لاقوا الترحاب من السكان الأصليين الصرحاء، من مسيحيين خلقيدونيين ملكيين، ووثنيين منفتحين. ولم يطل الزمن حتى

انصهروا في وحدة متراصة البنيان والّفوا أمّة ذات سيادة، وحفظوا كيانهم بفضل تضامنهم والتفافهم حول رهبانهم واكليروسهم. وهذه بعض مقاطع دوّنها رحّالة غربيّون تشهد على أبرز اتجاهاتهم في وطنهم الجديد لبنان.

يقول رستلهوبر، قنصل فرنسا في بيروت في كتابه "تقاليد فرنسا في لبنان 1918": "وما أن اعتصم الموارنة في جبالهم حتى الّفوا أمّة على نصيب كبير من الاستقلال، فقد تمكّنوا، في ظلال جبالهم العالية العصيّة، من صدّ الزحف العربي، حتى اصبح لبنان وكأنّه قلعة مسيحيّة طبيعيّة، وقد تنظّموا بإدارة اكليروسهم وكبار ملاّكيهم تنظيماً اقطاعيّاً قويّاً، وعاشوا في جبالهم، مدة طويلة في شبه عزلة، ولم تكن طبيعة البلاد ولا اخلاق اصحابها مما يدفع إلى تأسيس المدن. فقامت القرى الكبيرة وكلّ منها ملك لأحد الملاّكين. وكلّ قرية او منطقة كان لها حياتها الخاصة، حياة زاخرة، ولّدت شعوراً وطنيّاً محليّاً قويّاً، وشعوراً وطنيّاً شاملاً، ظهر في تعلّق كلّ فرد بشخص البطريرك، وما كان اقوى هذا الشعور أبّان الملِمّات في وجه العدو المشترك" (ص15 - 17).

وقال الاخوان تارو "إنّ الموارنة في نظامهم "الاقطاعي" جعلوا جبلهم حصن المسيحيّة في الشرق، وكأنّي به قلعة كبيرة... وقد كانوا اسعد من الارز حظّاً، فامتدّوا وانتشروا في لبنان كلّه. فُرِضَ عليهم أن يعيشوا في طبيعة جافة قاسية، فأعملوا يدهم في الصخور ونحتوها فإذا هي "سطوح" متدرّجة وجنائن معلّقة وبساتين جوّية، وكروم من التوت والدوالي، واذا بها رائعة من الروائع" (ص 41 - 42).

وكانت بعد ذلك الحملات الصليبيّة المؤسفة التي حاولت هي الاخرى تدويل المسيحيّة. وهذه قد اتاحت بدورها للموارنة فرصة الاتصال بالحضارة الغربيّة وبالكرسي الرسولي الروماني.

ونتساءل اليوم عن سرّ صمود هذا الشعب الصغير، وتكاد الكلمة تقفز على شفاهنا قفزاً: إنّ االمارونيّة، قد تحوّلت مع الفتح الاسلامي، من مذهب فكري إلى شبه قوميّة ذات نظام ديني اقطاعي وتسمّرت مع صخور لبنان. وهكذا ثبتّت وصمدت. ولكنّنا قد لا نكون على قسط وافر من الصواب اذا اكتفينا بهذا التعليل البسيط بالرغم من تارخيّته، لأنّنا بذلك نكون قد اسأنا فهم قوّة الروح وعظمة سرّ القيامة. فالحضارة الاقوى والاغلب هي التي تجد من يلتزم بها من الداخل، من يعيشها عيشاً صادقاً مخلصاً بألم وبطولة، بحبّ وعطاء. فالموارنة كانوا عَبر تاريخهم مخلصين أوفياء لعقيدتهم أوّلاً وللدولة ثانياً، مهما كان شكل الدولة ولونها، ففي دولة فخر الدين الدرزي، كما يقول العلاّمة الدويهي: "ارتفع رأس النصارى، عمّروا الكنائس وركبوا الخيل بسروج ولفّوا شاشات وكرور، ولبسوا طوامين وزنانير مسقطة، وحملوا القاص والبندق المجوهرة. وقدموا المرسلين من بلاد الفرنج واخذوا السكنة في جبل لبنان، لكون غالب عسكره، كانوا نصارى وكواخيه وخدامه موارنة". ولأنّ الامير، كما يقول الدكتور كمال الصليبي، "وجد فيهم من الوفاء والصدق والامانة ما جعله يخصّهم بعناية مفضّلة". وبفضل هذه الصفات عينها استطاع الموارنة اكتساب عطف ومودّة الامراء الشهابيين السنّيين الذين "ساووا ما بين الموارنة والدروز في المكانة"، فاتصل الشهابيون بواستطهم بفرنسا

والغرب. كما اتصل بواسطتهم سابقاً الامير فخر الدين بروما وبأمراء توسكانا - وقد انتهى الامر بالشهابيين السنّيين وبأنسبائهم آل ابي اللمع، إلى اعتناق المسيحيّة حتى اصبحت الامارة الشهابيّة إمارة مارونيّة". (ولعلّ وزير داخليتنا المثقف كان يعيد قراءة هذه الصفحة من التاريخ عندما القى خطاباً لسنة خلت قال فيه: "بعد مئة وخمسين سنة سوف نزيل مؤامرة الشهابي الكبير...").

المارونيّة مسيحيّة قبل كلّ شيء

قلت إنّ المارونيّة التي تسمّرت مع صخور لبنان وعاشت منكفئة في شبه عزلة، وقد وجدت أنّ العزلة والانكفاء على الذات ليسا من طبع المسيحيّة المنفتحة على الانسانيّة وعلى الكون، والمارونيّة مسيحيّة قبل كلّ شيء وقبل أن تؤلّف قوميّة منغلقة. لذا راح لبنان يتحوّل معها إلى ملجأ للأقلّيات الهاربة في الشرق، من القوميات العنصريّة والدينيّة. كثر الاضطهاد واشتدت المظالم في الشرق فاتسع ورحب صدر لبنان، حتى فاقت نسبة اللاجئين إليه الستين بالمئة، وكان الذي خشينا ان يكون، كان الغزو العربي الجديد بالغاً في الخطورة، وكان رفض "الامر الواقع" من جديد، رسميّاً وإن لم يُنَفّذ، بالغاً في الحضارة والانسانيّة. قال الرئيس اللبناني الاستاذ شارل حلو: "لا نتمنّى إلاّ الخير لشعب فلسطين، ولا نبتغي إلاّ دعم نضاله المشروع... لذلك كان من الطبيعي ونحن نعالج هذا الموضوع، أن نتمسّك بما يَفرِضُه منطق سيادة لبنان وسلامته والمنطق العسكري، ومصلحة لبنان ، ومصلحة العرب انفسهم... واذا كنّا لا

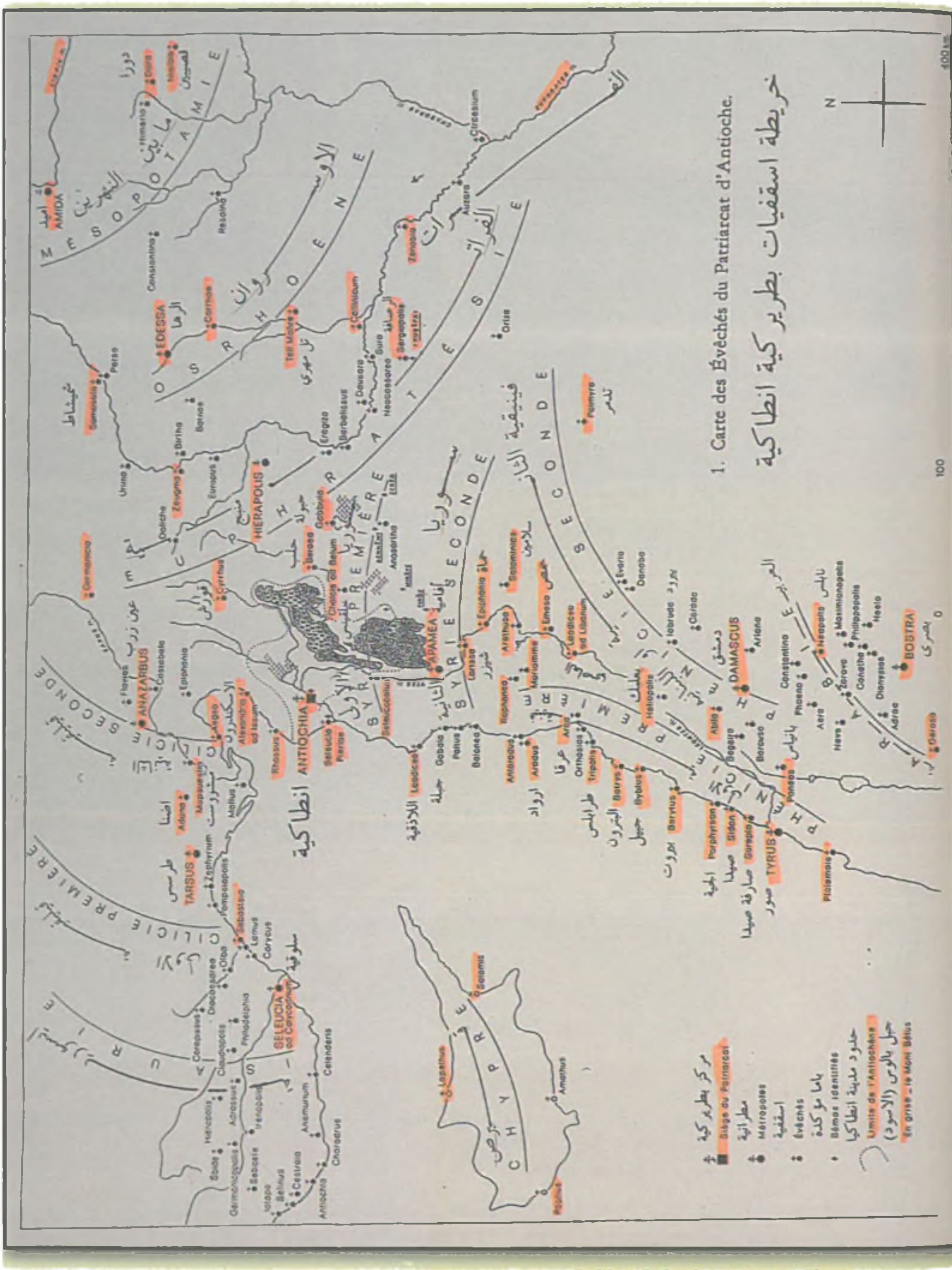
نشاء هنا أن ندخل في تفاصيل الوقائع، فإنّ هذه التفاصيل تدلّ بوضوح كلّي أن استمرار تفاقم الوضع، ليس نابعاً من رفض لبنان الاسهام في قضيّة يُدرك اهميّتها ويقدّسها، بل إنّما مرد ذلك إلى محاولات مستمرّة، مرحلة بعد مرحلة، لفرض سياسة الامر الواقع علينا دون سوانا، كأنّ هذه السياسة منشأ للحق".

ولم يكن الرفض هذه المرّة باسم الموارنة وحسب، بل باسم لبنان الحضارة والرقيّ، "لأنّ لبنان الحديث قد حمل عن وعي رسالة الموارنة"، كما يقول كمال الصليبي. كان الرفض باسم لبنان. وهل يَعقُبُ الرفضَ النزوح مرّة ثانية؟ ويُعيد التاريخُ نفسَه؟ وهل يُعقَل أن ينزح وطن بأكمله؟ لأنّ لبنان الحديث كلّه قد حمل عن وعي رسالة الموارنة؟ او هل نعود إلى نغمة الانكفاء على الذات من جديد؟ لا! نحن لا نقول بالانكفاء مرّة اخرى وقد تبدّل العصر وتبدّلت وسائل الحرب فاصبحت تطال النائي البعيد كما تطال القريب القريب، نحن لا نؤمن بالقوميات الدينيّة او العنصريّة. بل نقول: بالصلابة والشدّة، بالعلم والحوار. صلابة وشدّة مع الذات من جهة الايمان والمعتقد المعاش يوميّاً، علم وحوار مع الغير. واجبنا المحتوم أن نجعل الاسلام يدخل في حوار ذاتي صارم بنّاء، في ثورة داخليّة روحيّة، كما فعلت المسيحيّة قبله، فيفصل الدين عن الدولة، ويفصل العروبة عن الاسلام الروحي. فيتحرّر عندئذ من عقدة الدولة الاسلاميّة او العربيّة الكبرى، ويحترم الحضارات العريقة فيتروحن اكثر ويلتقي عندئذ مع المسيحيّة ضد الصهيونيّة او يرفض هذا الحوار، فيتقوقع في قوميّته وعروبته مثل اليهوديّة في قوميّتها الصهيونيّة، ويروح يفتّش عن ملك زمني وأرضٍ فانية يغتصبها ويفنى معها.

طريق الموارنة

من سوريا إلى لبنان

(خوارط وصور)



خريطة اسقفيات بطريركية انطاكية



وضع كتلة المرتفعات الكلسية لجبال منطقتي طورس وشرقي المتوسط



طرق المواصلات القديمة في سوريا الرومانية

طريق المواصلات القديمة في سوريا الرومانية
وطريق الموارنة من انطاكية الى لبنان

قلعة كالوتا على جبل قورش
حيث استحبس مارون





مقر البطريركية
المارونية في دير
مار يوحنا مارون
في كفرحي



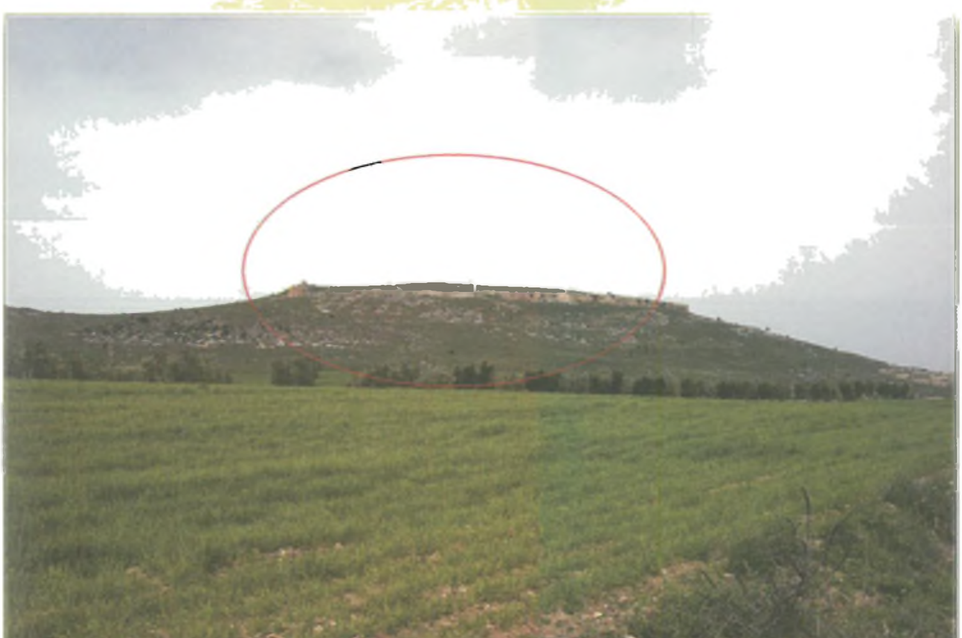
آثار مقر البطريركية
المارونية في يانوح



آثار دير مار مارون (المفترضة) في منطقة أفاميا



براد حيث الضريح المفترض للناسك مارون



قمة جبل قورش حيث استظل الناسك مارون جانح هيكل وثني قديم

محنة موارنة قبرص - 1974 [32]

قال الأب الدكتور بولس نعمان، في حديث إلى الوكالة اللبنانية للأنباء
عن الموارنة في قبرص: "بعد حوادث 1974 أعدنا مع لجنة من الرابطة المارونية، المهجّرين إلى قراهم واستحصلنا لهم على امكانية العمل في العاصمة، والتنقل بحرية، كما وُفِّقْنا في تحرير الأسرى... وأهم ما حققناه هو إقناع المسؤولين الأتراك بضرورة معاملة الموارنة كأقليّة معاملة حسنة."

واللقاء مع الأب نعمان، لم يقتصر على أحوال الموارنة في الجزيرة، بل تجاوز المشكلة إلى اطارها التاريخي والاجتماعي والاقتصادي، ليتناول أزمة قبرص، ودور الاميركيين في تقسيم الجزيرة، وتاريخ الهجرة المارونية إلى قبرص، والعهود التي قطعتها، بالاضافة إلى جغرافية قبرص السياسية والاقتصادية، بالوقائع والارقام.

32- مقابلة مع الوكالة الوطنية للأبناء في 24 تشرين الأول 1979.

وهذه تفاصيل الحديث:

جذور المشكلة

- هل لك أن توجز المشكلة القبرصية في جذورها أي الخلاف القائم بين القبارصة الأتراك والقبارصة اليونان؟

- في ربيع سنة 1971، كتب اميل كولودني أحد البحاثة الفرنسيين مقالاً عن القبارصة الاتراك في مجلّة ليون الجغراقية جاء في خاتمته ما يلي: "رغم أن الأمور بدأت تميل ظاهرياً نحو الهدوء والاستقرار، فإن المشكلة القبرصية لا تزال أبعد من أن يعطى لها حلّ نهائي. فالأتراك قد أخفوا لزمن تصميمهم تقسيم الجزيرة الذي يستتبع انتزاع قسم كبير من ابناء الطائفة التركية من مواقعها الحاضرة. واليونان بدورهم لا يؤدون لفكرة الوحدة مع اليونان "Emosis" الا احتراماً كلامياً. يضاف إلى ذلك أن القبارصة الاتراك لا يتكلّمون الا عن "الاتحاد"، و"المقاطعات"، و"استقلال الاقاليم"، وهي كلها عروض يحاربها ويرفضها القبارصة اليونان، وهؤلاء لا يقبلون إلا بنوع من القاعدة الذاتية المجزأة ذات الطابع الثقافي، ويرفضون ازدواجية السلطة رفضاً باتاً.

وبينما المحادثات تأخذ مجراها، فإن كلا من الفئتين يتمسّك بالحل المؤقت، أو كما قال يوثانت، "بالاستقرار السلبي، وكل طائفة تُسيِّر اعمال فئتها. فاليونانيون يديرون شؤونهم تحت شعار الجمهورية الديمقراطية. فيما الأتراك يعيشون في شبه استقلال غير معترف به حقوقياً وقانونياً، لكنه موجود بالفعل بمؤسساته وجيشه ومحاكمه ومجلسه الوطني.

تجاه هذا الانقسام الفعلي، نرى الأتراك يجهدون أنفسهم بأسلوب تدريجي نحو تتريك مناطقهم. فأسماء القرى ذات الأصل اليوناني المتجاوبة تماماً مع روزنامة الكنيسة الأرثوذوكسية أبدلت بأسماء تركية.

وفي ربيع سنة 1974، وعلى اثر انقلاب داخلي قام به الحرس الوطني ضد رئيس الجمهورية الاسقف مكاريوس، وقبل أن يلفظ سامسون رئيس الجمهورية المعين انذاك كلمة "Emosis" أو الوحدة مع اليونان، كان مشروع التقسيم قد نُفِّذَ بكثير من الدقة والسهولة بواسطة أربعين ألف جندي تركي نظامي انزلوا في منطقة كرينيا.

واذا بالجزيرة افروديت تقسم فعلياً الى قسمين مع تبادل قسري يفصلهما خط من فاماغوستا حتى خليج مورفو، قسم تركي، تكاد لا تصادف فيه يونانياً واحداً، وهو على كبره (اربعين بالمئة من الجزيرة) يكاد يكون فارغاً لولا قوات الاحتلال. وقسم يوناني يغص بالسكان، لان اكثر من 200 ألف يوناني قد لجأ اليه. هذا بالاضافة الى الاتراك الذين تجمّعوا انذاك في القاعدتين البريطانيتين الاولى في اكروكيري، بالقرب من مدينة ليماسول، والثانية بين لارنكا وفاماغوستا.

"فتش عن الأميركيين"!

- من كان البادئ في تنفيذ عملية التقسيم هذه، ومن هو وراء هذه العملية؟

- الأتراك يدّعون أن اليونان كانوا هم البادئين. أما اليونان فهم لا يتهمون احدا رسمياً، بل أن الذي يتحدّث اليهم ويزور مدنهم في فترة

الاحتلال يلاحظ انهم يُرَكِّزون في خصومتهم لا على الاتراك فحسب، بل على الولايات المتحدة الأميركية وعلى سياستها الخارجية المتجسّدة بشخص وزير خارجيتها هنري كيسنجر بالذات، فهو يُصَوِّر في أكثر الشوارع يعتمر طربوشاً أحمر وسبحة حمراء، وقد كتب تحت اسمه "Killinger" أي القاتل.

هذه باختصار كلي وكاريكاتوري حال قبرص انذاك. وقد سمع القراء خلال هذه الازمات الكثيرعن القبارصة اليونانيين، كما سمعوا عن القبارصة الاتراك. وربما لم تكونوا لتسمعوا بالقبارصة الذين هم من أصل لبناني لولا البعثات المتتالية من قبل الرهبانية اللبنانية والرابطة المارونية ومطرانية قبرص المارونية الى هذه الجزيرة، مع العلم ان القبارصة اللبنانيين لم يكونوا اقلّ شأناً من الاتراك واليونان معاً، وقد عملوا ولا شك اكثرمن الاثنين لخير ووحدة الجزيرة، وقد كانوا ليوم من الايام المجموعة الاكبر بعد اليونان.

موارنة قبرص

- تاريخ الموارنة في قبرص متى بدأ؟

- لن نعود طبعاً إلى الماضي السحيق، الى العهد الفينيقي الاول والثاني، خصوصاً عندما مرت اليسار، "ديدون" الهاربة من محاربة اخيها "بكماليون" لها، على الجزيرة الحالمة التي أصبحت تعرف باسم افروديت ملكة الجمال والحب. ولن أعود بكم حتى العهد الاول للموارنة في الجزيرة أي الى ما بعد المجمع الخلقيدوني سنة 451، وإلى ما بعد الفتح

العربي لسوريا سنة 634، بل إلى اواخر القرن الثاني عشر يوم ضج الشرق بحملات الغرب المتتالية لتأمين طريق القدس، واحتلال الاماكن المقدّسة، ومن ثم لإحتلال قسم من الشرق والاستقرار فيه مقسمينه ممالك ودويلات لعائلاتهم الكبرى. وقد كانت قبرص من نصيب عائلة البارون "هوغ دولوزنيان" الشهيرة التي سيطرت على قبرص وعلى القدس من سنة 1192 حتى 1489 (وكانوا قد استولوا عليها بعد ان شنوا حرباً سنة 1190 ضد "اسحق كومنانو" الذي كان قد اختلسها بدوره من ملك الروم سنة 1189). وقد جاء في كتاب المؤرّخ الصليبي "غيوم دوتير". ان غي دولوزيان، وفيما هو متوجه إلى قبرص مملكته الجديدة، أرسل نداء إلى المناطق الشرقية المجاورة قال فيه: " ان كل فارس محارب وثري يرغب في امتلاك الاراضي والثروات يمكنه أن يأتي إليه. " وقيل أيضاً انه قد ملّك الذين تبعوه وكانوا بمعظمهم من الموارنة - المردة، القسم الشمالي من الجزيرة. وقد جاء في تاريخ قبرص المدرسي في المنهاج الرسمي ان غي هذا خوفاً من قيام ثورة ضده في قبرص، ارسل نداء الى الجوار السوري، اللبناني قائلاً: أن من يرغب في المجيء إلى قبرص فليفعل! وهكذا أتى اليه كثير من الموارنة والارمن فأعطاهم ثروات كثيرة من الأراضي، فملك الموارنة على اكثر من 46 قرية من "كوتسوفنديس" الى "كورماجيت"، وقد تزايد عدد الموارنة في هذه الحقبة حتى اصبحوا على حد قول المؤرخين أكثر من 80000 نسمة، وقد ذكر الاب اسطفان اللوزنياني انهم اصبحوا بعد اليونان الفئة الاكثر عدداً في جزيرة قبرص. وقال الأب شيريللي: " أن الموارنة في عهد ملكية هنري الأول اللوزياني سنة 1224 كانوا يغطون

60 قرية. وعندما قَدِم الملك لويس ليفتتح مصر، قدمت له الجالية بقيادة هنري خمسة آلاف مقاتل، وذهب البعض إلى القول أن عددهم بلغ الخمسة والعشرين الفاً. وفي سنة 1571 وقع الاحتلال التركي. وفي سنة 1596. أي بعد الاحتلال التركي بخمس وعشرين سنة جاء الأب "جيروم دانديني" الموفد الرسولي إلى لبنان، فمر على جزيرة قبرص وعدّد في كتابه "رحلة إلى لبنان" اسماء القرى المارونية. فبلغت حينذاك 19 قرية وبلدة، وهنا لا بد لي من ان اذكّر بأن اكثر هذه المعلومات قد جمعها الاب ميخائيل ناكوزي خلال اقامته في قبرص، عندما كان يدرس في معاهدها. نعم إن الجالية في عهدها الاول كانت مزدهرة، نامية وكثيرة العدد. وبعد تقهقر اللوزانيين في حكمهم، الذّي انتقل إلى اهل البندقية في سنة 1389، وبعد تخلّف هؤلاء الاخرين سياسياً، وعدم تمكنهم من المحافظة على استتباب الأمن والنظام في الجزيرة، اخذت الجالية المارونية تتقهقر شيئاً فشيئاً إلى أن جاء الفتح التركي الذي دمّرها تدميراً كاملاً. وقد أورد البطريرك الدويهي في تاريخه أن الجالية خسرت في معركة فاماغوستا أكثر من 18000 رجل، وذهب البطريرك مسعد في كتابه "الدر المنظوم" فأكّد أن العدد بلغ الثلاثين ألفاً.

خمسة عهود

- ما هي أهم المراحل التاريخية التي قطعتها جزيرة قبرص؟

- مرّت قبرص بخمس مراحل منذ سنة 1192 حتى اليوم، وسنحاول أن نُقَوِّمها باختصار كلّي:

العهد الاول

يتميّز هذا العهد بحكم عائلة آل لوزينيان منذ سنة 1192 حتى 1499. وقد اتسم بازدهار وبحبوحة، خصوصاً لجهة الجالية المارونية، إذ عرفت فيه تقدّماً وتطوّراً مميّزاً، حتى ان عدد سكّانها ورعاياها بلغ الثمانين الفا يقطنون ستين قرية.

العهد الثاني

بدأ عندما سلمت "الملكة كاترينا كورمانو" ولاية الحكم في الجزيرة إلى اهالي البندقية، لهذا عرف العهد الثاني بـ"دوقية البندقية" ودام من سنة 1489 ولغاية 1571.

وقد اتى تصرّف الملكة كاترينا هذا على اثر عجزها عن ضبط الحكم نتيجة تغلغل العنصر اليوناني في جميع مرافئ الدولة واستعادة الكثير من نفوذه.

وحالُ اهل البندقية لم يكن افضل من حال الملكة كاترينا، اذ ان حكمهم لم ينجح، لأن الجزيرة كانت تغلي في الداخل حنقاًعلى الاجانب. وكانت المخاطر تحيق بها من الخارج.

وفي هذه الحقبة ايضاً لم يكن موقف اليونانيين مساعداً للحكام الكاثوليك، بل على العكس، كانوا يؤازرون الاتراك ضد حكامهم الكاثوليك وضد عامة الشعب لا سيما الموارنة.

من هنا نرى ان هذا العهد تخلله اضطراب شديد وعدم استقرار في الاوضاع السياسية.

60 قرية. وعندما قَدِم الملك لويس ليفتتح مصر، قدمت له الجالية بقيادة هنري خمسة آلاف مقاتل، وذهب البعض إلى القول أن عددهم بلغ الخمسة والعشرين الفاً. وفي سنة 1571 وقع الاحتلال التركي. وفي سنة 1596. أي بعد الاحتلال التركي بخمس وعشرين سنة جاء الأب "جيروم دانديني" الموفد الرسولي إلى لبنان، فمر على جزيرة قبرص وعدّد في كتابه "رحلة إلى لبنان" اسماء القرى المارونية. فبلغت حينذاك 19 قرية وبلدة، وهنا لا بد لي من ان اذكّر بأن اكثر هذه المعلومات قد جمعها الاب ميخائيل ناكوزي خلال اقامته في قبرص، عندما كان يدرس في معاهدها. نعم إن الجالية في عهدها الاول كانت مزدهرة، نامية وكثيرة العدد. وبعد تقهقر اللوزانيين في حكمهم، الذّي انتقل إلى اهل البندقية في سنة 1389، وبعد تخلّف هؤلاء الاخرين سياسياً، وعدم تمكنهم من المحافظة على استتباب الأمن والنظام في الجزيرة، اخذت الجالية المارونية تتقهقر شيئاً فشيئاً إلى أن جاء الفتح التركي الذي دمّرها تدميراً كاملاً. وقد أورد البطريرك الدويهي في تاريخه أن الجالية خسرت في معركة فاماغوستا أكثر من 18000 رجل، وذهب البطريرك مسعد في كتابه "الدر المنظوم" فأكّد أن العدد بلغ الثلاثين ألفاً.

خمسة عهود

- ما هي أهم المراحل التاريخية التي قطعتها جزيرة قبرص؟

- مرّت قبرص بخمس مراحل منذ سنة 1192 حتى اليوم، وسنحاول أن نُقَوِّمها باختصار كلّي:

العهد الاول

يتميّز هذا العهد بحكم عائلة آل لوزينيان منذ سنة 1192 حتى 1499. وقد اتسم بازدهار وبحبوحة، خصوصاً لجهة الجالية المارونية، إذ عرفت فيه تقدّماً وتطوّراً مميّزاً، حتى ان عدد سكّانها ورعاياها بلغ الثمانين الفا يقطنون ستين قرية.

العهد الثاني

بدأ عندما سلمت "الملكة كاترينا كورمانو" ولاية الحكم في الجزيرة إلى اهالي البندقية، لهذا عرف العهد الثاني بـ"دوقية البندقية" ودام من سنة 1489 ولغاية 1571.

وقد اتى تصرّف الملكة كاترينا هذا على اثر عجزها عن ضبط الحكم نتيجة تغلغل العنصر اليوناني في جميع مرافئ الدولة واستعادة الكثير من نفوذه.

وحالُ اهل البندقية لم يكن افضل من حال الملكة كاترينا، اذ ان حكمهم لم ينجح، لأن الجزيرة كانت تغلي في الداخل حنقاً على الاجانب. وكانت المخاطر تحيق بها من الخارج. وفي هذه الحقبة ايضاً لم يكن موقف اليونانيين مساعداً للحكام الكاثوليك، بل على العكس، كانوا يؤازرون الاتراك ضد حكامهم الكاثوليك وضد عامة الشعب لا سيما الموارنة.

من هنا نرى ان هذا العهد تخلله اضطراب شديد وعدم استقرار في الاوضاع السياسية.

وقبل نهاية هذا العهد سنة 1526 غزا المماليك الجزيرة. الامر الذي اضطر الموارنة إلى فقدان اعداد كبيرة من رجالهم، وذلك دفاعاً عن كرامتهم وصوناً لحرياتهم، وقد بلغ عدد القتلى في معركة مدينة "ليماسول" ما يقارب العشرة آلاف.

العهد الثالث: الأتراك 1571 - 1878

كان الاحتلال التركي سبباً لمحو اخر أثر للوجود اللاتيني الاوروبي في الشرق الاوسط، وبالتالي الى اندثار الجالية المارونية والارمنية اللبنانية في قبرص. وقد كان الاحتلال التركي أيضاً بمثابة حرب ابادة للفئة الكاثوليكية من اي نوع أو ألى أي جنس انتسبت، لأن اليونان الارثودوكس كانوا قد والوا الفاتحين وحصلوا منهم على ايضاحات وامتيازات عديدة. ومنذ ذلك الحين، بدأت معالم النفوذ العربي وتأثيراته تزول وتنحسر، ليحل مكانها النفوذ والتأثير التركي.

وظلّت الأوضاع على ما هي عليه تحت الاحتلال التركي حتى سنة 1878، اي برجوع النفوذ الغربي، ولكن هذه المرّة بحلّة جديدة وبلون مختلف وشكل جديد اي الاحتلال الانكليزي للجزيرة.

ولولا ظهور الرابطات والمنظمات السرية التي كانت تَعْتَنِقُ الاسلام ظاهراً، مبقية على ايمانها باطناً. ولولا تدخّل

يوسف سمعان السمعاني الموفد البابوي، وتأسيس دير مار الياس مطوشي للرهبانية اللبنانية في بلدة "سكايلورا" بالقرب من "اغيامارينا" سنة 1736، لولا هذا كله لكان الوجود الماروني في الجزيرة قد اضمحل.

العهد الرابع: العهد الانكليزي 1878 - 1959

لم تكن هذه الفترة افضل حالاً من سالفتها، إلاّ انها لم تكلّف الموارنة دماء واضطهادات واغتصاب الاملاك والاموال والحقوق. على انها لم توقف لا التيار الارثوذوكسي الجارف، ولا تغطرس الاتراك، بل ذهبت إلى ابعد من ذلك، اذ انها كرّست موقفهما بوضع دستور يعترف صراحة بوجود فئتين، وان غير متكافئين عددياً، اذ ان القبارصة اليونان اكثر عدداً من الاتراك. وجاء هذا الدستور الجديد ليكرس للفئتين حقوقهم الدستورية، مهملاً الفئات الباقية والاقليات، ومن بينهما الموارنة والارمن.

العهد الخامس: فترة حكم المطران مكاريوس

هذه المرحلة كانت افضل المراحل بالنسبة الى الجزيرة وبالنسبة الى الموارنة، وذلك لما كان يتمتع به من روح انسانية، في اكتساب ثقة العالم عموماً، والعرب بنوع خاص.

- وعن الوضع الحالي لموارنة قبرص، قال الاب نعمان:

- كانت الجالية المارونية تغطي اكثر من 60 قرية، وذلك في العهد الأول أي في ايّام عائلة لوزينيان. لكن هذا العدد اخذ يتراجع شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح في سنة 1250 ثلاثين قرية. امّا في سنة الاحتلال التركي أي سنة 1571 فانحسر عدد القرى التي كان الموارنة يسكنون فيها، وتدنى الى ان اصبح 19 قرية، ومن ثم إلى عشر قرى، وذلك في سنة 1596 عندما زار الموفد الرسولي "جيروم دنديني" الجزيرة. وبعد هذه الفترة ونتيجة لما عانى منه الموارنة من اضطهادات على ايدي الأتراك، انخفض عدد قراهم وتجمّعوا في خمس نقاط فقط. اما اليوم فانهم لا يملكون سوى أربع قرى هي:

-كورماجيت، وتعد 2000 نسمة.

-اسوماتوس وتضم 1000 نسمة.

-اغيامارينا وفيها 800 نسمة.

-كارباشا وعدد سكانها 300.

فعدد الجالية المارونية كما نلاحظ بالاضافة الى بعض الجماعات الموجودة في العاصمة وبقية المدن، يبلغ حوالي الخمسة آلاف نسمة. وبالرغم من أن العدد انخفض من ستين قرية إلى أربع، فان كنائسهم المهجورة في القرى التي أُقصوا عنها والتي تركوها مجبرين ما زالت تحمل اسمهم.

وَوَضْعُ الموارنة الاكثر كآبة وبؤساً كان بين الفترة الواقعة بين سنة 1686 و 1759، اذ انهم حرموا من الكهنة والمرشدين - حتى ان الاسقف

الذي كان يسكن الجزيرة قد هجرها إلى لبنان - **عندئذٍ طلب السمعاني من الرهبانية اللبنانية** ان تملأ هذا الفراغ. **فأسس الرهبان ديراً لهم في سنة 1736**، كما سبق واشرنا. وظل هذا الدير حتى الاحتلال التركي خير ملاذ للموارنة القبارصة. الا أن الاتراك لم يوفروه فاجهزوا عليه واحرقوه.

- شاركتم في بعثات الى قبرص، هل يمكن ان نعرف المهام التي كنتم تستهدفونها؟

- وُلِدَت الفكرة بعد استغاثة ارسلها النائب السابق جوزاف يماكس الى صديق له هو المحامي نعمةالله ابي نصر عضو الرابطة المارونية، فشعرنا بأن علينا واجباً ينادينا لمساعدة اخواننا في قبرص. فقررنا السفر. ركبنا المركب مع قدرٍ زهيدٍ، بالنسبة للحاجات الكثيرة، من المساعدات بما توفر لنا من مُؤَن ومال، ولكننا نحمل همة وحباً لهذا القسم العزيز من اللبنانيين. تركنا طرابلس في الحادية عشرة من مساء الإثنين على ظهر باخرة شحن يونانية ووصلنا "ليماسول" صباح الأربعاء، الساعة السادسة والنصف. لقد امضينا في وسط البحر أربعا وثلاثين ساعة دون أن نعرف النوم والراحة. ومنذ وصولنا إلى الجزيرة بدأنا الاتصالات بالمسؤولين للعمل على مساعدة الموارنة القبارصة وللحؤول دون تشريدهم من قراهم. ومن ثم قمنا بجولات تفقدية على القرى التي شهدت معارك ضارية ووزعنا عليهم ما حملناه لهم من اخوانهم في لبنان من مساعدات كانوا بأمسّ الحاجة إليها. وقد قمنا بزيارة اللاجئين والفارين إلى جبال طرودوس، واطلعنا على احوالهم وما يعانون من حرمان وتعاسة.

- هل يمكن القول أن الزيارة حققت نتائج ملموسة؟

- الزيارة كانت ضرورة معنوياً ومادياً. فعلى الصعيد المعنوي شعر الموارنة في قبرص أن اخوانهم في لبنان يفكرون بهم، ويشعرون معهم ويتألّمون لآلامهم. أمّا على الصعيد المادي فلقد تمكنّا من ارجاع البعض إلى قراهم التي هُجِّروا منها، ومن ثم توصلنا عبر اتصالاتنا مع مختلف الافرقاء إلى الاستحصال لهم على امكانية العمل في العاصمة والتنقل بحرية، وقد وفقنا على تحرير الأسرى، واهم ما حققناه هو لفت نظر واقناع الاتراك بضرورة معاملة الموارنة معاملة حسنة.

وإليكم جدولاً بمساحات الاراضي الموزعة بالدونم بين الاتراك واليونان والموارنة والارمن والاقليات:

المنطقة	يونان	اتراك	ارمن	موارنة	اقلّيات
كيرينيا	259878 45,3%	61061 12,7%	8380 1,8%	38020 7,9%	1573 0,3%
فاكاغوستا	926125 62,5%	181160 12,2%	18 -	1 -	3844 0,3%
لارنكا	446594 53,1%	138935 16,5%	1532 0,2%	1 -	10539 1,3%
ليماسول	699665 67,4%	996،2 9,6%	88 -	229 -	115 1,1%
بافوس	560899 53,8%	149346 14,3%	- -	- -	1014 0,1%
نيقوسيا	1236266 60,8%	222819 11%	999 0,1%	9988 0,5%	4035 0,2%
المجموع	4129422 59,7%	852923 12,3%	11517 0,2%	48239 0,7%	312 0,5%

المؤتمر الماروني العالمي الثاني[33]

يشرّفني أن أتوجّه للنخبة الكريمة الحاضرة في هذا الحفل العالمي المهيب بكلمة هي خلاصة علم وخبرة عن ماهيّة المارونيّة:

المارونيّة، أيّها الإخوة، هي الروحيّة الباقية من فكر ونهج الموارنة القدامى.

إنّها أوّلاً دفع روحي يحثّنا إلى عيش الإنجيل والإقتداء بحياة السيّد المسيح، الإله المتجسّد، حسب النهج الإنطاكي البسيط في فهم وعيش الإنجيل يوميّاً، كما عاشه القديس مارون في أواخر القرن الرابع ببساطة وإخلاص، بتسام وبطولة.

وهي ثانياً تراث حضاري يربطنا بمسيحي الشرق أيّ ببطركيّة أنطاكية، وبمدرستها الفكريّة الكبرى ونهجها الفلسفي اللاهوتي الثنائي في فهم شخصيّة الإله الكامل والإنسان الكامل بذات الوقت.

33- من 8 إلى 12 تشرين الأول 1980، في نيويورك. ألقيت باللغة الانكليزية.

من المعلوم أنّه بفضل هذه العقيدة، وهذا المفهوم الثنائي لطبيعة السيّد المسيح، ارتبطت الكنيسة المارونيّة منذ القرن الخامس، أيّ منذ مجمع خلقيدونيا سنة 451، بكنيسة روما بعلاقات دهريّة طيّبة ومتينة.

من المؤكّد ايضاً أنّ هذا الإرتباط بالكنيسة الكاثوليكيّة في العالم، قد كوّن، مع الزمن، صفة تُضاف إلى صفات المارونيّة الثلاث التي سنتوقّف عندها فيما بعد:

أمّا هذه الصفة المُضافة فهي الإنفتاح على الحضارة العالميّة المتطوّرة، وعلى اللغات الحاملة للحضارة العالميّة، الأمر الذي خلّص المارونيّة من التقوقع على ذاتها، وسمح لها بمسايرة التقدّم العالمي، وكان ذلك خدمة لها وللشرق الذي توقف عند قيود أثقلت حركة التطوّر الذاتي عنده.

أمّا الصفات المارونيّة الثلاث موضوع حديثي فهي: الاحترام العميق للإنسان، والنظرة الروحيّة للكون، والوفاء للأصالة.

أوّلاً: الاحترام العميق للإنسان

هذا الاحترام العميق للإنسان وللقيم الإنسانيّة ينبع من إيمان الموارنة ونضالهم في سبيل الشهادة العمليّة لتجسّد الإله وصيرورته إنساناً كاملاً، يرقى إليه الإنسان، طالب الكمال، بواسطة القدوة والعيش اليومي، فبحسب هذا المفهوم يُصبح الإنسان، كلّ إنسان، جديراً بالمحبّة والاحترام لأنّه مُعّدّ للخلاص بواسطة إنسانيّة يسوع الشاملة، وهو مَدعو أيضاً للتدرّج والترقّي إليه، كما نردّد كلّ يوم في صلاة القداس: وحّدت

يا ربّ ألوهيتك بإنسانيتنا، وإنسانيتنا بألوهيّتك، أخذت الذي لنا، أي طبعنا، لتسمح لنا أن نأخذ طبعك، لك المجد.

هذه، ايّها الإخوة، هي عمليّة الخلاص الشاملة والمزدوجة الاتّجاه - من الله إلى الإنسان ومن الإنسان إلى الله - التي دُعي إليها كلّ إنسان، والتي عاشها الموارنة نضالاً يوميّاً وممارسات صعبة منذ الدقيقة الأولى لوجودهم كجماعة بعد المجمع الخلقيدوني.

ثانياً: النظرة الروحيّة للكون

الصفة الثانية التي رافقت تكوين مجتمعهم منذ البداية هي النظرة الروحيّة للكون وجعلها في رأس النظرات الاخرى. فالانسان على ضوء هذه النظرة، لم يُخلق ليَخلص وحده كفرد وحسب، بل الكون بأسره مَدعو ليخلص بالإنسان، بالمسيح، والكون والإنسان كلاهما يظلاّن في حالة ترقّي وتطوّر تصاعدي دائمين إلى أنّ يُبلغا كمالهما، فالماروني الحقيقي لا يُمكن أن يكون له نظرة ماديّة لا للكون ولا للإنسان، والمجتمع الذي ألّفه لم يُطبع أبداً بطابع التيوقراطيّة،

ثالثاً: الوفاء للأصالة

أمّا الصفة الثالثة فهي الوفاء للأصالة، وقد تكوّن للموارنة، من خلال ممارستهم لهذه الصفة، سلوك معيّن ونمط عيش بطولي يسمح لهم بالتطوّر الداخلي دون الرضوخ لتقلّبات الظروف الخارجيّة: يرضى بالفقر ويحتمله، لأجل الملكوت، إذا مرّ في مرحلة الفقر، كما لا يبطره

من المعلوم أنّـه بفضل هذه العقيدة، وهذا المفهوم الثنائي لطبيعة السيّد المسيح، ارتبطت الكنيسة المارونيّة منذ القرن الخامس، أيّ منذ مجمع خلقيدونيا سنة 451، بكنيسة روما بعلاقات دهريّة طيّبة ومتينة.

من المؤكّد ايضاً أنّ هذا الإرتباط بالكنيسة الكاثوليكيّة في العالم، قد كوّن، مع الزمن، صفة تُضاف إلى صفات المارونيّة الثلاث التي سنتوقّف عندها فيما بعد:

أمّا هذه الصفة المُضافة فهي الإنفتاح على الحضارة العالميّة المتطوّرة، وعلى اللغات الحاملة للحضارة العالميّة، الأمر الذي خلّص المارونيّة من التقوقع على ذاتها، وسمح لها بمسايرة التقدّم العالمي، وكان ذلك خدمة لها وللشرق الذي توقف عند قيود أثقلت حركة التطوّر الذاتي عنده.

أمّا الصفات المارونيّة الثلاث موضوع حديثي فهي: الاحترام العميق للإنسان، والنظرة الروحيّة للكون، والوفاء للأصالة.

أوّلاً: الاحترام العميق للإنسان

هذا الاحترام العميق للإنسان وللقيم الإنسانيّة ينبع من إيمان الموارنة ونضالهم في سبيل الشهادة العمليّة لتجسّد الإله وصيرورته إنساناً كاملاً، يرقى إليه الإنسان، طالب الكمال، بواسطة القدوة والعيش اليومي، فبحسب هذا المفهوم يُصبح الإنسان، كلّ إنسان، جديراً بالمحبّة والاحترام لأنّه مُعَدّ للخلاص بواسطة إنسانيّة يسوع الشاملة، وهو مَدعو أيضاً للتدرّج والترقّي إليه، كما نردّد كلّ يوم في صلاة القداس: وحّدت

يا ربّ ألوهيتك بإنسانيتنا، وإنسانيتنا بألوهيّتك، أخذت الذي لنا، أي طبعنا، لتسمح لنا أن نأخذ طبعك، لك المجد.

هذه، ايّها الإخوة، هي عمليّة الخلاص الشاملة والمزدوجة الاتّجاه - من الله إلى الإنسان ومن الإنسان إلى الله - التي دُعي إليها كلّ إنسان، والتي عاشها الموارنة نضالاً يوميّاً وممارسات صعبة منذ الدقيقة الأولى لوجودهم كجماعة بعد المجمع الخلقيدوني.

ثانياً: النظرة الروحيّة للكون

الصفة الثانية التي رافقت تكوين مجتمعهم منذ البداية هي النظرة الروحيّة للكون وجعلها في رأس النظرات الاخرى. فالانسان على ضوء هذه النظرة، لم يُخلق ليَخلص وحده كفرد وحسب، بل الكون بأسره مَدعو ليخلص بالإنسان، بالمسيح، والكون والإنسان كلاهما يظلاّن في حالة ترقّي وتطوّر تصاعدي دائمين إلى أنّ يُبلغا كمالهما، فالماروني الحقيقي لا يُمكن أن يكون له نظرة ماديّة لا للكون ولا للإنسان، والمجتمع الذي ألّفه لم يُطبع أبداً بطابع التيوقراطيّة،

ثالثاً: الوفاء للأصالة

أمّا الصفة الثالثة فهي الوفاء للأصالة، وقد تكوّن للموارنة، من خلال ممارستهم لهذه الصفة، سلوك معيّن ونمط عيش بطولي يسمح لهم بالتطوّر الداخلي دون الرضوخ لتقلّبات الظروف الخارجيّة: يرضى بالفقر ويحتمله، لأجل الملكوت، إذا مرّ في مرحلة الفقر، كما لا يبطره

ويُغيّر جوهره الغنى، إذا تعرّف إلى البحبوحة والغنى، إنّه إنسان متحرّك لا يستكبر ولا يُقيّد، وهو في إرتقاء مستمرّ. وبسبب التفتيش عن هذه الأصالة تواترت خلال تاريخه، الحركات الإصلاحيّة، والثورات والعاميّات المختلفة: ثورات داخليّة وخارجيّة، وتحرّكات جعلته في محاولة دائمة نحو تحقيق أصالته الروحيّة والفكريّة والحضاريّة، وفي حالة استئصال دائم للرواسب واللواحق التي تكون قد علقَت بمجتمعه بفعل الزمن الرتيب.

هذه الإهتمامات الكيانيّة: احترام للإنسان، نظرة روحيّة للكون، وفاء للأصالة، جعلت هذا الشعب يبني أمّته وكيانه حول هذه الفكرة وهذا النهج الروحي والوجوديّ بذات الوقت، وهذه الاسس هي أسمى ما توصّلت إليه الشعوب والأمم، كسبب وكهدف، في بناء كياناتها الذاتيّة.

1- فالبعض، وبنوع خاص، الشعوب الأوّليّة، بنت كياناتها حول اهتمامات محض جغرافيّة واقتصاديّة ماديّة، إذ نشأت مثلاً على ضفاف الأنهر، وفي السهول الخصبة لتعيش وتبقى وتبني ملكوتاً على الأرض.

2- والبعض الآخر، الأقلّ عدداً، بنى كياناته حول اهتمامات أكثر تجريداً، وأرفع مستوى في الفكر والمنطق والفلسفة...

3- أمّا الموارنة، وهم أوّل من باشر وثبت في النضال الحضاري من بين مسيحيي الشرق، فقد بنوا أمّتهم وكياتهم حول الفكرة والنّهج الروحي والوجوديّ، في أصعب ظروف وأحلكها، وعلى أفقر وأوعر رقعة جبليّة في شرقي البحر المتوسّط.

وإنّنا نتساءل اليوم، كم من شعب في العالم قد بنى أمّته حول اهتمامات روحيّة ووجوديّة غايتها ترقية الإنسان من وجود مادي بسيط إلى وجود إنساني مُتروحن، في حركة تصاعديّة نحو الله؟ إنّ أصعب أمّة كوّنت ذاتها بالألم والحرمان وتخطّي الذات، هي الأمّة المارونيّة، ومن هذه الزاوية نفهم قيمة البطولات اللامتناهية في المقاومة وفي الدفاع عن هذا الكيان وعن هذه الأمّة.

فالمارونيّة، كما اعتقد، ليست مفهوماً مدنيّاً صرفاً ولا هي مفهوم ديني صرف، بل هي إحدى انجح تجسّدات الفكر العملي والتركيب المسيحي في هذه المنطقة من الشرق.

فقد استطاعت، بما لها من دفع روحي، وبما لأبنائها من إخلاص العيش في صميمها، أن توحّد معاً، في ذاتها، التّقوى الشخصيّة والأمانة الكبرى للكنيسة الجامعة، ذلك بما أنّها دين، كما استطاعت أن تجمع الثقة المُطلقة بالإنسان الفرد المتطوّر، إلى الأمانة الكبرى لخطّها التراثي الحضاري، وذلك بما أنّها جماعة منتظمة قد استقرّت في ارض، هي حصنها وحماها كأمّة، وهي مُنطلق إشعاعها في العالم ومرساها الأخير.

- في سبيل حماية همّ هذه التجربة، تجربة الوجود الإنساني الإرتقائي، ضمن مفهوم متحرّك للعقيدة المسيحيّة، وفي طاعة المسيح والكنيسة الجامعة كان التصادم مع الفاتح العربي صداً لهجماته المتتالية منذ ثلاثة عشر قرناً، محاولة منه في تحوير أصالة هذا الشعب وتذويبها.

- وفي سبيل إنجاح هذه التجربة الفريدة كان نشوء الموارنة كأمّة وككنيسة في لبنان، منذ القرن السابع: "فقد ألّفوا أمّة على نصيب كبير من الإستقلال" كما يقول القنصل الفرنسي رينيه رستلهوبر في كتابه "تقاليد فرنسا في لبنان"[34] حيث يتابع: "وتمكّنوا في ظلال جبالهم العصيّة، من صدّ الزحف العربي، حتى أصبح لبنان وكأنّه قلعة مسيحيّة طبيعيّة، وقد تنظّموا بإدارة إكليروسهم وكبار ملاّكيهم... وعاشوا في جبالهم، مدّة طويلة في شبه عزلة، ولم تكن لا طبيعة البلاد، ولا اخلاق أصحابها، ممّا يدفع إلى تأسيس المدن، فقامت القرى الكبيرة، وكلّ منها ملك لأحد الملاّكين، وكلّ قرية أو منطقة لها حياتها الخاصة، حياة زاخرة، ولّدت شعوراً وطنيّاً محلّياً قويّاً، وشعوراً وطنيّاً شاملاً، ظهر في تعلّق كلّ فرد بشخص البطريرك، وما كان أقوى هذا الشعور أبّان الملمّات، في وجه العدوّ المشترك".

فالجغرافيا اللبنانيّة قد شكّلت أفضل حقل لنجاح هذه التجربة، فتطوّر لبنان، مع هذه الأمّة، من حصن طبيعي إلى وطن للإنسان الحرّ والمُحَرّر في هذا الشرق، وقد التقت عندذاك دعوة الموارنة وتآلفت مع دعوة لبنان الجبل - الحصن. فاصبح معهم لبنان البلد الوحيد، في رحب آسيا، الذي يستطيع أن يستعمل إرادته لأجل حرّيته، وأن يقول نعم أو لا.

34- **René Rustelhuber**, *Les traditions de la France au Liban.*

والآن وقد شدّ الخناق عليه، وتقلّص لبنان الحرّ، فقد عَنُفَت المقاومة، واشتدّ العزم على العيش الحرّ الكريم، وراحت نسمات الحرّية المفقودة في الشرق، توعي الضمائر المستضعفة والمكبوتة وتُعنّفها، وتدعوها للإنعتاق والتحرّر على مثال الموارنة.

وقد اتينا نحن أيضاً ندعوكم ونستحثّكم الاّ تدَعو التجربة تفشل، وهي لن تفشل ابداً، لأنّها تجربة إنسانيّة حقيقيّة، ولكنّنا نكرّر دعوتنا لكم الاّ تدَعوا شرف تخليصها يضيع من بين أيديكم، أو يدّعيه غيركم لتبرهنوا بالفعل أنّكم موارنة وأنّ روحيّة الآباء والأجداد لا تزال في داخلكم تتوقّد.

فالمارونية، لا يمكن أن تغيب عن الشرق، لأنّها رسالة الشرق: منه انبثقت، وفيه ترعرعت، وعن دفعه الروحي القوى انبثقت أغصانها وامتدّت فروعها في مختلف جهات الأرض.

وهي لم تكن يوماً مجرّد مبادئ وحسب، بل كانت تطبيقاً عمليّاً للمسيحيّة في الشرق، إنّها تجسيد المسيح في هذا الشرق الإنطاكي، إنّها جوهر ووجود في ذات الوقت، إنّهاحضور دائم يشهد للمسيح ولتعاليمه في وسط حضاري ساهموا في خلقه، ولخدمة هذا الوسط الحضاري المعين أهرقوا دماءهم وسكبوا عرق جباههم.

إنّ للمارونيّة، ولا شكّ، رسالة في الغرب، إنّها رسالة الشرق إلى الغرب، ولا يُمكن لهذه الرسالة أن تدوم وتفعل إلاّ إذا بقي الشرق مصدرها ومنبعها، والغرب والكون كلّه مسرحها وملعبها. والعكس مقبول ايضاً وهو أنّها تزول تلقائيّاً من الغرب، إذا - لا سمح الله - نضب دفعها في الشرق وزال.

إنّ مارونيّة الغرب إذا فصلت ذاتها عن أنوار الشرق، أسقطت عنها صفة الاصالة وذابت لا محالة.

الشرق لا يزال بحاجة إلى المارونيّة، لأنّه بحاجة إلى التجسّد، إلى الفداء، إنّه بحاجة إلى تجسيد تعاليم المسيح وعيشها والشهادة اليوميّة لصحّتها وحقيقتها. إنّه بحاجة إلى تقديس إنسانيّة الإنسان. والغرب هذا الآخر بحاجة إلى المارونيّة لتنقل إليه خبرة الشرق وميتافيزيكيّته وثراءه الروحي.

هلاّ أدرك موارنة الشرق والغرب أنهم متضامنون، متكافلون، متكاملون، ويعملون معاً لخير الإنسان وترقيته وتطوّره، لأنّ كلّ انسان مُفتدى بيسوع المسيح بواسطة العقيدة التي تكوّنوا لأجل نشرها، وناضلوا وبذلوا الدماء في سبيلها، تسهيلاً لتلاقي الانسان، كلّ إنسان بالإله الإنسان يسوع المسيح.

من يُخرج الشرق من المتحف؟[35]

في مقال سابق عن «الموارنة ولبنان»، في «نهار» الجمعة 24 كانون الثاني 2003، كَتبتُ عن الخبرة التي اكتسبها المسيحيون اللبنانيون في حياتهم الوطنية، وعن الخصائص التراثية والمكتسَبة التي أسهمت في الإنجاز الفريد الذي تحقق على يدهم بفضل الصداقات والتحالفات التي عقدوها مع الأمراء السُّنّة والشيعة والدروز قبل عهد الإمارتين وقد كانوا يعيشون كلٌّ في زاويته الخاصة. هذا الإنجاز الفريد هو "لبنان التعددي" السائر نحو التحرر والنمو الإقتصادي بفضل تآلف عائلاته الروحية واندفاع بنيه نحو كسر طَوقَيْ العزلة والجهل وبلوغ الحداثة بقواه الذاتية وطموح أبنائه اللامحدود.

أما اليوم فماذا عساهم يفعلون؟ هل من فريق آخر يبسطون له يدهم ليتجاوزوا معا الفوارق والخلافات، لإعادة بنيان لبنان الحر الديموقراطي التعددي المستقل؟

35- جريدة النهار، بتاريخ 21 شباط 2003.

هل من أمراء جدد يطمحون لبناء وطن يضاهي أعرق المدنيات؟

المسيحيون في هذا البلاد في ضيق ! نعم هم في ضيق ! ولكنهم ليسوا في خطر كما يشاع، لأن لب المشكلة في لبنان، وفي بعض البلدان العربية، لا يعود إلى الاختلاف في العقيدة الدينية، بل إلى الاختلاف في الانتماء الاجتماعي والقضايا المجتمعية وما يلحق ذلك من تنافر في العصبية أي في الولاء إلى الجماعة الدينية وانعكاسات هذا الولاء على صعيد السياسة. المَخرج على هذا الصعيد هو تنمية الإنتماء الإجتماعي بديلا من الإنتماء الديني وتنمية المصالح المشتركة، كما حصل في الماضي، وهذا ما يجمع بين الفريقين ويلغي المسافات الإجتماعية ويخفف من حدة العصبيات بينهما، ونحن نعرف أن مصلحة الفريق الأقل عدداً في المعادلة، أن يكون هو المبادر إلى تنمية الإنتماء المدني البديل.

ولكن أين المُحاور المقبل حتى يباشر الحوار !

الهروب عن طريق الهجرة، من كلا الطرفين، هو عمل أناني يحل بعض المشكلة، بالنسبة إلى الأفراد، ويزيدها تعقيدا، بالنسبة إلى الجماعة، وقرع نواقيس الخطر يولد الذعر ويزيد من خطر الهجرة دون أن يفي بالمطلوب، والعمل للقوقعة عن طريق الإنعزال الجغرافي ليس هو الحل، وقد تجاوزه المسيحيون من زمن بعيد، كما تجاوزه الزمن، لأنه يجعل الفئة المقوقعة مرفوضة أكثر فأكثر في محيطها، فيزداد الخطر عليها. **يضاف إلى هذا أن العالم يسير اليوم نحو الوحدات الفيدرالية الكبرى التي، في اعتقادهم، تشدد الوحدة في البلدان التعددية.**

في محبته للبنان الوطن - الرسالة، وفي رغبته في الحفاظ على هذا المثال الرائع والراقي، وتعميمه في بلدان الشرق الأوسط، جدد البابا يوحنا بولس الثاني الدعوة لمسيحيي الشرق الأوسط ليعتبروا اندراجهم في الثقافة العربية، التي طالما أسهموا فيها، موقعا مميزا: "إن مسيحيي الشرق الأوسط ومسلميه مدعوون إلى أن يبنوا معا مستقبل تآلف وتعاون في سبيل تطور إنساني وأخلاقي لشعوبهم، لعل هذا المثال ينتقل بالعدوى إلى غيرهم...".

مقابل هذه الدعوة الكريمة للانفتاح ولتجديد الثقة المتبادلة، تطالعنا منذ زمن دعوات أخرى مضادة، أهمها دعوة لدبلوماسي فرنسي خبر الشرق ومرَّ في أكثر بلدانه من أناطوليا - تركيا حتى إفريقيا، وقد كتب عن خبرته هذه كتابا ضخما عنوانه "حياة مسيحيي الشرق وموتهم"، صدر عن دار Fayard الشهيرة، وفيه دعوة إلى المسيحيين للالتحاق بالعالم الغربي" لإغنائه بإمكاناتهم الهائلة". يقول جان بيار فولونيه "لا يمكننا إلا أن نضمر عاطفة إعجاب بالذكاء والشجاعة والعناد التي ميزت هذه الجماعات المسيحية... فقد عرفت أن تستفيد من أقل فسحة من الحرية لتعبر، في شكل ساطع للغاية، عن مواهبها التي لا تحصى...". ثم يضيف: "مهما يكن هذا الأمر قاسيا، يجب أخيرا، ومن دون شك أن نبتهج لأن مسيحيي الشرق، بدلا من أن يستمروا على أرضهم ويعيشوا عيشة وضيعة ومهددة، يأتون اليوم لإغناء العالم الغربي بإمكاناتهم الهائلة".

الأسباب التي تدعو إلى ذلك كثيرة ومعروفة لا نتبسط فيها الآن، ولكني أركز هنا على سبب مهم وهو تقلّص الدور المسيحي في القرار

هل من أمراء جدد يطمحون لبناء وطن يضاهي أعرق المدنيات؟

المسيحيون في هذا البلاد في ضيق ! نعم هم في ضيق ! ولكنهم ليسوا في خطر كما يشاع، لأن لب المشكلة في لبنان، وفي بعض البلدان العربية، لا يعود إلى الاختلاف في العقيدة الدينية، بل إلى الاختلاف في الانتماء الاجتماعي والقضايا المجتمعية وما يلحق ذلك من تنافر في العصبية أي في الولاء إلى الجماعة الدينية وانعكاسات هذا الولاء على صعيد السياسة. المَخرج على هذا الصعيد هو تنمية الإنتماء الإجتماعي بديلا من الإنتماء الديني وتنمية المصالح المشتركة، كما حصل في الماضي، وهذا ما يجمع بين الفريقين ويلغي المسافات الإجتماعية ويخفف من حدة العصبيات بينهما، ونحن نعرف أن مصلحة الفريق الأقل عدداً في المعادلة، أن يكون هو المبادر إلى تنمية الإنتماء المدني البديل.

ولكن أين المُحاور المقبل حتى يباشر الحوار !

الهروب عن طريق الهجرة، من كلا الطرفين، هو عمل أناني يحل بعض المشكلة، بالنسبة إلى الأفـراد، ويزيدها تعقيدا، بالنسبة إلى الجماعة، وقرع نواقيس الخطر يولد الذعر ويزيد من خطر الهجرة دون أن يفي بالمطلوب، والعمل للقوقعة عن طريق الإنعزال الجغرافي ليس هو الحل، وقد تجاوزه المسيحيون من زمن بعيد، كما تجاوزه الزمن، لأنه يجعل الفئة المقوقعة مرفوضة أكثر فأكثر في محيطها، فيزداد الخطر عليها. **يضاف إلى هذا أن العالم يسير اليوم نحو الوحدات الفيدرالية الكبرى التي، في اعتقادهم، تشدد الوحدة في البلدان التعددية.**

في محبته للبنان الوطن - الرسالة، وفي رغبته في الحفاظ على هذا المثال الرائع والراقي، وتعميمه في بلدان الشرق الأوسط، جدد البابا يوحنا بولس الثاني الدعوة لمسيحيي الشرق الأوسط ليعتبروا اندراجهم في الثقافة العربية، التي طالما أسهموا فيها، موقعا مميزا: "إن مسيحيي الشرق الأوسط ومسلميه مدعوون إلى أن يبنوا معا مستقبل تآلف وتعاون في سبيل تطور إنساني وأخلاقي لشعوبهم، لعل هذا المثال ينتقل بالعدوى إلى غيرهم...".

مقابل هذه الدعوة الكريمة للانفتاح ولتجديد الثقة المتبادلة، تطالعنا منذ زمن دعوات أخرى مضادة، أهمها دعوة لدبلوماسي فرنسي خبر الشرق ومرَّ في أكثر بلدانه من أناطوليا - تركيا حتى إفريقيا، وقد كتب عن خبرته هذه كتابا ضخما عنوانه "حياة مسيحيي الشرق وموتهم"، صدر عن دار Fayard الشهيرة، وفيه دعوة إلى المسيحيين للالتحاق بالعالم الغربي" لإغنائه بإمكاناتهم الهائلة". يقول جان بيار فولونيه "لا يمكننا إلا أن نضمر عاطفة إعجاب بالذكاء والشجاعة والعناد التي ميزت هذه الجماعات المسيحية... فقد عرفت أن تستفيد من أقل فسحة من الحرية لتعبر، في شكل ساطع للغاية، عن مواهبها التي لا تحصى...". ثم يضيف: "مهما يكن هذا الأمر قاسيا، يجب أخيرا، ومن دون شك أن نبتهج لأن مسيحيي الشرق، بدلا من أن يستمروا على أرضهم ويعيشوا عيشة وضيعة ومهددة، يأتون اليوم لإغناء العالم الغربي بإمكاناتهم الهائلة".

الأسباب التي تدعو إلى ذلك كثيرة ومعروفة لا نتبسط فيها الآن، ولكني أركز هنا على سبب مهم وهو تقلّص الدور المسيحي في القرار

العربي سياسياً واقتصادياً وحتى حضارياً وفكرياً، وفي لبنان البلد الذي بقي حتى الساعة آخر موقع للقرار المسيحي السياسي الحر في العالم العربي، نرى أن هذا الدور قد بدأ بالتراجع لتحل محله ديكتاتوريات مقنعة وعصبيات مقلقة إلى درجة أن المسيحيين أصبحوا مترددين في الإحتفاظ بهذا الدور، الذي كان لهم، والذي يطمئنون إليه.

هل إن تراجع دورهم السياسي الفاعل، أو القلق الذي يولده هذا التراجع، هو الدافع إلى التوقف عند نداءات التخلي عن دورهم التاريخي؟

هل يُطلب منهم اليوم الإلتحاق بالغرب لمواجهة ذيول "الأنسنة الحديثة" التي ظهرت في عصر النهضة والتي تتباهى برفض كل سلطة دينية وتعتبر أن حرية الإنسان هي نتاج عمله فحسب والشرط الفاعل لكرامته بعد أن يتحرر من عقيدته الدينية ويصبح العامل الوحيد لكيانه.؟ كما جاء مثلا في كتاب الوزير Luc Ferry: "الإنسان - الإله أو معنى الحياة" هل هذا هو الدور الذي يطمح له مسيحيو لبنان؟

هذه الدعوة المتكررة يرفضها المسيحي اللبناني انطلاقاً من مسؤولياته الإنسانية التي أكدها البابا في إرشاه الرسولي، كما يرفضها الإنسان المتطور على مثال يسوع، ويرفضها أخيرا لأنها تتنافى والميزات الثوابت التي هي حصيلة خبرته الدهرية وهي: الإرتباط بالجذور والتراث، والحفاظ على الخط الحضاري الإنطاكي القائم على التناغم والتفاعل بين الحياة الدينية والحياة المدنية.

هذه الميزات بالذات هي التي جعلت من المسيحي، في هذه البلاد، الجامع الفعال والمشارك الأول في محيطه المتنوع المذاهب والأديان

والأعراق. إن "الأنسنة المسيحية" (Humanisme chrétien) التي تثبتت في مجمع خلقيدونية عام 451 في الشرق، كان الموارنة الأقدمون من روادها والمدافعين عنها حتى الدماء، فلا يمكن سلخهم عن محيطهم الطبيعي ولا يمكن سلخها عن تطورهم الإنساني. وقد سمحت لهم بالإنتشار في كل شعاب لبنان وأوحت لهم بقبول الآخر ومشاركته في الحياة وفي الحكم وفي المصير. إنطلاقاً من هذه الصفات التراثية ومن دعوة الإرشاد الرسولي ووفاء لرسالتنا التاريخية نُفَعّلُ من جديد طاقاتنا وإيماننا بالإنسان العربي والمشرقي.

يقول المفكر الإفريقي L. Senghor "اعتنقت اللغة الفرنسية لغة حضارة لأخرج العالم الأسود الثقافي من المتحف ...". أما نحن فبفضل الله وبفضل أجدادنا قد خرجنا، من زمن بعيد، من المتحف، وهذا الخروج يحتم علينا المساعدة والمشاركة، في إطلاق محيطنا من المتحف. هذا الإلتزام نريده بكل ما أوتينا من عزم، في هذه المرحلة التاريخية الملحة، لمواجهة تيار العلمنة الزاحف الذي يهدد بجرف قيمنا وتراثنا وخصائصنا، لذا نحن نرفض فكرة "صراع الحضارات" التي يحاول البعض فرضها والترويج لها. نرفضها، ولدينا طاقة كبرى على الرفض، لأننا نؤمن بحوار الحضارات لا بصراعها، فالحوار هو الذي يؤدي إلى السلم الحقيقي وقد مارسناه قديما وما زلنا حتى إن حضارتنا المتوسطية عُرفت بالحضارة الانتقائية، نأخذ من الغير ونعطيه بسخاء. وكما لدينا قوة الرفض فإن لدينا أيضا المقدرة على تمثيل قيم العولمة ومواكبة ما تحمله من تطور والإسهام في نقله دون الذوبان فيها.

وفي هذا السياق نرى المجال رحباً جداً وقابلاً للخلق في التعاون مع محيطنا الطيب والعفوي، وخاصة إننا نلاحظ اليوم بكثير من الإعجاب والتقدير بروز مبادرات كريمة تبشر بالخير، على الصعيدين الفردي والعام، وهي تُعرب عن تقديرها لعمل "المسيحيين العرب" وانفتاحهم على الحضارة وتدعوهم إلى الصمود والبقاء مهما كلف الأمر.

من هذه المبادرات الفردية نخص بالذكر مبادرة الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود، ومبادرة الأديب الشاعر اللبناني عباس بيضون. يقول الأمير طلال في مقال له صدر في جريدة "النهار" بتاريخ 29 كانون الثاني 2002:

"لقد شكّل المسيحيون العرب إحدى ركائز البناء العربي القديم والحديث. ففي فجر الإسلام كما في عصر النهضة عملوا على إحياء معالم العروبة ومضمونها الحضاري الجامع والمنفتح على الحضارات الآخرى الناهضة. وفي مرحلة التراجع العربي شكلوا حلقة وصل واتصال، وعمقا ثقافيا أصيلا في العروبة ومتقدما في العصرنة والحداثة... بقاؤهم ترسيخ للدولة العصرية المتعددة... وقوة لقضايا العرب... وخيار عربي باعتماد الديموقراطية ...ورد بالفعل لا بالقول على مقولة إسرائيل في دولة الدين الواحد... فهم من عناصر التكوين الأولى التي يمنع بقاؤها قيام بيئة تفترش التعصب والتطرف وبالتالي العنف المؤدي إلى كوارث تاريخية..."

أما الشاعر والأديب عباس بيضون فقد كتب في "ملحق النهار" بتاريخ 22 شباط 1997 مقالاً رد فيه على الداعين إلى تخلي الموارنة عن لبنان. هذا المقال الرائع يرى في الموارنة اليوم شهادة تثقل كواهلهم وتعيدهم إلى رشدهم أذا هم فكروا في التخلي عن لبنان، لا لشيء آخر، سوى أن أحدا تفوق عليهم في حبه للبنان الوطن السائر نحو الحضارة والآخذ بالحرية والتعددية نهجاً. يقول في ختام مقاله: "لست مارونياً، لكنني أعرف أن الموارنة كما جروا بقية اللبنانيين إلى صعيد الدولة المشتركة، يمكنهم جرهم جميعاً إلى ثانوية مماثلة وإلى سيادة اللهجة المحلية والأقلاوية من دون أي عام أو مشترك. إذا بدأ طبل الموارنة يمكنك أن تسمع طبولاً في كل مكان. لا تنقلبوا على أنفسكم، إصمدوا قليلا أيها الزملاء."

ففي هاتين الشهادتين نبل وجرأة وإيمان بالتقدم والحداثة "وترسيخ للدولة العصرية المتعددة العنصر والمتنوعة في وحدتها، ونفي قاطع لعنصرية الدولة" كما يقول الأمير طلال في خاتمة مقاله. أما المبادرات الرسمية للدخول في الحداثة وفي مفهوم الدولة العصرية في محيطنا العربي فمنها ما هو قديم يسير ببطء ولكن بتصميم أكيد في مصر وفي تونس، ومنها ما نلحظه اليوم ونتوق إلى رؤيته مكتملا في سوريا وفي المملكة العربية السعودية. ففي سوريا وعي كبير وسعي للدخول في الحداثة تبلور خاصة في التركيزعلى العلم والمعرفة وتطوير الجامعات، وإدخال التكنولوجيا الحديثة في مرافق الحياة. ومنها ما هو ثمرة المجاهدين والمناضلين بعناد وثبات في سبيل توطيد حقوق

الإنسان في المجتمع من أمثال رياض الترك وبعض النواب وأكثر المثقفين والمفكرين، وقد أعطيت لهم فسحة من الحرية تصرفوا بها بمسؤلية وجرأة، وما المؤتمر الرائد الذي دعت إليه السيدة الأولى أسماء الأسد حول حقوق المرأة سوى مظهر من مظاهر هذا الإنفتاح على الحداثة.

أما في السعودية فقد قرأت بإعجاب في جريدة L'Orient-Le Jour بتاريخ أول شباط 2003 أن أربعين مثقفاً قدموا بتاريخ 22 كانون الثاني إلى الأمير عبد الله دراسة مفصلة حول نظرتهم للإصلاحات الدستورية في المملكة وفيها تركيز على أهمية حرية التعبير والحقوق الأساسية للمواطن وبنوع خاص حقوق المرأة، وأن الأمير وعدهم خيراً مؤكداً أن إدخال الإصلاحات السياسية لم يعد سوى مسألة وقت.

هذه المبادات نقدرها نحن بدورنا وهي تعيد إلينا الثقة والأمل بمستقبل هذه البلاد لأنها تصدر عن المسؤولين الذي يمثلون رأيا عاما وعن المناضلين الذي يمهدون الطريق بدهائهم وتضحياتهم. كما نرى فيها مجالا رحبا وخلاقا للتعاون والمشاركة في خلق المبادرات ووضع الإمكانات في خدمة النهضة العربية الحديثة.

ولكن هل هذه الأقوال والمبادرات تعبر عن واقع وجودي متجسد؟

مهما يكن الأمر، فنحن نعتبر أن أشقاءنا في المواطنية مسؤولون مثلنا عن استمرارية الوجود المسيحي الفاعل، ومعهم نعمل لأعادة النظر في بعض أسس بناء الدولة وتنظيم المجتمع التي تسمح للجميع بالإطمئنان والإرتياح للعيش في هذا الوطن الرسالة. لا يكفي أن يدخل أحدنا في منطق الآخر أو أن يدخل الأقل عددا في منطق الأكثر عدداً، بل من

الضروري أن ندخل معاً في منطق الدولة العادلة، فالمواطنية الحقة ليست أحادية الإتجاه والمقاييس والإصلاحات توضع بالرضى الكامل والتوافق لخير الوطن وتقدمه.

بهذه الروحية نضع يدنا بيد المخلصين لتحقيق الأمنية التي ختم بها الأمير طلال مقاله: "مهمتنا العاجلة منع هذه الهجرة، وترسيخ بقاء هذه الفئة العربية في شرقنا الواحد والتطلع إلى هجرة معاكسة إذا أمكن".

كلمة أخيرة: إن الولايات المتحدة لم تصبح الدولة العظمى إلا بفضل هجرة الأدمغة إليها من كل العالم. هل في استطاعتنا رفع التحدي الأكبر وإرجاع الأدمغة التي تركتنا، والتطلع إلى هجرة معاكسة؟ وهذه المرة من الغرب إلى الشرق، وخاصة أن عندنا كل هذا المخزون الهائل من الطاقات الإنسانية والمادية ؟

من وحي المجمع[36]

حضرتُ المجمع مصغياً متأملاً مع مزيجٍ من الخوف والرهبة، مع أننا، كرهبنة، كنّا من الحريصين على المطالبة بانعقاده منذ الثمانينات.

فضّلتُ الإصغاء لأتحقّق من أنه لا يزال لهذه الأقلّية المشرقية الحضارية شيء من المخزون القديم، من الحيوية والحرص على النقد الذاتي وفحص الضمير، وهذه بالذات كانت مصدر الخوف. هلاّ يزال باستطاعتها أن تتجدّد وتنهض وتنتفض بالرغم من المياه الاسنة التي احاطت بها خلال أحداث هذا الزمن الرديء؟

أما الرهبة فقد أوحتها لي تلك القاعة العامرة بالمواهب والطاقات الفردية والمؤسساتية من القارات الخمس ومن ثلاث عشرة دولة حضارية؟

بالماضي القريب والأبعد كانت، هذه الأقلّية الحضارية، كلما شعرت بالتراخي وبالاستسلام لواقع لا تريد أن تجد نفسها فيه، تنتفض من رمادها وتنفض عنها غبار الوهن والسنين وعناء الظلم والجور والقهر

36- ندوة في المركز الكاثوليكي للإعلام.

لتلاقي العصر في تطوره وتقدّمه ومسيرته الدائمة والتي لا تتوقف ولا تنتظر! وقد تحقّق ذلك مراراً؛ أكتفي اليوم بذكر بعضها لأنوّه بهذه الطاقة وبالحوافز الكامنة في عمق الذات الجماعية والتي تؤهلها اليوم لتنهض من جديد مع الوطن والمواطنين كافة لتلاقي العصر الحادي والعشرين؟

فمن ساعة التكوين يوم وَجَدت نفسها في صراع جدلي لاهوتي، وتطويق جغرافي يحاول خنقها في المهد، انتفضت وتجمّعت على ذاتها من أنحاء أبرشية انطاكية لتحطّ رحالها آمنة بين جبال لبنان وأوديته وتنطوي على ذاتها حتى تمر العاصفة؛ وما كادت العاصفة الأولى تنحسر حتى فاجأتها عاصفة ثانية أشدّ إيلاماً مع المماليك يوم كُسرت شوكة البطريركية وأُحرِق البطريرك جبرائيل من حجولا في طرابلس سنة 1367 واستعيض عن قيادتها لشعبها ببعض المقدّمين الذين ساروا في ركاب القوة المعتدية.

وفي هذه المرحلة المظلمة جدّدت إيمانها بذاتها وبالله وبطاقات أبنائها وجمّعت قواها المبعثرة، إذ حرّكت العاميات الشعبية في الداخل كما تقول الباحثة اليزابيت بيكار وكثّفت اتصالها بروما وبالغرب بواسطة المرسلين الفرنسيسكان في الأماكن المقدّسة، ومع روما ومع الغرب باشرت نهضة ثقافية واجتماعية ورتبت صفوفها لوثبة وطنية جديدة مع الأمراء العسافيين التركمان والأمراء اللبنانيين المعنيين الدروز والشهابيين السُّنَّة فانتشرت في كافة أنحاء لبنان راسمة بذلك حدود لبنان الحديث، عاملة بكل طاقاتها مع رفيقاتها في الوطن مسيحيين ومسلمين بقيادة البطريرك الياس الحويك لرسم حدود الجمهورية اللبنانية العتيدة إلى

أن تمَّ الحلم في الأول من أيلول سنة 1920 بإعلان دولة لبنان الكبير بحدوده الحاضرة. ولم تكد تنقضي بضع سنوات من الاستقلال حتى بدأت التدخلات الخارجية السافرة في شؤون الوطن، وعلى دفعات متتالية منذ الخمسينات حتى اليوم، مما اضطرها، في آخر محاولة للنيل من الاستقلال، للدفاع عن الوطن ضدَّ القوى المناهضة والمساندة للثورة الفلسطينية التي أضاعت هدفها وغيَّرت وجهة كعبتها وعملت في السّر والخفاء لجعل طريق القدس تمرّ بمدينة جونيه بدل مدينة تل أفيف وكان ما كان مما أوصلنا إلى الوضع الذي نحن عليه الآن.

والآن، وبعد فترة من الانطواء على الذات والتأمل بالحالة التاعسة التي وصل إليها لبنان، لجهة الاستقلال والسيادة والحياة الاجتماعية والاقتصادية، عادت لتجمع قواها الروحية والمعنوية وتحدّد من جديد أهدافها الوطنية بوضوح وصفاء من أجل استعادة ما خسره الوطن من قيم ومعنويات ومن ترابط وتضامن بين عياله الروحية. فهل تنجح؟ وهل يُتاح لها أن ترى لبناناً جديداً ديمقراطياً تعددياً مستقلاً سيّداً حرّاً كما أراده بشارة الخوري ورياض الصلح وغيرهم من رجالات الاستقلال.

هذه الأفكار راودتني وأنا في المجمع أستمع للمداخلات الجريئة من المقيمين ومن المنتشرين، وللحماس الكبير الذي كان يغمر قلوبهم ولتأكيد تعلُّقهم بلبنان وطناً يشرّف المنتمين إليه.

وقد زادتني تفاؤلاً الإيجابيةُ التي تجلّت في مداخلات المراقبين من مختلف العائلات اللبنانية، وفي الزيارة الواعدة التي قام بها سماحة الإمام عبد الأمير قبلان والجو الأخوي الذي أشاعته...

هذه الأجواء أعادت إلى الذهن مقالاً كتبه العالم الجغرافي Elisée Reclus عن لبنان وعن بيروت بالتحديد، قال فيه: "إنه من البلدان التي وهبت ديمومة الحياة إلى ما لا نهاية. يمُرُّ الغزاة وتتوالى المحن وتعود المدينة إلى حياتها بعد رحيلهم". وما النقوش التسعة عشر التي حُفرت على صخور نهر الكلب، والآثار الغنية جداً، الضاربة في عمق التاريخ، والتي أزيل عنها الغبار أخيراً في بيروت، سوى شواهد ساطعة على هذه الحقيقة. فللبنانيين ديناميكية انبعاث ونهوض فريدة، فما ان يبتلوا بكارثة أو محنة أو زلزال أحداث، كما حصل مؤخراً، حتى يعودوا وينهضوا من رمادهم من جديد. أليسَ طائر الفونيق من أساطيرهم المعبرة عن حيويتهم.

لقد وهبوا، دون شك، موهبة تنقية الذاكرة والصفح والغفران وحرصوا على نبذ كل حقد ليتمكنوا دوماً من التطلع إلى الأمام.

تجاه هذه الدينامية المتكررة، والعناد في محاولة النهوض ومجابهة الأقدار، لا بدّ للمرء من أن يتساءل عن مصدر القوّة الدافعة التي ساعدت اللبناني وتساعده اليوم على النهوض؟ هل هي مزية تراثية؟ أم نتيجة معاناة يومية في مغالبة الطبيعة والأقدار! أم معطيات إيمانية وعائلية تراكمت وتفاعلت مع الزمن لتصوغ شخصية اللبناني وتسمح له بأن يتخطى ذاته ويتطلع إلى الأبعد إلى الآفاق الجديدة!؟

قد يكون من المفيد أن نذكر بعضاً من مصادر هذه القوة للتذكير حتى تترسّخ في ذهن الأجيال الجديدة الواعدة وتبقى دوماً هدفاً ومثالاً وشعلة تنير الطريق وتهدي إلى الآفاق البعيدة، وهي بحسب أهميتها وتأثيرها في التربية:

- الحوار الإيماني مع الله والاتّكال عليه، عباراتٌ يرددها اللبناني كل يوم وعند كل عمل، مصكوكة كالأيقونة. ونحن نعلم علم اليقين أن الارتباط بالماورائيات يُنَمِّي الأمل بالتجدّد والنهوض من الخطأ!

- روح التضامن العائلي بالمعنى الواسع للكلمة، أي العائلة الفردية والعائلات اللبنانية، والرغبة الملحّة للانتماء، أكسبا اللبناني الثقة بالنفس وقوة الشخصيّة لاستناده إلى قاعدة صلبة ومحبّة كالطفل وإنه كُلَّما نما وكبر يرجع دوماً إلى عشّه ليجد الدفء والأمل. هذه الربط قد زعزعتها الحرب فيما بيننا، وما بقي منها قد تجرفه حضارة العصر إذا لم نتداركها بالتربية وبالقدوة والمثل.

- الحوار العنيد مع الأرض الصلبة طيلة عهود وأجيال ولَّدت في اللبناني الصبر والعزم والأمل وإعادة التجربة مرات متأملاً أبداً بموسم أفضل بالرغم من خيبات الأمل بعض الأحيان. هذا الحوار الصعب مع الطبيعة ثقَّف نفسيّة اللبناني وقوَّمها وسلَّحها ببنية فكرية للتعامل مع العالم ومع الآخر انطلاقاً من تعامله مع الأرض المتجدّدة أبداً.

من المؤسف أن نكون اليوم قد تخلينا عن التعامل مع هذه الأرض الطيبة وقد عرّيناها من جمالها، من تربتها وأشجارها، وطمرنا كنوزها الواعدة بركام من الباطون وَقَطَّعنا الجذور التي تربطنا بها.

- روح المغامرة وعدم الاكتفاء بما تنتجه الأرض المحدودة، والانفتاح على الآفاق الواسعة، يدفع باللبناني إلى الجرأة في أخذ المبادرات وإلى الاغتراب بعض الأحيان دون خوف لثقته الزائدة بالله وبطاقاته على التكيّف مع الحضارات الأخرى والإبداع فيها! وهو لا يعتبر الاغتراب آفة

أو خسارة اجتماعية بل يرى فيه أيضاً غنىً وثراءً وانفتاحاً على العالم وعلى الجديد.

كما يعتبر لبنان وطنه الحقيقي لا الروحي فحسب شرط أن تُحسنَ الدولةُ خلق الروابط الثابتة والمتينة بإعطائه الجنسية الكاملة، وتشجيعه على الاستثمار وإنشاء وزارة للمنتشرين، وكم أحسن المجمع صنعاً بخلقه شبكة اتصال بواسطة التقنية المعلوماتية بين لبنان والجاليات اللبنانية في العالم قاطبة، عن هذه الشبكة الرائدة سوف تتولد مبادرات إنمائية وتتوثق علاقات بنّاءة.

- هذه السمات الشخصية جعلت اللبناني يتصرف أينما وُجدَ وحيثما حلَّ، في الوطن أو في بلدان الانتشار كمسؤولٍ وكفاعلٍ في مجتمعه يعمل بذهنية الأكثري حتى ولو وجد وحيداً في قارة نائية.

فإلى المنتشرين كل التحية والإكبار لريادتهم العالمية، وإلى المواطنين الأحباء، والدولة من بينهم، نصلي ونستحلف مرددين: على همتكم ونزاهتكم وإخلاصكم يقوم الوطن - الرسالة الذين به تتغنّون، **وبتقاعسكم وأطماعكم وأنانيتكم تغيب آخر نجمة من سماء الشرق، وتستوطن سماءَكم نجمةٌ أخرى!**

هوية الكنيسة المارونية ودعوتها ورسالتها[37]

معنى الهوية

الإطار الخارجي: هي الإطلالة على العالم: زمان، ومكان وأوصاف خارجيّة.

المحتوى: علماء الإجتماع، أضافوا إلى الإطلالة الخارجيّة ثلاثة عناصر أساسيّة مُكوّنة:

- الدين: يُغْنيها بالأبعاد الميتافيزقية: النظرة إلى الكون وإلى ما وراء الكون.
- اللغة: تُكَوِّن المنطق/ صياغة التفكير/ تُعَبِّر عن علاقة الإنسان بمحيطه الإنساني والقيمي.

37- محاضرة في أوستراليا سنة 2008.

- الإتنية (العِرق): تُمَيِّز بين الناس والجماعات: طرق الحب/ مفهوم الزواج/ العلاقات العائليّة/ الإرث/ التقاليد/ الثقافات الخاصّة.

للهوية المارونية خمس ميزات

الميزة الأولى: كنيسة إنطاكية سريانية ذات تراث ليتورجي خاصّ

- إنطاكية عاصمة الإقليم الشرقي للإمبراطورية الرومانية ثمّ مركز الإدارة الكنسية للمسيحية نشأت عن تبشير الرسل والقديسين بطرس وبولس بطريقة مباشرة.
- فيها دُعي التلاميذ مسيحيين لأوّل مرّة (أعمال 11/26).
- فيها انفتحت الكنيسة على الأمم لذا دُعيت "بنت الشعوب".
- إمتازت بالتعدديّة، قبل المسيحية وبعدها، بِتَنوُّع الثقافات والحضارات واللغات، التيّار الآرامي - السرياني في الأرياف / والتيار الهلاني في المدن الساحليّة.
- التعددية والتنوّع الحضاري واللغوي ساعد على نشوء الإنقسامات المسيحية: كنائس متعدّدة.
- الكنيسة المارونية تنتمي إلى عائلة الكنائس ذات التراث السرياني الغربي والشرقي (بالنسبة إلى نهر الفرات).
- أغنى هذا التراث آباءٌ سريان عبَّروا عن إيمانهم المسيحي

بلغة قريبة من الكتاب المقدّس - تجلَّى هذا التراث في الليتورجيا بالصلوات الشعرية التي نظمها لاهوتيّون كبار أمثال مار افرام (373 +)، يعقوب السروجي (521 +)، بالاي (432 +).

- هذه الصلوات تظلّ حتّى اليوم المصدر الأساس لنصوص الفرض الماروني ولروحانيّته.

- هذا البعد الإنطاكي المسكوني يطلب من كنيستنا اليوم أن تعي أنّها هي أيضًا نتيجة هذه الإنقسامات المؤسفة، وتسعى مع شقيقاتها إلى إسترداد الوحدة كما أرادها الله.

الميزة الثانية: كنيسة خلقيدونيّة (الإيمان بطبيعتي المسيح)

- للسيد المسيح طبيعتان كاملتان، إلهية وإنسانية متّحدتان بشخصه الإلهي.

- التمايز في الطبيعتين يظلّ قائمًا حتّى بعد الوحدة.

- التأكيد بنوع خاص على الطبيعة الإنسانية وعلى حقيقة التجسُّد والخلاص.

- هذه الحقائق تثبتت في المجمع الرابع المسكوني، في مدينة خلقيدونيه سنة 451 على البوسفور مقابل بيزنطيه.

- حَرَمَ هذا المجمع مناصري عقيدة الطبيعة الواحدة بعد التجسُّد: Monophysites.

- للدفاع عن هذه العقيدة بنى الإمبراطور مرسيان، بطلب من المجمع ومن ثيودوريطس زعيم المدرسة اللاهوتية الإنطاكيّة، أسقف قورش، سنة 452، ديرًا للنساك تلامذة القديس مارون، في منطقة أفامية على إسم الناسك مارون، وجَمَعَهم فيه وأناط بهم وبالمنظّمة الرهبانية التي ترهّب فيها ثيودوريطس، قبل أن يصبح أسقف قورش، مهمّة الدفاع عن هذه العقيدة.

- كَبُرَ هذا الدير وأصبح رئيسًا لمجموعة الأديار في منطقة أفامية عاصمة سوريا الثانية.

- المؤمنون الذين شاركوا الرهبان عقيدتهم ودافعوا عنها دُعوا "موارنة" فيما بعد.

الميزة الثالثة: كنيسة بطريركية ذات طابع نسكي رهباني

- الكنيسة المارونية مثل الكنائس الشرقية، هي بطريركية، أي يرأسها بطريرك منتخب.

- تاريخيًّا اختير البطريرك الأوّل من دير ما مارون، ودرجت العادة أن يُختار البطاركة الموارنة من الأديار وأن يعيشوا في الدير مع الرهبان ويعتنقوا روحانية الدير وطابعه النسكي.

- بعد المجمع الخلقيدوني حصلت خلافات كبرى بين مناصري الطبيعة الواحدة والطبيعتين، ذهب ضحيّتها 350

راهبًا من دير مار مارون ومن الأديار المنضوية تحت سلطته، كما حصلت مجادلات حادّة قسمت الكنيسة الإنطاكية إلى كنيستين: الخلقيدونية والاخلقيدونية او المونوفيزيت.

- الشعب الخلقيدوني السرياني، من كافة أنحاء البطريركية، أطلق عليهم إسم "تُبَّاع دير مارون" ومع الزمن أسموهم "موارنة".

- عندما سقطت البطريركيات الثلاث: الإسكندرية وأورشليم وإنطاكية، مع الفتح العربي وتَعَذَّر الإتصال بالقسطنطينية أو بروما انتخبت الأديار الأسقفيّة التابعة لدير مارون بطريركيًّا ليدير شؤونهم، وذلك في بداية القرن الثامن ومعه بدأت رسميًّا الكنيسة المارونية بقيادة البطريرك يوحنا مارون.

الميزة الرابعة: كنيسة في شراكة تامَّة مع الكرسي الرسولي الروماني

- الشراكة مع روما: ترجِعُ إلى المجمع الخلقيدوني (451) مع البابا لاوون الكبير وأسقف قورش تيودوريطس. هذه الشراكة:

- حَمَتْ وحدَتها من الإنقسام، وأعطتها دورًا مَسكونيًّا في هذه المنطقة، بالنسبة للكنائس الشرقية الأخرى.

- أكسَبتها ثقافة متعدّدة المصادر - المعهد الماروني الروماني 1585 - المطبعة الأولى في الشرق 1584 - الإرساليّات: اليانو 1587 - دنديني 1596 - المجمع التريدنتيني 1563.

- بالمقابل لقد أضعفت وحدة الكنيسة البطريركية على حساب الكرسي الرسولي وأبعدتها عن الكنائس الشرقية - جعلتها تنحرف نحو اللتينية.

- المجمع الفاتيكاني الثاني خلق دينامية تجديد في الكنيسة المارونية كانت باكورتها: المجمع البطريركي الأخير والإرشاد الرسولي الذي أرسى أسس رسالة الموارنة الحديثة في لبنان والعالم العربي.

- كما أرسى أسس الحوار لأجل مفهوم لاهوتي للكنيسة - الشَرِكَة بحسب المفهوم البيبلي والآبائي المشترك الذي كان سائدًا في الألف الأوّل.

الميزة الخامسة: كنيسة متجسّدة في بيئتها اللبنانية والمشرقية وفي بلاد الإنتشار

- الكنيسة تتفاعل مع البيئة: تأخذ من خصائصها وتنفح فيها قِيَم الإنجيل.

- الكنيسة الإنطاكية القديمة مع تشرزمها إلى كنائس، وإطباق الفاتح العربي عليها، قامت بنهضة روحيّة رسولية

فكرية في بيئتها، بالتأليف والترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية، نتج عنها تثقيف الفاتح.

- أَثَّرَتْ في علوم العرب وفلسفتهم وفنونهم، فكان التصوّف الإسلامي، الذي تأثّر بأكابر الرهبان والنسَّاك وتغذّى من مؤلّفاتهم وتقاليدهم.

- أوصلت البشارة إلى الهند والصين ومنغوليا حيث أسَّست كنائس الملابار والملنكار ...

- الكنيسة المارونية الإنطاكية قامت بتجديد روحي ليتورجي ونهضة ثقافية حضارية، كان لها إنعكاسات هامّة على الشرق المسيحي والإسلامي في الفلسفة واللاهوت والفنّ والتربية وبنوع خاص اللغة العربية والصحافة.

- وبمعاونة الكنيسة الغربية (البعثات المتبادلة، والمدرسة المارونية في روما) تأسست مدارس مثل حلب وعين ورقة وغيرها تحوَّلت إلى جسر ثقافي بين الشرق والغرب.

- في الغرب ساهموا في تخصيب الفكر الغربي بالروحانية الشرقية: ترجمات ومكتبات...

- في الشرق العربي أسسوا الصحف، عصرنوا اللغة وعمدوها، أشاعوا مناخات الحرية والإنفتاح والتعددية وحقوق الإنسان، وبذلك أكملوا رسالة إنطاكية القديمة بقيم مسيحية معاصرة.

- أكسَبتها ثقافة متعدّدة المصادر - المعهد الماروني الروماني 1585 - المطبعة الأولى في الشرق 1584 - الإرساليّات: اليانو 1587 - دنديني 1596 - المجمع التريدنتيني 1563.

- بالمقابل لقد أضعفت وحدة الكنيسة البطريركية على حساب الكرسي الرسولي وأبعدتها عن الكنائس الشرقية - جعلتها تنحرف نحو اللتينية.

- المجمع الفاتيكاني الثاني خلق دينامية تجديد في الكنيسة المارونية كانت باكورتها: المجمع البطريركي الأخير والإرشاد الرسولي الذي أرسى أسس رسالة الموارنة الحديثة في لبنان والعالم العربي.

- كما أرسى أسس الحوار لأجل مفهوم لاهوتي للكنيسة - الشَرِكَة بحسب المفهوم البيبلي والآبائي المشترك الذي كان سائدًا في الألف الأوّل.

الميزة الخامسة: كنيسة متجسّدة في بيئتها اللبنانية والمشرقية وفي بلاد الإنتشار

- الكنيسة تتفاعل مع البيئة: تأخذ من خصائصها وتنفح فيها قِيَم الإنجيل.

- الكنيسة الإنطاكية القديمة مع تشرزمها إلى كنائس، وإطباق الفاتح العربي عليها، قامت بنهضة روحيّة رسولية

فكرية في بيئتها، بالتأليف والترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية، نتج عنها تثقيف الفاتح.

- أَثَّرَتْ في علوم العرب وفلسفتهم وفنونهم، فكان التصوّف الإسلامي، الذي تأثّر بأكابر الرهبان والنسَّاك وتغذّى من مؤلّفاتهم وتقاليدهم.

- أوصلت البشارة إلى الهند والصين ومنغوليا حيث أسَّست كنائس الملابار والملنكار ...

- الكنيسة المارونية الإنطاكية قامت بتجديد روحي ليتورجي ونهضة ثقافية حضارية، كان لها إنعكاسات هامّة على الشرق المسيحي والإسلامي في الفلسفة واللاهوت والفنّ والتربية وبنوع خاص اللغة العربية والصحافة.

- وبمعاونة الكنيسة الغربية (البعثات المتبادلة، والمدرسة المارونية في روما) تأسست مدارس مثل حلب وعين ورقة وغيرها تحوَّلت إلى جسر ثقافي بين الشرق والغرب.

- في الغرب ساهموا في تخصيب الفكر الغربي بالروحانية الشرقية: ترجمات ومكتبات...

- في الشرق العربي أسسوا الصحف، عصرنوا اللغة وعمدوها، أشاعوا مناخات الحرية والإنفتاح والتعددية وحقوق الإنسان، وبذلك أكملوا رسالة إنطاكية القديمة بقيم مسيحية معاصرة.

- وضعوا كل هذه القيم المكتسبة والمجسَّدة في مجتمعهم في أساسات الوطن اللبناني الذي يحقق ويضمن هذه القيم لكل المواطنين.

الخلاصة

نتساءل؟ ماذا يبقى من هذه الصفات في كنيسة إنطاكية القديمة وفي وريثتها الكنيسة المارونية؟

- بالحقيقة قد تعدَّى الزمن والتطور إنطاكية المدينة، عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وإنطاكية البطريركية المسيحية، كما تعدَّى اللغة الآرامية والسريانية...

- الذي يبقى هي المؤلفات الروحية والفكرية الكثيرة المخزّنة في المكتبات والتي تتوفّر للإختصاصيين الكبار، كما تبقى الروحانية النابعة من هذه المؤلفات والطابع الرهباني النسكي والزهدي.

- تبقى الصلوات الليتورجية الشعرية والنثرية التي ترجمتها جامعة الروح القدس حديثًا ونشرتها في كتب الصلوات الطقسية الأسبوعية العادية، وفي صلوات الأعياد موزّعة على مدار السنة الليتورجية بحسب الأزمنة الطقسية.

- لهذه الصلوات روحانية تتركَّز خاصة على: الأسرار وبنوع أخص على المعمودية والقربان المقدس/على روح التوبة/ على عبادة العذراء مريم/ على الطابع النسكي/ على انتظار مجيء الرب.

كما تبقى الميزات الأساسية التي طبعت مجتمعاتنا القديمة والحديثة في لبنان وفي بلدان الإنتشار وهي:

النظرة الروحية للكون وللإنسان، نظرة نهيوية مرافَقَه بالفرح وحب الحياة والعمل للتطوّر والتقدّم/ البساطة والعفوية في العيش: يرضى الماروني بالفقر إذا فُرض عليه، ولا يُبطِره الغنى إذا توفّر له المال، المال أداة للترقي وعمل الخير/ سعي دائم إلى الأصالة الفكرية والروحية: يستفيد من كل شيء ويَصْهَر كل شيء في بوتقته الخاصة/ حنين دائم إلى استرداد الوحدة الإنطاكية الأولى كما في الألف الأوّل/ إحترام عميق للإنسان وللقيم الإنسانية والعمل على تجسيد القيم المسيحية في مجتمعاته الخاصة: في لبنان وأوستراليا وحيث المجتمعات المارونية الكبرى - يحقّق الماروني مسيحيّته بقدر ما يسمو بإنسانيّته، والسمو بالإنسانية قبول لكل إنسان وانفتاح عليه، لأنّ كلّ إنسان مدعو للخلاص بيسوع/ وحدها المارونية كوَّنت، بروح رسوليّة، مشروعًا وطنًا للإنسان وحقّقته في لبنان التعدّدي السيد الحرّ لخير كلّ إنسان مضطهد في الشرق/ هذا الوطن، كيف نحصِّنه من جديد؟ **ما العمل لتقوية الديمغرافية اللبنانية؟ تسجيل أبنائنا في لبنان أو في القنصليّات؟ السّعي الحثيث للحصول على حق الإنتخاب؟ في لبنان أوَّلا؟ ثمّ في دنيا الإنتشار؟ العلاقات الإنسانية والإقتصادية المتنامية؟**

المسيحيّون في لبنان وأزمات المنطقة*

من المتوسّط الشّرقي حتّى بلاد فارس القديمة، أي دولة إيران اليوم، فَرَض الشّرق الأوسط ذاته منطقة فريدة من نوعها في العالم، تكوّنت فيها أعرق الحضارات وربطت بينها وبين السّماء ديانات كبرى ثلاث.

هذه المنطقة هي اليوم، كما كانت بالأمس، في حالٍ من الغليان، كونُها مسرحًا للصّراعات والمآسي المتداخلة والمتشابكة: الدّينيّة والعرقيّة والاقتصادية.

لكن هذه المنطقة، التي هي في الأساس مسيحيّة، هي بيتنا، مرتكز نشاطنا ومتّسَع رسالتنا المسيحيّة وأحلامنا الرّسوليّة، حيث شاءتنا العناية الإلهيّة أن نكون، كمؤمنين برسالة يسوع، خميرتها.

من الضّروري إذًا أن نفهم، بالعمق التيّارات الفكريّة والرّوحيّة والاجتماعيّة التي تخترق أجواءها، ونعمل جهدنا للحدّ من سلبيّاتها وأضرارها، وتوجيهها نحو تطوير إنسانها ومجتمعاتها.

---

* جريدة النهار، 4 ايلول 2006.

- I -

أزمات الشّرق الأوسط: أسبابها القريبة والبعيدة

مشكلة هذه البلدان أو هذه المنطقة أنّها غير قادرة، بقواها الذّاتيّة، على تطوير بنياتها السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، قبل أن تحلّ مشاكلها الأساسيّة، التي أكتفي بتعدادها وهي:

1- الأنظمة الدّكتاتوريّة والعسكريّة والدّينيّة.

2- الأميّة والبطالة.

3- التخلّف الاقتصادي والاجتماعي.

4- التّنامي الديموغرافي المدمّر للتّوازن الإنساني.

5- تنامي الفقر، بالرّغم من الثّروات الطّائلة.

6- غياب الفكر الدّيني الإصلاحي الحقيقي، والإستعاضة عنه بالتّعصّب.

7- تهميش دور المرأة وحقوقها.

يُضاف إلى هذه الأسباب الأساسيّة الدّاخليّة، سبب خارجي لا يقلّ أهميّة وهو:

8- السّياسات الغربيّة - الأميركيّة المنحازة لإسرائيل، التي ترفض أي حلّ عادل للقضيّة الفلسطينيّة، وهي القضيّة المركزيّة لكلّ مشاكل الشّرق الأوسط العربي، في الوقت الذي يستغلّون، إلى آخر حدّ، ثروات هذه البلدان.

- ملاحظة: بعض المعلومات في هذه المقدمة، من محاضرة للدكتور شارل شرتوني.

هذه الأسباب كانت في أساس آفتين فتّاكتين:

- هجرة الشّعوب والنُّخب الفكريّة والاجتماعيّة، المسيحيّة بنوع خاص، إلى بلدان الغرب الديمقراطي، حيث تتوفّر لهم فرص العمل والنّجاح والتّفوّق.

- تنامي الحركات الأصوليّة المسلمة أو الراديكاليّة الدّينيّة، أو المحتمية بالدّين أو الهاربة إليه.

وبدل التّركيز على سياسات الإنماء البشري المتكامل الاقتصادي والاجتماعي والتّربوي... ركّزوا على سياسات التّسلّح وعلى رعاية كلّ أشكال الانقسامات تلافيًا للحلول العقلانيّة، وللاعتراف بالحقوق السيّاسيّة والدّينيّة لشعوب دولهم، ولشعوب المنطقة كافّة وبنوع خاصّ للأقليّات. من هنا نشأت في الغرب، خاصّة بعد الحادي عشر من أيلول، هذه القناعة أنّ الدّيمقراطيّة الغربيّة تواجه خطرًا لا يقلّ جديّة عمّا واجهته هذه الدّيمقراطيّات من قِبَل النّازيّة والفاشيّة والشّيوعيّة...

إذًا لا بدَّ من تقويضها سريعًا وبحرب وقائيّة، من أجل التّمهيد لعمل إصلاحي بنيوي في المدى العربي والإسلامي. من هنا كان التّفكير الأميركي الجديد The New Conservative والذي، كما يقولون، لم ينشأ عن مصلحة أو عن تقدير المصالح الاقتصادية وحسب، بل عن مبدأ: أنّهم يعتبرون أنّ حماية الدّيمقراطيّة هي في أساس السيّاسة الأميركيّة الجديدة. فأيُّ تهديد للديمقراطية سوف يواجه بكلّ الوسائل

الممكنة، وإذًا ضربُ "المتطرّفين" ضروري في فلسطين، وفي العراق، وفي لبنان، وفي كلّ مكان آخر، وهو ليس فقط لخدمة إسرائيل، بل لخدمة الديمقراطيّات في العالم، مع أنّ بقاء إسرائيل هو جزءٌ من المعادلة الإقليميّة بالنّسبة لهم.

- II -

لبنان الوطن: تحقيق مسيحي

ولكن لماذا لبنان؟ ما شأن لبنان في هذه الأزمات والحروب؟ لبنان الوطن، في الأساس، هو فكرة مسيحيّة... لأنّ الشّرق الأوسط القديم وحتّى الحديث لم يتعرّف إلى الأوطان المستقلّة. فكرة الوطن المستقلّ هي حديثة من عصور النّهضة الأوروبيّة، ومن تطوّر الحضارة المسيحيّة. كان الشّرق إمّا إمبراطوريّات، مثل الفرس واليونان والرّومان والبيزنطيين، وإمّا خلافة أو ممالك إسلاميّة، والحريّات فيه، على أنواعها، كانت مكبّلة أو معدومة، والحال أنّ المسيحيّة لا تعيش بدون حريّة، والحريّة السيّاسيّة هي، بالنّسبة لها، أم الحريّات.

نتساءل اليوم كيف حقّق المسيحيّون هذا الوطن في هذه البقعة من الشّرق؟ وكيف جعلوا منه وطنًا تعدّديًّا بالمشاركة مع باقي العائلات الدّينيّة: الدّرزيّة والإسلاميّة. لقد تحقّق ذلك على دفعات، بفضل جهادهم ومثابرتهم وتضحياتهم، بعد أن كسروا طوقي العزلة والجهل:

لقد كسروا طوق العزلة بتعاونهم المخلص والمحبّ مع الشّعوب المجاورة، ومع الحكّام الذين أولتهم الدّولة العثمانيّة أمرَ إدارة هذه البلاد بعد احتلالها سنة 1516؛ أمّا طوق الجهل، فقد كسروه بفضل تعاونهم مع الغرب المسيحي بواسطة روما، عندما أنشأت لهم المعهد الرّوماني الماروني سنة 1585، وما حقَّقهُ تلامذته من نهضة علميّة تعليميّة في لبنان والشّرق؛ كما أرسلت لهم سنة 1584 أوّل مطبعة إلى الشّرق، أي أكثر من مئتي سنة قبل أن يأتي نابوليون بالمطبعة إلى مصر وتبدأ معها بواكير النّهضة، وبعد اختراع المطبعة الأولى بمئة سنة تقريبًا (1450).

هذه الحقائق يُقِرُّ بها كل المؤرّخين الشّرقيين من مسلمين ومسيحيين، وكما يقول الكاتب والأديب الشّيعي عبّاس بيضون: "لقد أعطى المسيحيّون لبنان نظامه، فهم مركز الدّولة والإقتصاد والسّياسة والثّقافة وأساليب العيش وأنماطه... من الصّعب بعدُ العودة إلى ما وراء الدّولة المارونيّة، إلاَّ في دعوة إلى الخلافة (أي إلى دولة دينيّة إسلاميّة) أو إلى لبنان الصّغير (أي دولة مسيحيّة)...

لكن المحيط لم يكن ليقبل بلبنانَ حرٍّ ديمقراطي مستقلّ، لأنّ نظامه كان يزعج ويفضح أنظمة المنطقة بكاملها: فإسرائيل رفضته عمليًّا لأنّه تعدّدي ولأنّ ديمقراطيّتها الخاصّة بها لا تعترف بالحقوق الكاملة لكلّ المواطنين، وهي إذًا ليست دولة ديمقراطيّة بحصر المعنى؛ والدّول العربيّة هي، إمّا ديكتاتوريّات عسكريّة، أو أنظمة دينيّة، وهي أيضًا لا تعترف

بالحقوق الكاملة لكل المواطنين. لذا كان على لبنان الدّيمقراطي المتعدّد الإتنيّات والطّوائف الدّينيّة، أن يعاني الأمرّين من جيرانه وبنوع خاصّ من سوريا وإسرائيل؛ ولأنّه ديمقراطي تعدّدي، وبالتّالي له صحافته الحرّة والفريدة من نوعها في المنطقة كلّها، ارتدّت عليه كلّ أزمات المنطقة، من الأزمة الفلسطينيّة - الإسرائيليّة الأولى 1948، أي بعد خمس سنوات من استقلاله سنة 1943:

- إلى الجمهوريّة العربيّة المتّحدة سنة 1958 بين سوريا ومصر، وتحريكها للشّارع الإسلامي في لبنان؛

- إلى الأزمة الفلسطينيّة الإسرائيليّة الثّانية سنة 1970، ودخول منظّمة التّحرير الفلسطينيّة المُسلَّحة إلى لبنان؛

- إلى اتفاق القاهرة في تشرين الأوّل سنة 1969، الذي سمح للفلسطينيين بالعمل المسلّح من جنوب لبنان، Fath-Land؛

- إلى دخول سوريا إلى لبنان سنة 1976، وبدء العمل المنهجي لزعزعة استقلاله وتكبيل الدّولة والسّيطرة الكاملة على المجلس النّيابي ومختلف الحكومات؛

- إلى قيام الثّورة الإيرانيّة - الخمينيّة وتجييشها للشّيعة في لبنان سنة 1979، بتواطؤ وتسهيل من سوريا؛

وأخيرًا، إلى تأسيس حزب الله وتسليحه وتدريبه، استعدادًا للحرب الأخيرة بين إسرائيل وحزب الله على الأرض اللبنانيّة.

- III -

الأزمة الأخيرة وإغتيال الرّئيس الحريري

هذه الأزمات المتتالية والتّدخلات السّافرة، لم تتوقّف منذ الاستقلال حتّى السّاعة، ولكنّها لم تستطع أن تخمد شعلة الحريّة في نفوس المواطنين، كما لم تزعزع ثقتهم بوطنهم؛ ولكنّها أنهكت قواهم وأفقرتهم وجعلتهم يتطلّعون إلى عملٍ وبابِ رزقٍ خارج البلاد، فهجر قسم كبير منهم، خصوصًا المسيحيون المسلّحون بالخبرة والعلم، وبذلك قد أفرغوا الوطن من بعض النّخبة. لكنَّهم حافظوا على روح المقاومة، وظلّوا يمدّون أهلهم بالمال والمساعدات على أنواعها، كما أنشأ بعضهم وحدات ضاغطة في مختلف عواصم القرار لمساندة المعارضة في الدّاخل؛ إلى أن تمكّنوا، بفضل المساعي الدّوليّة الحثيثة، من الحصول على القرار 1559 من الأمم المتّحدة، الذي يركّزُ على أمرين مهمّين بالنّسبة للقضيّة اللبنانيّة وهما: خروج الجيش السّوري من لبنان، ونزع سلاح المقاومة الإسلاميّة أي حزب الله. عندها ثارت ثائرة الحكم السّوري فضاعف الضّغوط على أنواعها، ثمّ لجأ إلى العنف والإرهاب ضدّ المعارضين، فكانت محاولة اغتيال الوزير مروان حماده، ظنًّا منهم أنّه شارك في صياغة القرار 1559، وتبعتها مباشرةً اغتيالات متعدّدة كان أفظعها اغتيال رئيس الوزراء السّابق رفيق الحريري، وبهذا الجرم اكتملت صورة الإطباق على لبنان في حريّته واستقلاله، وربّما في وجوده، لو تخاذل اللبنانيّون.

عند هذا الحدّ، كانت صحوة اللبنانيين المساندين لسوريا سابقًا، وبنوع خاص السنَّة والدّروز، فانتفضوا جمعًا مع المسيحيين، وتجمّعوا في ساحة الشّهداء في ثورة حضاريّة مثاليّة عارمة، رافضين الظّلم والاستبداد، مطالبين بالاستقلال والحريّة، وبخروج الجيش السّوري فورًا من لبنان.

عندها أخذ الصّراع السنّي والشّيعي يعمل في العلن، بعد أن كان يعمل في الخفاء. وحتّى تتخلَّص سوريا من المحاكمة الدّوليّة، في قضيّة اغتيال رفيق الحريري؛ ولكي تتحصّن إيران، في صراعها ضدَّ إسرائيل وأميركا من أجل امتلاك القوّة الذريّة، وتفرض ذاتها قوّة إقليميّة، عَقَدتْ هاتان الدّولتان حلفًا استراتيجيًّا، وعمدتا إلى تقوية "حزب الله" في لبنان، ليكون رأس حربة في صراعهما ضدّ إسرائيل والولايات المتّحدة وبعض العرب. ونتيجة لذلك وجد لبنان نفسه في قلب صراع دولي إقليمي محلّي لا شأن له فيه سوى أنّه الحلقة الأضعف في هذه المنطقة، والبلد الديمقراطي الحرّ الوحيد، الذي يمكن أن تتصارع فيه كلّ هذه القوى المحليّة والإقليميّة والدّوليّة.

- IV -

الدّور المسيحي في مواجهة الأزمة الأخيرة

لن أخالف الحقيقة إذا قلت أنّ المسيحيين واجهوا الأحداث الأخيرة بوعي كامل، وتضامن كلّي مع إخوانهم في المواطنيّة، وبفضل هذا الوعي، لم ينزلق اللبنانيّون إلى صراعٍ داخلي كان يتمنّاه لهم أعداء لبنان، تاركين

المساءلة والمحاسبة إلى يومَ تعبر هذه الأزمة، وتبرد الجراح وتتوضّح النّوايا، لأنّ وحدة الوطن بالنّسبة لهم جميعًا هي فوق كلّ اعتبار، ولأنّ الجراح تبرأ مع الزّمن، والمؤسّسات تُرمَّمُ، والجسور تُرفع من جديد،... إذا سلمت الوحدة الوطنيّة وعاد اللبنانيّون إلى طاولة الحوار، وأعملوا العقل والمنطق، ووضعوا خير الوطن ووحدته وتقدُّمه فوق مجمل المحاور الإقليميّة والدّوليّة والمنازعات والمصالح الشّخصيّة والدّاخليّة!

لكن هل تراهم يفعلون؟

حتّى السّاعة، نستطيع أن نؤكّد أنّ الوحدة الوطنيّة قد سلُمت، والسِّلم الأهلي والاستقرار قد وُضِعا على الخطّ السّليم، بفضل وعي اللبنانيين جمعًا، والعمل المتواصل للأمم المتّحدة وللإتّحاد الأوروبي، وبفضل صلوات وأدعية الطّيبين في العالم. فلأوّل مرّة يندرج اسم لبنان بقوّة على الأجندة الدّوليّة في كل المحافل الرّسميّة والخاصّة، وفي اجتماعات رؤساء الدّول ووسائل الإعلام، من الأمم المتّحدة حتّى أصغر دولة، ولأوّل مرّة تطرح بوضوح وجرأة مسألة حماية حدوده البريّة والبحريّة والجويّة من أطماع الجيران ومخطّطاتهم، ولأوّل مرّة منذ الاستقلال تحصل لُحمة وطنيّة إسلاميّة مسيحيّة درزيّة بهذا الحجم وبهذه القوّة، فيرفعون العلَم الواحد، وينشدون النّشيد الوطني الواحد، ويرفعون الأيدي بالقسَم متطلّعين سويّة إلى أفق واحد ومستقبل واحد.

لكن هذه الصّحوة تبقى ظرفيّة عابرة، إذا لم تشمل جميع اللبنانيين، بمن فيهم "حزب الله"، وإذا لم يحترم الجميع وحدتهم الوطنيّة ويعترفوا

بأخطائهم ضدّ الوطن، ويعملوا بإخلاص من أجل تنفيذ القرار 1701، وكما قال الأمين العام للأمم المتّحدة كوفي أنان، خلال زيارته الأخيرة في الثّامن والعشرين من شهر آب: "إنّ العنف سوف يتجدّد في لبنان إذا لم يتمّ تطبيق القرار 1701 بدقّة وأمانة"، لأنّ التّطبيق الكيفي للقرار، كما هو حتّى الآن، سوف يُبْقي لبنان مُشرَّعًا على العواصف الإقليميّة المتنقّلة من طهران إلى سوريا إلى تل أبيب، وهذا بالتّحديد ما لا تريده غالبيّة اللبنانيين، كما يُستنتج من تصريحاتهم.

"فالحرب الأخيرة فاجأت الجميع بمن فيهم "حزب الله" وإسرائيل"، وكانت أكثر الحروب تدميريّة، فلم تُصِب البشر والحجر فقط بل تَعدَّتها إلى الثّقة بالوطن، وبين اللبنانيين أنفسهم، على الرّغم من حرص القيادات على تأكيد الوحدة الوطنيّة خلال حواراتهم. فالمطلوب اليوم من هذه القيادات، إذا كانت صادقة، ومن "حزب الله" بالتّحديد، العمل بقوّة لإعادة الثّقة بلبنان أوّلاً وبين اللبنانيين ثانيًا، "لأنّ الحرب التي اسْتُدْرِجَ إليها "حزب الله"، كما كتب الصّحفي علي حماده في جريدة النّهار (29 آب 2006)، فاسْتَدْرَجَ معه لبنان، لم تكن لتحصل لولا استسهال قيادته العمل، إلى ما لا نهاية، على خطّين لا يلتقيان، هما المشروع العسكري الخاصّ من جهة، ومن جهة أخرى، الدّولة التي يُلقي عليها عبءَ لملمة الخسائر فقط".

من هنا، نأمل أن يكون قولُ السّيد حسن نصر الله: "أنّه لو عرف بما كان سيحصل، لما قام حزبه بأسر الجنديين الإسرائيليين"، منطلقًا حقيقيًّا لاتّخاذ "حزب الله" القرار التّاريخي المنتظر منه، ألا وهو

الانخراط في مشروع دولة المساواة، فلا نعود نسمع كلامًا من هذا النّوع: "إنّ فئة مسلّحة في البلد تمتلك القدرة على إسقاط الدّولة، ولكنّها تحجم عن ذلك لأنّها مع مشروع الدّولة".

فإذا كان كلام السيّد حسن صحوة حقيقيّة، ونحن بدورنا نصدّق قول السيّد حسن، فعلى "حزب الله" أن ينفّذ، وبأسرع وقت، القرار 1701، كما قال الأمين العام للأمم المتّحدة.

إنّنا نعلم جيّدًا أنّه يستحيل بناء مشروع الدّولة من دون "حزب الله"، كما ندرك أيضًا أنّه يستحيل على "دُويلة" "حزب الله" وجيشه الخاصّ أن يستمرّا على حالهما مع بقاء الدّولة، دولة المساواة بين الجميع؛ ودولة المساواة هذه، تُبْعِدُ عن لبنان كل المشاريع الأحاديّة، المسلمة منها والمسيحيّة، كما تُبعد مطامع الجارين: سوريا وإسرائيل. فلا يبقى إلاّ المشروع الوحيد الذي يصلح للأوطان المتعدّدة الطوائف والمذاهب والتي أرسى أُسسها المسيحيّون والموارنة منذ البداية، وهي التي تُعرف اليوم بالدّيمقراطيّة التّوافقيّة.

- V -

الإيجابيّات الجديدة

هذه الدّيمقراطيّة التّوافقيّة نودُّ أن نعمل جميعًا لإحيائها وتجديدها. فالظّرف الدّاخلي وحتّى الخارجي مناسب جدًّا وقد لا يتجدّد، فننسى سلبيّات الماضي ونُرَكِّز على أهمّ الإيجابيّات الجديدة:

1- تغيير الخطاب وتنقية الذّاكرة

فنبدأ مع ما ابتكره الشّباب اللبناني عندما تجمّعوا في ساحة الشّهداء، وعلى ضريح الرّئيس الحريري، ورفعوا العَلَم الواحد، وأنشدوا النّشيد الوطني الواحد، **وشبكوا الأيدي مردّدين قَسَم الشّهيد جبران التّويني الذي نفتقده كثيرًا في هذه الأيّام**، متطلّعين سويّة إلى أفق واحد ومستقبل واحد، عاقدين العزم على تغيير الخطاب القديم، الذي كان يفرّق بيننا، وعلى تطهير الذّاكرة وتنقيتها، وعانوا بعد أن تعايشوا طويلاً وتعرّفوا على بعضهم بالعمق وتألّموا وذُلّلوا سويّة وحقّقوا انتفاضة الأرز سويّة...

2- العلاقة التّاريخيّة مع الإسلام

من الثّابت والأكيد أنّ عملنا كمسيحيين، في هذه المنطقة، هو مع الإسلام، وأنّنا نحن من الشّعوب القليلة التي شهدت مولد الإسلام وتطوّره وفتوحاته. وقد عايشناه كلّ هذه المدّة، **وإذًا إنّ لنا فيه وفي مجتمعه خبرة فريدة ونستطيع أن نبني معه شراكة ووطنًا مثالاً للتّعايش.**

3- تنمية الإنتماء المدني - الإجتماعي

إنّ لُبّ المشكلة مع الإسلام لا يعود إلى الاختلاف في العقيدة الدّينيّة، بل في الإنتماء الاجتماعي، وما يلحق به من تنافر وتنافس في العصبيّة. إنّ المَخْرَج في هذا الإشكال هو في تنمية الإنتماء الاجتماعي المدني بديلاً للإنتماء الدّيني، بخلق أحزاب مشتركة، وتيّارات فكريّة مدنيّة أو علمانيّة، ومنظّمات تتبنّى روزنامات علميّة إصلاحيّة، تساعد

على مصالحة مجتمعاتنا مع قيَم العصر مثل: الحريّات الشّخصيّة، والفكريّة، والسيّاسيّة، والدّينيّة...، خلق أنظمة حديثة للدّولة، قوانين حكم ديمقراطي... الإنماء المتكامل: في السّياسة والاقتصاد والقيم الاجتماعية والرّوحيّة. الدّفاع عن حقوق الإنسان الأساسيّة وبنوع خاصّ حقوق المرأة وحقّ المعتقد وحقّ التّعبير عن الرّأي وحقّ التّمتّع في بيئة سليمة. كلّ هذه القيم ننظر إليها نظرة متساوية بين بعضنا، **ندمج طاقاتنا المسيحيّة مع الطّاقات المسلمة، فندخل سويّة كزملاء في القرن الحادي والعشرين، نسير معًا كحلفاء للتّحديث.**

4- طرح القضايا بإيجابيّة

المسيحيّة في العالم العربي عندها قضيّة، والإسلام في العالم الأوروبي عنده قضيّة، نطرحهما، وإن مختلفتين، بشكل إيجابي مدني منفتح، خالٍ من العقد، يعزّز وضع المسيحيّة في الشّرق، كما يعزّز وضع الإسلام في الغرب، **يعطينا دورًا مزدوجًا في العالم بدل التّركيز على السّلبيّات، التي حوّلتنا إلى مشكلة مستعصية، فلم يعد العالم ليهتمّ بها.** إنّ الإسلام الحضاري يتطلّع إلينا، فهو بحاجة لنا ونحن بحاجة إليه، فلنحاوره ولنسانده للتّغلّب على الأصوليّات.

5- ثورة الأرز – فرصة ذهبيّة

إنّ هذا اليوم هو أفضل من أي يوم آخر لبناء الإستقلال من جديد، لأنّ هذه الرّجعة أو الإستفاقة التي شهدناها إلى العَلَم والوطن اللبناني،

تبشّر بالخير، وقد تكون من وحي ونهج الرّئيس الحريري، **الذي كان باستطاعته الرّجوع بسهولة إلى الأصول الإنسانيّة، مع الحفاظ على الأصول الدّينيّة**، وهذه هي ميزته الكبرى. لقد حاول إلغاء التّصرّف الأصولي من السّاحة اللبنانيّة، كما أحاط نفسه بخبراء مميّزين، وهم في غالبيّتهم من غير المسلمين ثقافةً ونهجًا.

بهذه الطّريقة نثبت للعالم أنّنا نستطيع أن نلتقي مع الإسلام، خصوصًا الإسلام التّقدّمي والحضاري، على العلِم والانفتاح، وعلى الحداثة والدّيمقراطيّة، ونأمل أن يكون هذا برنامج عمل شبيبتنا المستقبلي، بالرّغم من التّعب والعذاب والصّعوبات التي تعترضهم... لأنّ البلوغ إلى مثل هذا الهدف ليس مستحيلاً، فالحزب الإسلامي في تركيا، حزب الرّفاه، لم يستطع، حتّى عندما استلم الحكم، من إزالة النّظام العلماني الذي أرسى أُسسه المصلح كمال أتاتورك.

إنّ علم الاجتماع يعتبر أنّ منطلق التّغيير الذي هو فعل إرادي، لا يعبّر تمامًا عن وسع الحدث وشموله، فهو ككرة الثّلج، تنطلق صغيرة من قمّة الجبل، لتتحوّل إلى واقع تغييري شامل لا يمكن تخطّيه. **فلنبدأ، ولنبدأ سريعًا، لئلاّ تفوت الفرصة الذّهبيّة، ولنبدأ بالحوار الصّريح وباللامركزيّة الواسعة التي تساعد على تخطّي الفروقات بالعدوى والعمل التّنافسي الحرّ.**

المارونيّة، إيمانٌ... ونهج حياة[38]

الموارنة بالأساس هم قسمٌ من سكّان مقاطعة سوريا الرّومانيّة التّابعين لبطريركيّة أنطاكية، وقد تجمّعوا حول منظّمةٍ رهبانيّةٍ في منطقة أفاميا، تولّت الدّفاع عن طبيعة المسيح الإنسانيّة، كما حدّدها مجمع خلقيدونية سنة 451.

على أثر هذا المجمع، أنشأ الإمبراطور "مرسيان"، ديرًا على اسم "مارون"، أشهر نسّاك سوريا الشّماليّة، حتّى يساندوا فكريًّا وروحيًّا المدافعين عن عقيدة الطّبيعتين للسّيّد المسيح، كما ذكر "أبو الفداء"، حاكم منطقة حماة، قال: "ولسنةٍ خلت من ملكه، (أي 452)، بنى الإمبراطور مرقيانوس دير مارون الّذي في حمص..."[39].

كبر هذا الدّير جدًّا، حتّى فاق عدد رهبانه الأربعمئة وجلّهم من المثقّفين والمناضلين، كما نمت المنظّمة حتّى زادت على السّتّة وثلاثين ديرًا.

38- محاضرة في جامعة سيدة اللويزة بتاريخ 5 آذار 2010.
39- **المختصر في تاريخ البشر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960، ص. 81.

فالرّهبان التّابعون لهذه المنظّمة، والشّعب الّذي تبع تعاليمهم، من أنحاء بطريركيّة أنطاكية، دعوا أوّلاً "أتباع بيت مارون"، ومع الزّمن اختصرت العبارة بكلمة "موارنة". هؤلاء انتظموا في شبه حزبٍ دينيٍّ، لانتفاء وجود أحزابٍ مدنيّةٍ، وصمدوا في النّضال أكثر من مئتي سنةٍ[40].

فالمارونيّة إذًا، من حيث النّشأة، هي مذهبٌ فكريٌّ لاهوتيٌّ روحيٌّ، له صفته المميّزة المتّصلة بالحضارة الآراميّة السّريانيّة والمطبوعة بطابعٍ رهبانيٍّ نسكيٍّ خاصٍّ.

أمّا كيف تحوّل هذا المذهب الفكريّ إلى طائفةٍ مناضلةٍ، شبه قوميّةٍ، مرتبطةٍ بوطنٍ معيّنٍ هو لبنان، تسير حسب نظامٍ قيميٍّ أخلاقيٍّ ونهجٍ حياتيٍّ عمليٍّ صارمٍ؟

المسار التّاريخيّ

نعرف أنّ الفتح العربيّ قد أطلّ على هذه المنطقة من سوريا الرّومانيّة، والمسيحيّة فيه أشلاء مبعثرةٌ بسبب الخلافات الدّينيّة اللاّهوتيّة وتدخّل الإمبراطوريّة البيزنطيّة في الشّؤون الدّينيّة.

فالنّساطرة تراجعوا إلى الشّرق وناصروا الفرس وأيّ سلطانٍ آخر، شرط أن يكون خصمًا لبيزنطية، وأصحاب الطّبيعة الواحدة، وبينهم اليعاقبة، اتّجهوا أوّلاً إلى الفرس، ثمّ إلى العرب مردّدين مع أحد

40- مخطوطةٌ في المتحف البريطانيّ، Add. 12155, fol. 16 – رسالة خصوم بيت مارون (سنة 591).

مؤرّخيهم: "إنّ ربّ النّعمة نجّانا على يد الإسماعيليّة (المسلمين) من يد الرّوم (البيزنطيّين)".

أمّا الملكيّون، أي الموارنة والرّوم الّذين تبعوا الملك "فسينالون جزاء الأعداء، علاوةً على حظّ الكافرين". وهؤلاء أيضًا، سوف تنبت بينهم بذور خلافاتٍ جديدةٍ منها دينيّة لاهوتيّة، حول الفعل والمشيئة في المسيح، ومنها طقسيّة وطنيّة، حول اللّغة والليّتورجيّة.

المارونيّة أمّة

أمّا الموارنة فقد كانوا أكثر تعلّقًا بطقوس أنطاكية ولغتها وحضارتها السّريانيّة، المنفتحة على أعرق الحضارات الشّرقيّة، لذا رفضوا التّنازل عن معتقدهم كما رفضوا استبداله بأيّ معتقدٍ آخر مسيحيٍّ أم إسلاميٍّ لا فرق، وآثروا التّخلّي عن كلّ شيءٍ، حتّى عن الأرض والوطن والمسكن في سبيل المحافظة على أصالتهم.

وعندما ضاقت بهم سبل العيش، وقد أصبحوا بين نارين، نار الفاتح العربيّ ونار المدافع البيزنطيّ، لأنّ أغلبيّتهم كانوا يسكنون القسم الشّماليّ الخصب من سوريا، آثروا النّزوح إلى أيّ بلدٍ آخر، على أن يتنازلوا عن خطّهم الفكريّ الحضاريّ المسيحيّ. فكان لهم أن يختاروا بين منطقتين خلقيدونيّتي المعتقد، هما قيليقيا الأولى في الشّمال الشّرقيّ، وفينيقيا اللّبنانيّة الجبليّة والسّاحليّة في الجنوب الغربيّ، وبما أنّ قيليقيا كانت على خطّ النّار بين جيوش الإمبراطور البيزنطيّ وجيوش الفاتح العربيّ،

فضّلوا اللّجوء إلى فينيقيا الجبليّة الوعرة المسالك، وسلكوا إلى ذلك سبيل التّرحال القديم، أي ضفاف الأنهر، حتّى وصلوا إلى منبع العاصي في الهرمل، حيث لا تزال آثارهم ظاهرةً حتّى اليوم (مغائر الهرمل).

الجبل الملجأ

ومن منبع العاصي تسلّقوا، على دفعاتٍ، جبال الأرز وجبال المنيطرة- العاقورة، حيث لا تطالهم خيّالة الفاتح العربيّ، واستوطنوا الجبال والوديان، وأخذوا لهم منفذًا إلى البحر في بلاد البترون، ليواصلوا تجارتهم الّتي كانوا ألفوها في سوريا الشّماليّة: أي الزّيت والزّيتون والحبوب والخمور، كما أثبت ذلك العالم الأثريّ "جورج شالنكو" في كتابه "القرى القديمة في سوريا الشّماليّة". وفي الموطن الجديد لاقوا التّرحاب من السّكّان الأصليّين، من مسيحيّين ملكيّين ووثنيّين ورثة الحضارة الفينيقيّة الرّائدة، ولم يطل الزّمن حتّى انصهروا في وحدةٍ متراصّة البنيان، وألّفوا أمّةً ذات سيادةٍ وحفظوا كيانهم بفضل تضامنهم والتفافهم حول رهبانهم وأساقفتهم.

وهذه بعض مقاطع دوّنها رحّالةٌ غربيّون تشهد على أبرز اتّجاهاتهم ونهجهم في وطنهم الجديد لبنان:

بعض الشّهادات

يقول "رستلهوبر"، قنصل فرنسا في بيروت: «ما أن اعتصم الموارنة في جبالهم حتّى ألّفوا أمّةً على نصيبٍ كبيرٍ من الاستقلال، فقد تمكّنوا، في ظلال جبالهم العالية العصيّة، من صدّ الزّحف العربيّ، حتّى أصبح لبنان وكأنّه قلعةٌ مسيحيّةٌ طبيعيّةٌ، وقد تنظّموا بإدارة إكليروسهم وكبار ملاّكيهم تنظيمًا إقطاعيًّا قويًّا، وعاشوا في جبالهم مدّةً طويلةً في شبه عزلةٍ، ولم تكن لا طبيعة البلاد ولا أخلاق أصحابها ممّا يدفع إلى تأسيس المدن. فقامت القرى الكبيرة، وكلٌّ منها ملكٌ لأحد الملاّكين. وكلّ قريةٍ أو منطقةٍ كان لها حياتها الخاصّة، حياةٌ زاخرةٌ، ولّدت شعورًا وطنيًّا محلّيًّا قويًّا، وشعورًا وطنيًّا شاملاً، ظهر في تعلّق كلّ فردٍ بشخص البطريرك، وما كان أقوى هذا الشّعور إبّان الملّمّات، في وجه العدوّ المشترك»[41].

وقال الأخوان "تارو": «إنّ الموارنة في نظامهم الإقطاعيّ جعلوا جبلهم حصن المسيحيّة في الشّرق، وكأنّي به قلعةٌ كبيرةٌ... وقد كانوا أسعد من الأرز حظًّا، فامتدّوا وانتشروا في لبنان كلّه، فرض عليهم أن يعيشوا في طبيعةٍ جافّةٍ قاسيةٍ، فأعملوا يدهم في الصّخور ونحتوها، فإذا هي "سطوحٌ" متدرّجة وجنائن معلّقةٌ وبساتين جوّيّةٌ، وكرومٌ من التّوت والدّوالي، وإذا بها رائعةٌ من الرّوائع...»[42].

41- تقاليد فرنسا في لبنان، بيروت، 1918، ص 15، 17.
42- **Jean et Jérôme Taraud**, p. 41-42.

الهدف - عيش الإيمان

من خلال هذه الأوصاف والمزايا الّتي لحظها ودوّنها رحّالةٌ ومؤرّخون عديدون، ندرك أنّنا تجاه نخبٍ مختارةٍ من شعوبٍ كان لها بصماتٌ على التّاريخ القديم، فلا عجب إذا تلاقت حول مبادئ وسلوكيّاتٍ متقدّمةٍ طبعت نهجهم الحياتيّ، بعد أن تكوّنوا جماعة إيمانٍ وعيشٍ، واستقرّوا وارتاحوا إلى أمنهم ووضعهم الجديد في لبنان. كما استنتج مؤرّخون ثقاتٌ، أمثال البطريرك إسطفان الدويهي والدّكتور كمال الصليبي وغيرهم.

الهدف الأساسيّ الّذي وضعوه نصب أعينهم، هو عيش إيمانهم بيسوع الإله المتجسّد إنسانًا مثلنا، حتّى ولو أجبروا على التّخلّي من جديدٍ، عن الأرض والوطن والمسكن.

النّهج الحياتيّ

انطلاقًا من هذا المبدأ الهدف، بدأوا ينظّمون عيشهم ويتأقلمون مع محيطهم الطّبيعيّ والإنسانيّ الجديد "بإدارة إكليروسهم، بطريركًا وأساقفةً ورهبانًا، وكبار الملاّكين تنظيمًا إقطاعيًّا قويًّا".

وعن التّأقلم مع الطّبيعة الجبليّة الفقيرة والقاسية، وعن الوعي العميق لذهنيّة المحيط الدّينيّ والإنسانيّ وعوائده وتكوّنه وحداتٍ مقفلة الواحدة عن الأخرى، تكوّنت لهم مجموعة قواعد وسلوكيّاتٍ تسهّل

عيشهم وتخالطهم وتفاعلهم وعملهم الرّسوليّ. فيستفيدون من جيرتهم ويفيدونهم ويخدمونهم بإخلاصٍ، مع الحفاظ على ثوابتهم، وهذه بعض عناصر هذا النّهج الحياتيّ:

1- اليقظة والحذر: لقد كان من الطّبيعيّ في المرحلة الأولى أن يتابعوا النّضال والكفاح ضدّ الظّلم والجور وامتهان الكرامة، الّذي لحق بهم سابقًا زمن المماليك والمقدّمين الّذي وصفه المؤرّخون بأنّه من أقتم العهود، فقد قتل خلالها وتشرّد وأحرق كثيرٌ من البطاركة والأساقفة والرّهبان، وقد كتب مؤرّخ السّلطان قلاوون، واصفًا أسر البطريرك "لوقا البنهراني"، قال: "اتّفق أنّ في بلاد طرابلس بطركًا عتا وتجبّر واستطال وتكبّر وأخاف صاحب طرابلس، وجميع الفرنجة، وكان إمساكه فتوحًا عظيمًا أعظم من افتتاح حصنٍ أو قلعةٍ...". أمّا المرحلة الثّانية، فقد تميّزت بالانطواء على الذّات واليقظة التّامّة والتّكيّف مع طبيعة لبنان، وقد كان تأثيرها عميقًا وحاسمًا، حتّى أصبحوا شعبًا حذرًا صلبًا، متراصّ الصّفوف، شديد البأس، غيورًا على كيانه ودينه... وقد انتهت بالاتّصال بروما بواسطة الصّليبيّين.

2- الهويّة الحضاريّة: لم يكتفوا بالحفاظ على هويّتهم، بل عملوا على تطويرها وتعميمها على محيطهم بالمثل والعدوى، وعن طريق الثّبات في الموقف. وبفضل الأمانة لخطّهم هذا، استطاعوا اكتساب عطف ومودّة الأمراء المعنيّين والشّهابيّين

"الّذين ساووا ما بينهم وبين الدروز في المكانة"، وقد اتّصلوا، مع "فخر الدّين"، بروما وبأمراء توسكانا، ومع الشّهابيّين، اتّصلوا بفرنسا والغرب، وقد انتهى الأمر بالشّهابيّين السّنّة وبأنسبائهم آل أبي اللّمع الدّروز إلى اعتناق المسيحيّة حتّى أصبحت الإمارة الشّهابيّة إمارةً مارونيّةً سنة 1770.

3- الوفاء وعرفان الجميل: هذه المعاملة المميّزة من قبل الإمارتين المعنيّة والشّهابيّة، رسّخت فيهم الوفاء وعرفان الجميل لكلّ من مدّ لهم يومًا يد المساعدة وأظهر نحوهم التّفهّم والعطف.

4- الصّدق في الخدمة والمعاملة: كما تميّزوا بالاستعداد الكامل للخدمة، فكانوا أوفياء صادقين لعقيدتهم أوّلاً، وللدّولة أو الإمارة ثانيًا، مهما كان شكل الدّولة ولونها، ففي دولة "فخر الدّين" الدّرزيّ، يقول الدّويهي: "ارتفع رأس النّصارى، عمّروا الكنائس وركبوا الخيل بسروجٍ ولفّوا شاشات وكرور، لبسوا طوامين وزنانير مسقّطة وحملوا القاص والبندق المجوهرة، وقدّموا المرسلين من بلاد الفرنج، وأخذوا الثّكنة في جبل لبنان، لكون غالب عسكره كانوا من النّصارى وكواخيّه وخدّامه موارنة، ولأنّ الأمير وجد فيهم من الوفاء والصّدق والأمانة ما جعله يخصّهم بعنايةٍ مفضّلة"، وبفضل هذه الصّفات عينها استطاعوا اكتساب عطف ومودّة الشّهابيّين وقبلهم العسّافيّين...

5- التّعلّم من الأخطاء: إنّ ثبات قيادتهم الرّوحيّة وتجرّدها، وتقلّب العهود والحكّام، وبنوعٍ خاصٍّ ظلم المماليك وعمالة بعض المقدّمين، وفّرت لهم خزّانًا من الخبرة لمعرفة انتقاء الحلفاء والأصدقاء، وانتقاء الأعداء والتّعلّم الدّائم من الأخطاء.

6- الحرّيّة حقٌّ للجميع: ولأنّهم كانوا صادقين في عيش إيمانهم، ولأنّ لكلّ إنسانٍ الحقّ في الحرّيّة والعيش الكريم، ولأجل أن يتّقوا المظالم والاضطهادات الّتي واجهتهم، منذ البدء حتّى أربعينات القرن التّاسع عشر وثورة 1860، فكّروا وسعوا، مع رفاقهم في المواطنة، في خلق وطنٍ يضمن هذه الحقوق للجميع، وقد تكلّل جهادهم وتحقّق سعيهم هذا بإعلان دولة لبنان الكبير، في أوّل أيلول سنة 1920.

7- نقل هذه الرّسالة إلى المحيط: إنّ نهجهم الحياتيّ هذا ليس ظرفيًّا، بل هو نهجٌ حيٌّ متطوّرٌ، لم يتوقّف ولن يتوقّف، ولا بدّ من أن يتحقّق، إذا كان لجيلنا صبر الأجداد وحكمتهم وإيمانهم. وكما قال كمال الصليبي "قد تأتي ظروفٌ بعد تسمح للّبنانيّين بأن ينقلوا هذه الرّسالة إلى غيرهم". حقّقوه أنتم بوعيكم وتضامنكم وإيمانكم برسالتكم، ولا تدعوا الفرصة تفوتكم، فالتّاريخ لا يرحم.

للموارنة نخبة جديدة قائدة
أو تُكمِل المسيرة شعوبٌ أخرى[43]

الموارنة اليوم أمام إنذارٍ على جانبٍ كبير من الخطورة. فإما أن يستفيقوا ويُساعِدوا على نشوءِ نخبةٍ تقود وفق وعيهم الروحاني والتاريخي، أو يزولوا وتُكمِل شعوبٌ أخرى مسيرة المسيحية ومسيرة التاريخ في هذا الشرق.

لكن الموارنة لا يعملون وحدهم، بل تعمل العناية الإلهية معهم. وتاريخهم الجهادي لا يمكن أن يصل إلى حال إفلاس، وهم مَنْ أيقظوا الشرق على الحرية والديمقراطية وأنوار العلم وحقوق الإنسان.

ولعل علامة التفاؤل الكبرى بغدٍ لهم مُشرِق، هي المعنى الروحاني العميق لظهور قدِّيسيهم في هذا العصر، تأكيدًا على وجود خميرة الروحانية والصلاح فيهم، وفي ذروة تألُّمهم وعذابهم. (التحرير)

أعترف بأنني لم أُدرِك المعنى العميق لتعبير "من أرض المارونية إلى المارونية الأرض"، مع تقديري لعلم المطران أنطوان حميد موراني صاحب هذا التعبير، ولخبرته.

43- هذا النص مُختصَر لحديثٍ طويل مُتبادَل بين الأباتي بولس نعمان والمجلة البطريركية، في هموم المارونية ومُعاناتها.

فانطلاقًا من فهمي لتاريخ الموارنة، أعتبر المارونية في الأساس طريقة للقداسة، خطّها القدّيس مارون بابتكاره نهجًا جديدًا هو النسك في العراء، طريقًا إلى القداسة: قدمان على الأرض، وكيان بأكمله ينهد نحو القداسة.

الأرض إذًا، وكلّ أرض، هي بالنسبة إليه الركيزة الأساسية لانطلاقه نحو السماء، ولالتقائه يسوع المسيح المُتجسِّد. ولكن مع الزمن، وبعد نضال تلامذته وأتباعه في الدفاع عن إنسانية يسوع الكاملة التي تثبّتت في مجمع خلقيدونية عام 451، وتلتها صراعات مُتعدِّدة بين القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتَين، تجمّعت أغلبية أتباع القدِّيس مارون في دير مارون أو بيت مارون، وتحصّنت في جبال لبنان أو فينيقيا اللبنانية.

فالأرض اللبنانية عمومًا، ساعدت الموارنة على العيش وتحقيق حياة يسوع المسيح كما عاشها على الأرض، لأن التجسُّد الإلهي، حتى يكون خلاصيًا، يجب أن يُترجَم أعمالاً وحياةً وتضحياتٍ على الأرض، على مثال السيِّد المسيح.

الأرض - الحصن

هذه الأرض إذًا، كانت بالنسبة إلى الموارنة الأُول حصنًا، بمعنى أنه لولا هذه الأرض اللبنانية الآمنة، "لظلّ الشعب الماروني من دون شكٍّ هائمًا على وجهه، حتى الضياع كما ضاع غيره من شعوب الشرق".

من هذا التزاوج المُتناغِم والمُنسجِم بين الإنسان والأرض، تولّد

شعبٌ شديد المراس، قوي الإيمان، كما نشأ بلدٌ يُحِبّ الحرية، ويصبو إلى العلم والتقدُّم.

هذا التفسير للأرض، التقيت فيه مع الأب ميشال حايك، هو من خلال تأمُّله في تاريخ الموارنة، وأنا نتيجةَ أبحاثٍ تاريخية في أصل الموارنة وكيف نشأوا على أثر تثبيت عقيدة إنسانية يسوع الكاملة، وكيف تطوّعوا للدفاع عنها بعد المجمع الخلقيدوني.

فالموارنة اليوم، عندما يتعلّقون بالأرض اللبنانية ويُدافِعون عنها حتى الاستماتة، ويبذلون في سبيلها دماءهم، لا يُدافِعون عن مقامٍ زمنيٍ ترابي، بل عن الإيمان الذي يرمز إليه تراب جبال لبنان وأوديته. فلبنان بالنسبة إليهم أكثر من وطن، إنه رسالة وقيمة وتاريخ. وقد عبّر عن هذه الرسالة أحسنَ تعبيرٍ البابا يوحنا بولس الثاني، عندما اطّلع بعمق على المُعطَيات الروحية والجهادية التي جسّدها تاريخ لبنان.

فالجغرافيا اللبنانية شكّلت أفضلَ حقلٍ لنجاح تجربة عيش المسيحية. وهكذا، تطوّر لبنان، مع هذا الشعب المؤمن، من حصنٍ طبيعي إلى وطنٍ للإنسان، ولكلٍّ إنسانٍ يؤمن بالحرية والقِيَم الإنسانية في هذا الشرق. وقد التقت عندذاك دعوة الموارنة وتآلفت مع دعوة لبنان الجبل-الحصن. وهكذا تحوّل لبنان معهم البلدَ الوحيد في رحب آسيا، الذي يستطيع استخدام إرادته لأجل حريته، والقول نعم نعم أو لا لا.

والآن وقد شُدّ الخناق على لبنان، وتقلّصت الحرية فيه، من الضروري أن تعنف المقاومة المارونية أيضًا، ويشتدّ العزم على العيش الحر الكريم. وكما نرى بالفعل، إن نسمات الحرية المفقودة بدأت تُوعّي الضمائر

المُستضعَفة والمكبوتة، وتُعنِّفها وتدعوها إلى الانعتاق والتحرُّر على مثال لبنان. وأملنا بفجرٍ جديد بدأ يطلع، لأن الحرية مُعدِية في طبيعتها، وهي ليست حكرًا على أحدٍ ولا على شعبٍ ولا على دين، بل هي ملكٌ للجميع وهبه الخالق، وهدفٌ يصبو إليه كلّ مخلوق.

بين شرقٍ وغرب

وكما للمارونية رسالة في الشرق، لها في الغرب رسالة، هي رسالة الشرق الروحاني إلى الغرب العلمي المُتطوِّر. ولا يمكن لهذه الرسالة أن تدوم وتفعل إلا إذا بقي الشرق مصدرها ومنبعها، والغرب والكون كلّه مسرحها وملعبها. والعكس قائم أيضًا، وهو أنها تزول تلقائيًا من الغرب، إذا نضب دفعها في الشرق - لا سمح الله- وزال.

إن مارونية الغرب إذا فصلت ذاتها عن أنوار الشرق أسقطت عنها صفة الأصالة وذابت لا محالة.

وإن الشرق لا يزال في حاجةٍ إلى المارونية، لأنه في حاجةٍ إلى تجسيد تعاليم المسيح وعيشها والشهادة اليومية لصحتها وحقيقتها. إنه في حاجةٍ إلى تقديس إنسانية الإنسان.

الغرب هو الآخر في حاجةٍ إلى المارونية لتنقل إليه خبرة الشرق النسكية والصوفية وثراءه الروحي.

بعيدًا عن التشاؤم

ماذا الآن داخل البيت الماروني؟ نحن في حالِ انحطاطٍ قيادي، لأن القادة فقدوا، لسوء الحظ، روح المارونية التاريخية التي وصفناها. وكذلك فقد قسم كبير من الشعب الإحساس بأنه يُمثِّل المسيح والقِيَم المسيحية في هذه المنطقة. وبدأ الطرفان يُفكِّران بمصالحهما الشخصية، إذ تغلّبت الأنانيات على الأهداف، علمًا بأن العيش من أجل الأهداف هو الذي أبقانا في الوجود حين ذابت أقليات كثيرة أخرى في هذا الشرق.

هدفنا اليوم إذًا أن نُركِّز تفكيرنا على ما يطلبه يسوع المسيح، ولِمَ أوجدنا في هذه المنطقة وفي هذا الظرف بالذات، وأعطانا الوعي التاريخي الكامل، لا لنجعله رأسمالاً لمطامحنا الشخصية، بل أداةَ خيرٍ لاكتشاف المسيح والقِيَم التي مثّلها على الأرض.

هذا كلامٌ بعيدٌ عن التشاؤم، إنما يُؤكِّد في الوقت نفسه على حقيقة أن الماروني أُقيم في هذه المنطقة وفي هذا الظرف حتى يُساعِد العناية الإلهية في عملها الخفِيّ، إذ هي تحتاج إلى أدواتٍ تنشط بطريقةٍ واضحة وجليّة في المجتمع، تحقيقًا لغايات السماء.

ولنا هنا حق التساؤل: هل فقدت الكنيسة المارونية النخبة الرسولية؟ النخبة التي تُفكِّر لِمَ وُجِدت هنا، الآن، وما هو دورها الذي لا يمكنها أن تستوحيه إلا من عمل الآباء والأجداد الذين مرّوا بظروفٍ أصعب، وظلّوا مُحافِظين على أهدافهم جماعةً لا أفرادًا؟

إن العناية الإلهية ومسيرة التاريخ ترذلان شعوبًا وأُممًا وتُغيِّبانها، كما أنهما تُظهِّران غيرها حتى يبقى التاريخ ماضيًا إلى الأمام. وعلى الموارنة أن يعرفوا بالتالي أنهم خاضعون لهذه القاعدة التاريخية. فإذا لم يستفيقوا اليوم ويُساعِدوا على نشوءِ نخبةٍ تقود وفق وعيهم الروحاني والتاريخي، فسوف يزولون حتمًا وتحلّ شعوبٌ أخرى محلّهم، تُكمِل مسيرة المسيحية ومسيرة التاريخ. إن ذلك يُشكِّل إنذارًا لنا. وقد بدأت الشعوب الشرقية تنتفض. ولا بد من أن تُلاقي الخط الصحيح والباني للإنسانية. فلا يكفي التغنّي بالتاريخ، بل المهم خلقُ مجتمعٍ يُكمِل التاريخ. وهو ما لا نراه في طريقة عيشنا وتربيتنا وسياستنا.

على أن أملنا مع البطريرك الراعي الذي عاش هذه المرحلة بكامل حِدّتها، واختبر نقاط الضعف والقوّة فيها، بأن نعود ونكتشف وإياه الخط والمبادىء، بمؤازرة القوى الجديدة التي ستُساعِده على النهوض بشعبه من خلال قراءةٍ جديدة للإنجيل ولتاريخ كنيستنا، بتجرُّدٍ تام، وبوضع أنانياتنا جانبًا، عاملين وكأن نهضة وطننا ونهضة الشرق قائمتان على عاتقنا. إن نخبة كهذه أمام امتحانٍ عسير. فإما نحن أكفياء وقادرون على إرساء وضعِ زهديةٍ وروحانية في العمل تُعيدان إلى الكنيسة دورها الرسولي، أو أن الله قادر على أن يخلق من الحجارة أبناء له.

علامة القدّيسين

فهل يمكن أن يصل تاريخنا إلى حال إفلاس؟ هل من المعقول أن مَنْ أيقظ الشرق على الحرية والديمقراطية وأنوار العلم وحقوق الإنسان، يقف الآن جامدًا، مذهولاً، أمام ذبح الحرية والديمقراطية وحقوق

الإنسان في الشرق؟ إن ما علينا القيام به، هو أن نُصلّي حقيقةً، حتى يُعطينا الربّ دعوات قادرة على إكمال مسيرة التاريخ. إلا أنني أقول في الوقت نفسه: لو لم يكن في شعبنا المُتألّم والمُعذّب خميرة من الروحانية والصلاح، لما استفاقت عظام القدّيسين من التراب لتقول لنا إن علينا أن نستيقظ، وإننا لسنا وحدنا مَنْ يعمل. وإلا كيف نفهم ظهور شربل ورفقا والحرديني ونعمة والكبّوشي وكلّ قدّيسينا في هذا العصر، وكيف يصلح الزعم بأن قداستهم وآياتهم وتعاليمهم هباء في هباء؟

في أيّ حال، إن تباشير نهضتنا، وتلك الانتفاضات الجارية حوالينا، وخصوصًا لدى الشبيبة، إنما هي الباقية فألَ خيرٍ وأملٍ ورجاءٍ بمستقبلٍ أفضل للشعوب الساكنة في هذه المنطقة.

المسيحيّون وتجديد الإلتزام الوطني*

لبنان الوطن، هذا الإنجاز التّاريخي الفريد في رحب الشّرق الأوسط الصّاخب والصّاهر للأوطان، هل كان وليد الصّدفة أم نَسَجَته، بيتًا للحريّة، الإرادات الصّلبة والعاملة بصمت، خيطًا بعد خيط، كما يبني العنكبوت بيته: يبني ثمّ يهدمون ثمّ يبني من جديد؟

السّؤال المطروح عن "تجديد الالتزام المسيحي في لبنان" هل يعني أنّ الالتزام القديم قد أخفق وأنّ المسيحيين هم المسؤولون عن إخفاق ثقافة العيش المشترك التي ابتكروها هم بصبر وعناد طيلة أجيال مع الدروز والمسلمين شركائهم في بناء لبنان؟

من النّافل اليوم، ومن غير المفيد، أن نتبادل التّهم والمسؤوليّات، إلاّ أنّه من الضروري التّركيز على أنّ المواقف السّياسيّة التي اعتمدها كلّ فريق كانت أغلب الأحيان إمّا ردّات فعل، أو نتيجة ظروف وصراعات إقليميّة. وفي هذا السّياق لا يسعنا إلاّ أن نُذَكِّر ببعض الأحداث مثل: حالات

* الرابطة السريانية في لبنان.

الشّك التّاريخيّة في ديمومة لبنان كوطن نهائي، الاعتداءات الفلسطينيّة، الوجود العسكري الغريب على أرض لبنان، الولآت الإقليميّة، إخضاع البلد للسّوريين، وأخيرًا لا آخرًا التّهديد بديمقراطيّة العدد.

هذه المواقف والحالات، المعاكسة لإرادة المسيحيين، لا تسمح بالشّك في أنَّ المسيحيين قد التزموا دومًا وأبدًا بالوحدة الوطنيّة، ولكنّنا نُقِرُّ ونَعْتَرِف بالمسؤوليّات المشتركة، بالنّسبة لتقاسم السّلطات وإذكاء العصبيّة الطائفية، مع التّنويه والاستدراك بأنّ هذه المواقف المسيحيّة كانت أكثر الأحيان ردّات فعل لا تتنافى مع هدفهم الأوّل وهو الحفاظ على لبنان كوطن للعيش المشترك وكنطاق أمانٍ لوجودهم في وطن سيّد حرّ مستقلّ.

هذا الالتزام المسيحي لم يكن وليد الظّروف أو من وحي الخارج بل هو عملٌ وتصميم إرادات واعية، وقد رافق النّشوء التّاريخي لهذا الوطن، الذي، لم يكن ليوجد إلاّ على أساس التّعدّدية والاعتراف بالآخر منذ نظام العهد العساڤي (1516) إلى عهد الإمارتين المعنيّة (1584 - 1633) والشّهابيّة (1633 - 1842) حيث شكّل المسيحيّون العمود الفقري والجامع المشترك لمختلف العائلات اللبنانيّة وقد اعتبروا ذواتهم منذ البدء حرَّاس المعبد الحريصين على حريّتهم وكرامتهم حرصهم على حقوق الآخرين وعلى حقوق الإنسان عامّةً وقد أسهموا في وضع وصياغة هذه الحقوق شرعة دوليّة بشخص الدّكتور شارل مالك.

لقد أصرُّوا على بناء وطن يكفل الحريّة لهم ولغيرهم من الطّوائف، وبنوع خاصّ الأقليّات، ليعيشوا معًا بسلام وأمان كما كتب الدّكتور كمال الصّليبي في دراسته الرائعة عن الموارنة سنة 1970 في ملف النهار.

وبالرّغم من الأحداث التي زعزعت لبنان، وقد أدنتهم بعض الأحيان إلى حافة قطع الرّجاء، لم يتخلّوا يومًا عن هذه الثّوابت مجدّدين دائمًا إيمانهم بالعيش المشترك، كما لم يغب قطُّ عن بالهم مثلهم الشّعبي المأثور: "من لا وطن له لا دين له"، فتخطّوا محنة سنة 1860 ونبذوا الأحقاد وأقبلوا، منذُ أُعلِن نظام المتصرّفيّة سنة 1864 على التّعاون، هم والدّروز مجدداً، لإنجاح التّجربة اللبنانيّة من جديد، محوّلين عصبيّتهم الدّينيّة تدريجيًّا إلى ولاءٍ للبنان كوطن يجمع بينهم وبين الطّوائف الأخرى، ضامنًا مصالح الجميع، والعيش الكريم للجميع.

هذه الحقائق بعينها ذكرها قداسة البابا يوحنّا بولس الثّاني، في أوّل آب سنة 1948 في إحدى رسائله ثمّ أعاد ذكرها خلال زيارته لبنان، مذكّرًا الجميع بأنّ لبنان هو رسالة قبل كلّ شيء، رسالة مثاليّة تحمل معاني السّلام والأخّوة للجميع.

ولكن لبنان الرّازح تحت نير الاحتلال السّوري لم يكن باستطاعته أن يستجيب لأمنية البابا بسبب المحاولات المتكرّرة الهادفة إلى إثارة النّعرات وإذكاء الفتن والإنقسامات الطّائفيّة والمذهبيّة، وتعطيل دور الجيش الوطني، وترك الحريّة للميليشيات الغير الوطنيّة... التي كانت تغذّي بتواتر نار الفرقة والاضطرابات.

وبينما التّاريخ يكمل مسيرته... ولا سبيل لإيقافه بطريقة عاديّة، إذا بصدمة مُدَوِّية أحدثت ارتجاجات شعبيّة ونفسيّة غيّرت مجرى التّاريخ عندما سقط الرّئيس رفيق الحريري ورفاقه ضحيّة إجرام بربري. وقد سبقته وتلته اغتيالات متعدّدة لقادة معروفين ومواطنين

أبرياء أحدثت تردّداتها انتفاضة عارمة، طالما انتظرناها، فأُحْكمت اللُحمة، ولأوّل مرّة، بين الإسلام السنّي والمسيحيين والدّروز، لُحمة تبعها اصطفاف شعبي لا مثيل له في تاريخ لبنان المعاصر تعزَّز سريعًا بعمل دولي عربي- أميركي- أوروبي أخرج السّوريين وجيشهم المحتلّ، منذ ثلاثين سنة، خارج الحدود اللبنانيّة.

لأوّل مرّة يتحرّك السنيّون بهذه القوّة وبهذا التّصميم والعناد مدفوعين بتأثير اغتيال قائدهم المتألّق رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان، وبخطر هلالٍ إقليميٍّ شيعي- سوري- إيراني داهم أُعِدَّ بكثير من العناية. لذا تصلّبوا ضدّ النّظام السّوري القائم وضدّ وجود جيشهم في لبنان مطالبين بالاستقلال والسّيادة.

تجاه هذا الوضع المستجدّ، وبعد تحرير الوطن من الإحتلال السّوري مدّة ثلاثين سنة، لا بدَّ للبنانيين، وبنوع خاص المسيحيين من طرح السّؤال الكبير على أنفسهم: كيف ستكون مضاعفات هذه الأحداث على التزامهم السّياسي تجاه لبنان؟ ماذا يُطلب منهم اليوم من أجل تثبيت أسسَ الإستقلال؟

وإذا كان موقفهم السّابق قد تميَّز ببعض التّصلّب فذلك من أجل الوصول إلى وفاق وطني كامل. أمّا اليوم فإنّ الميثاق المسيحي الإسلامي الجديد، والمطالبة بمواطنيّة كاملة للجميع تحتّم عليهم تجديد الخطاب تجديدًا يعزّز الوحدة الوطنيّة والطّمأنينة بين الطّوائف المتعدّدة، ويبني الصّرح الوطني من جديد على أساسٍ أصلب وأمتن.

وتجديد الخطاب هذا لا يعني الشّكل والمظهر فحَسب بل يتعدّاه ليطال بناء الدّولة وإدارتها وسياستها وتحديثها.

وهذه باختصار بعض أسسَ التّجديد:

أوّلًا: الإعتراف بانتماء لبنان إلى العالم العربي أو إلى "العروبة البيضاء" كما دعاها البطريرك بولس المعوشي، والجهر بها. وهذا الانتماء يفرض على اللبنانيين الإشتراك المباشر في حلّ النّزاعات الإقليميّة المتعدّدة وأهمّها: النّزاع العربي- الإسرائيلي، مشاكل العراق، أحداث السّودان العرقيّة والدّينيّة، مشاكل التّغيير الدّيمقراطي في سوريا، ومصر، والسّعوديّة...

ثانيًا: العمل الجدّي من أجل بناء وطني يحرّر المواطن من كلّ قيد طائفي أو مذهبي، فيرفض التّعصّب وينمّي الاحترام العميق لديانة المواطن الآخر وإيمانه.

ثالثًا: رفض كلّ الأصوليّات مهما كان مصدرها، وتقوية ثقافة الإعتدال والتّوجّه بالأفضل إلى الإسلام الحضاري لأنّ مشكلة الأصوليّات والتّصدّي لها تعني الإسلام مباشرةً.

رابعًا: تشجيع المسيحيين في الإقبال باندفاع كامل على خدمة الدّولة وتحديثها والمساهمة الفعّالة في ترقّيها، ومن المحبَّذ جدًّا تنشيط المبادرات الخاصّة على أنواعها من مثل النّقابات والنّوادي والمدارس والجامعات والمصارف والبنوك والمؤسّسات الماليّة والشّبكات الإعلاميّة... هذه المؤسّسات بأكثريّتها ليس لها طابع ديني خاصّ بل تتميّز بطابعها الوطني وتسهر على تحقيق الإنجازات الكبرى من مثل الإعمار والتّقدّم التّقني، وإنماء الديمقراطيّة والدّفاع عن الحريّات ومتابعة مباحثات السَّلام...هذه يدخلها مسيحيّون ومسلمون ولا دينيون

على السّواء ويعملون باستقلاليّة وذهنيّة منفتحة كأناس يحملون قيمًا وفضائل إنسانيّة ووطنيّة.

إنّ كلّ مبادرة اجتماعيّة، اقتصاديّة وثقافيّة تساعد على الحدّ من الولاء للطّائفة تعتبر تقدّمًا وتسهم في رصّ صفوف المواطنين.

خامسًا: تفعيل الحوار الثّقافي والوطني المعمّق والمتواصل للمشاركة في التّطوّر الثّقافي والتّكنولوجي. إنّ مبادرة الحوار في سبيل الحداثة تتلاءم، بطابعها الإنساني، مع هويّتنا اللبنانيّة، كما يطلب منّا أن نعمل لتقوية حقوق الإنسان وبنوع خاصّ حقوق المرأة كأمّ وكمواطنة كاملة الحقوق.

سادسًا: إنماء الذّاكرة الجماعيّة للمواطنين من أجل تعميق انتمائهم السّياسي والثّقافي والتّراثي، بإغناء المكتبات وتعميمها على المناطق كافّةً ومضاعفة المؤتمرات والمحاضرات في سبيل توعية أكمل.

سابعًا: خلق بنى تحتيّة، على الصّعيد الوطني، لاستقبال الشّبيبة وللحدّ من الهجرة والبطالة، وتأهيلها بطريقة حديثة وتأهيل الجامعات ورفع مستواها الأكاديمي من أجل ثقافة أفضل، وهل من الضّروري أن نزيد على هذه تنقية ثقافتنا التّاريخيّة من الرّواسب التي تثير الحقد والشّعور بالمرارة بالتّركيز بنوع خاص على هذه الحقيقة العالميّة وهي أنّ بناء الأمّة لا يتمّ ولا يكتمل من دون تمزّقات وآلام وأنّ تخطّيها لا تجاهلها أو طمسَها يوطّد السّلام ويساعد في التّطوّر.

ثامنًا: تجديد متواصل للقيادات السّياسيّة والإداريّة بالانتخابات الدّستوريّة، فلا نعيد اختيار الذين فشلوا أو أساؤوا إلى المصلحة العامّة والأهداف الوطنيّة الكبرى.

تاسعًا: المحافظة على بيئتنا ومدانا الحيوي وقد تشوَّه، فنعَلِّم أولادنا أنّنا لا نملك هذه الثّروات الطّبيعيّة حتّى نسمح لنفسنا بأن نبدِّدها ونشوِّهها ولكن لنا فقط حقّ الإنتفاع منها حتّى نسَلِّمها كإرث مقدّس لا بدَّ منه لحياة الأجيال القادمة وبهذا نساهم في خلق الحلم الذي تكلّم عنه Martin Luther King لنسلِّم أبناءنا وطنًا مثالاً للدّيمقراطيّة وكرامة الإنسان.

عاشرًا: تفعيل الجانب الإجتماعي من مقرّرات الإرشاد الرّسولي والسّينودس الكنسي لأجل إعادة اللُحمة وتمتينها بين الإدارة الكنسيّة والمؤمنين على مختلف الأصعدة.

قد يُظَنُّ أنّ هذه الفرائض والتّوصيات هي خيالات وهميّة أو مثاليّات يَصْعُب تحقيقها.

إنّ أمّة غنيّة بتعدّديّتها الثّقافيّة ومواهبها الطّبيعيّة إذا ما اتّحدت ووضعت كلّ إمكاناتها في خدمة الرّقي والتّقدّم تستطيع، بقوّة إيمانها بالله وبالإنسان، أن تكمل بنجاح مغامرتها الإنسانيّة فتفرض ذاتها مثالاً للدّيمقراطيّة وحقوق الإنسان كما للحداثة والتّطوير، حتّى لا يحاول الغرب أن يفرض علينا الديمقراطيّة وحقوق الإنسان بل تتعمّم هذه بالعدوى انطلاقًا من لبنان المتجدّد أبدًا بقواه الذّاتيّة وديناميكيّة أبنائه.

هل انتهى عهد الكبار؟[44]

سؤال يطرحه اللبنانيّون اليوم، عندما يرون الأزمات تتوالى والأعاصير تعصف من كلّ جهة وصوب وأركان البيت تتزعزع، والمبادرات المتقطعة والخجولة تتداعى ولا حلول ولا مَن يتطوّع لإطفاء الحريق وتخليص البلد من أزماته الدّاخليّة والخارجيّة، فكأنّ عهد الكبار الذين صنعوا الإستقلال وضحّوا بذواتهم قد ولّى.

يقول المفكّر السّياسي منح الصّلح في مقاله عن "عروبة البطريرك صفير" في عشرينيّة بطريركيّته (جامعة سيّدة اللويزة، 2006) "وُلِدَ لبنان كمشروع وطنٍ لجيمع أبنائه... يملك حقّ الوجود السياسي والوطني الحرّ لحظةَ أن تجاوزت الطائفة المارونيّة، بالميثاقيّة الجامعة للطوائف والمنسّقة بينها، نزوات التفرّد الطّائفي وغير الطائفي"... وفي عهد الرّئيس بشارة الخوري وحكومة رياض الصّلح "أُعلِنَ استقلال لبنان شرقًا وغربًا... لا مقرًّا للإستعمار ولا ممرًّا، دولة ذات ولاءٍ لشعبها فقط...

44- جريدة النهار بتاريخ 19 تموز 2007.

والبطريركيّة المارونيّة هي التي، على مرِّ الأيّام، وبجُهدٍ مستمرّ ومواظبة دؤوبة تفصيليّة حاكت خيوط النَّسج البشري الحي لهذه الميثاقيّة".

وفي كتيّب "الوصايا" (دار النهار، 2002) يُقَدِّم الإمام محمّد مهدي شمس الدين "الشيعة اللبنانيين" "كنموذج للنّجاح وحيد، تحقّق للشيعة عامّة في العصر الحديث (ص 31) وأنّ خروجهم من دائرة الحرمان إلى الحياة الحديثة (ص 35) والفكر الحديث لم يكن على قاعدة التشيّع وإنّما كان على قاعدة الحداثة"، وكان ذلك في لبنان بعد أن أُعيد تكوين دولة لبنان في سنة 1920... وإنّ أبرز وأنضج صيغة أرسيناها هي: أنّ لبنان هو وطن نهائي لجميع أبنائه... وأنّ هذا المبدأ وُضِعَ ليس فقط إستجابة وترضية للمسيحيين، بل كان ضرورة للإجتماع اللبناني ولبقاء كيان لبنان، ليس لمصلحة لبنان وشعبه فقط وإنّما لمصلحة العالم العربي... وحتّى لمصلحة جوانب كثيرة من العالم الإسلامي" (ص 48).

هذا اللبنان كما أراده المؤسسون القدامى، وكما عمل له بإخلاص وتفانٍ رجالات عظام، واستشهد في سبيل فرادته وحرّيته واستقلاله نخبة من رجال السّياسة والفكر والصّحافة على اختلاف انتماآتهم وآرائهم السّياسيّة والإجتماعيّة وأوصى بالحفاظ عليه الإمام محمد مهدي شمس الدين وطناً لحداثة الإنسان ورقيِّه! هلا يزال هذا اللبنان يستهوي الكبار و يلهمهم التّضحية في سبيله و العمل على تخليد رسالته الانسانيّة في هذا الشّرق المتصدّع؟

إنّ الخلاف السياسي والاجتماعي - الحضاري الذي بلغ اليوم حدَّ الإنفجار ليس خلافًا على طريقة الحكم ونوعيّته، كما يُظنّ ، بل هو خلاف

على نوعيّة الحياة المشتركة فيه وربّما على وحدته ونهائيّة وجوده حرًّا سيّدًا مستقلاًّ. **والحقيقة تقال أن لا قيمة لولاءٍ وطني ما لم يُوظَّف عمليًّا لبناء دولة حرّة مستقلّة، ولا حياة لدولة حرّة سيّدة مستقلّة مع وجود مشاريع موازية أو مناقضة لمشروع الدولة الحرّة السيّدة المستقلّة.**

لا يجوز أن يتحوّل شعار الولاء للوطن غطاء للسيطرة على الآخر والإستئثار بسلطة الدولة، خصوصًا وأنّ كلّ مشاريع الهيمنة سقطت عبر التاريخ اللبناني القديم والحديث كما يقول المفكّر السياسي الاستاذ سجعان القزّي: "سقطت مع السنَّة إبّان العصور الأمويّة والعباسيّة والمملوكيّة. سقطت مع الشيعة أيّام الفاطميين. سقطت مع الدروز زمن الإمارة كما سقطت أخيرًا مع الموارنة في دولة لبنان الكبير. واللافت في هذا الإطار أمران: الأمر الأوّل هو أنّ الهيمنة تشكلّ نقطة ضعفِ الفريق الذي يمارسها، وهو يصبحُ مصدرَ خطر على لبنان. والأمر الثّاني هو أنّ لدى سقوطها، لا تنتقل الهيمنة إلى طرف لبناني آخر بل إلى إحتلال خارجي جديد."

نحن اليوم أمام فرصتين: الأولى أن نتعلّم من تجارب التاريخ فلا نمارس هيمنة ولا نسمحُ باحتلال أو وصاية. والثانية أن نلتقط الظروف العامّة الذّهبية المتاحة: أي الإعتراف النّهائي بلبنان، والتحرير الجغرافي، والوعي الوطني، والتضامن المسيحي - السنّي - الدرزي من جهة، والتضامن المسيحي - الشيعي من جهة ثانية، وأخيرًا الإهتمام العربي ورعاية المجتمع الدولي. نعم نحتاج لهذه كلّها حتّى نبني لبنان الدولة الواحدة الديمقراطيّة، المؤمنة، المدنيّة. وإلاّ ستعود إلينا "عثمنة" جديدة بوجوهها المتعدّدة: الإحتلال والتّقسيم والإنحطاط. إنّ على

حدودنا البريّة والبحريّة والجويّة أكثر من سلطنةٍ تنتظر ذريعة العودة...

إنّ هذا الزمن هو زمن تقرير المصير لا التّسويات الموقّتة. فالتّسوية تدبير مسموح به لوقف حالة عنف ما، لكنّها لا تشكّل قاعدة لحلّ كلّ مشاكل الشّعوب. القاعدة الأكيدة هي الإتّفاق على ميثاق وطني يقوم عل مرتكزات واضحة لا لبس فيها ولا مواربة، لا خبث فيها ولا انتظار أوّل فرصة للإنقضاض عليه ونسفه من الداخل أو بالتواطؤ مع الخارج. وإذا كانت الحلول الجذريّة مستحيلة في لبنان، لأنّها تؤدّي إلى غالب ومغلوب فإنّ الإتفاق الشفّاف ممكن بل ضروري للحؤول دون بلوغ الأزمات مرحلة العنف...

إنّ المرحلة الحاليّة تسمح للبنانيين اختيار نوعيّة دولتهم. الميثاق الوطني سنة 1943 كان تسوية تاريخيّة لإنطلاقة الإستقلال، واتّفاق الطائف سنة 1989 كان تسوية تاريخيّة لوقف العنف. أمّا اليوم، ومن دون المسّ بروح الميثاق والطائف، **لا بدّ للبنانيين من أن يبتدعوا ملحقًا تاريخيًا يعطي لصيغة التّعايش الطائفي بعدًا مدنيًا، يوجِّه الولاء للوطن وحده، ولصيغة الوحدة الوطنيّة مساحة لامركزيّة تُنَمِّي المناطق جميعها بالتّساوي، ولصيغة التعدّدية الحضاريّة أفقًا توافقيًا. لقد أنهكت السياسةُ الطوائف، وسجنتِ المركزيُّةَ الوحدةَ وأساء العدد إلى التعدّدية.**

لا يستطيع اللبنانيّون أن يكملوا الطريق معًا ما لم يتخلَّ كلّ فريق عن مشاريعه الخاصّة، سيّما وأنّ هذه المشاريع تُتْعِبُ حامليها وتسبّب بدمار الوطن المثال. لا يستطيع اللبنانيّون أن يلعبوا لعبة العدد في الداخل، ولا لعبة الإنحياز إلى الخارج، حتّى لو توفّرت فرصُ ممارسة اللعبتين أو إحداهما.

إنّ إحتكام الديمقراطيّة، في مجتمع تعدّدي إلى الأكثريّة العدديّة فقط، يشبه تمامًا استعمال أقليّة حاكمة القوّة في نظام ديكتاتوري. كما أنّ انحياز دولة مركّبة من مجموعات مختلفة كلبنان، إلى الخارج، من شأنه أن يهدّد كيان الدولة ونظامها. وها نحن اليوم على هذا الشفير الخطر. خطوة واحدة رعناء تسقطنا، وخطوة واحدة حكيمة تنقذ وحدتنا ولبنان.

وما دمنا متّفقين على تشخيص الأخطار فحريّ بنا أن نتلافاها عبر اتّحاد وطني حقيقي، على غرار ما فعلت الشعوب التي مرّت بمآسٍ شبيهة بمآسينا، لكنّها وطّدت وحدتها ورسمت حدودها وحيّدت دولتها وثبّتت كيانها وأسقطت من منطقها مفهوم الإنتصار والهزيمة، وأرست مكانه مفهوم النّجاح والفشل.

لقد اكتشف الجميع - وهذا أمر إيجابي - أنّ مبدأ العدد في لبنان مفهومٌ نظريٌّ تُعطّله التحالفات الظّرفية فتجعل العدد "ورقة" متنقّلة من طرف إلى آخر حسب العلاقات السياسيّة. ولنا من التاريخ القديم والحديث أمثلة على ذلك.

لقد شهد تاريخُ لبنان حصول مثل هذه الحالات. فكلّ مرّة لم نحترم الآخر، بغضِّ النّظر عن الأكثريّة والأقليّة العددية، وقعت الأزمات والتدخّلات الخارجيّة والحروب: حين اتّفق الماروني والدرزي (الإمارة) حرد المسلمون، وحين اتفّق الماروني والمسلم السنّي (الميثاق الوطني) حرد الدروز، وحين اتّفق الماروني والسنّي والدرزي (إنتفاضة 14 آذار) انتفض الشيعة. وحين اتّفق الجميع (ولو باطنيًّا) خرج الغرباء واستعاد لبنان وحدته وسيادته واستقلاله.

إنّ الديمقراطيّة التّوافقيّة صيغة، ذاتُ بُعدٍ بَنَّاء وضَعَها المشرعون لتوفير توافق على القضايا الوطنيّة في مجتمع تعدّدي. ومع أنّها ضَمَنَتْ حقّ النّقض لكل مجموعة يتشكّل منها المجتمع، فلا يجوز استغلالها لتأخير حركة التقدّم والحؤول دون تحقيق المشاريع المتعلّقة بالسيّادة والإستقلال والعدالة والأمن.

إنّ المسيحيين عمومًا، والموارنة تحديدًا، اعتمدوا الديمقراطيّة نظامًا لدولة لبنان الحديث نتيجةَ إيمانهم بلبنان بعيدًا من مفهوم العدد. لقد اختار المسيحيّون لبنان وطنًا نهائيًّا ودولة مستقلّة وموحّدة، حين كانوا أقليّة، واختاروه حين صاروا أكثريّة، وحافظوا على خيارهم حين زادَ عددهم في الخارج. اختار المسيحيّون كلّ الجبل حين كانوا معزولين كغيرهم من الطوائف في شمالي جبل لبنان، واختاروا كلّ لبنان حين كانوا منحصرين في الجبل فقط. لم يتأثّر ولاؤهم للبنان بالعدد بل بالقدرة على التوافق مع الآخرين بدءًا من الدروز وصولاً إلى كلّ المسلمين. لذلك لا ننتصر إن تضاعف عددنا في لبنان، ولا ننهزم إن تعاظم عددنا في المهاجر. عزّتنا ومناعتنا مرتبطة ببقاء لبنان أرضَ الحوار والتعايش المسيحي الإسلامي. من أجل ذلك مطلوب أن يتوافر الإعتدال الديني قبل الإعتدال السياسي. ويدفعني حدسي إلى الجزم أنّ اللبنانيين سيختارون اللقاء في الإعتدال بعيدًا من التّنابذ في التطّرف.

كلمة أخيرة أقولها للسادة الممثلين للمسيحيين والموارنة: لقد أنقذتم الوطن مؤخّرًا عندما لم تأخذوا موقفًا مع فئة دون الأخرى ولكن ألا تظنّون أنّكم تسيئون اليوم إلى التاريخ وإلى نضال الآباء والأجداد إذا بقيتم حيث

أنتم؟ ألا تظنّون أنّ عليكم أن توحّدوا صفوفكم أوّلاً حتّى تستطيعوا توحيد شركائنا في الوطن على مشروع لبنان الوطن الموحَّد الحرّ المستقلّ؟ فالوطن الذي أقامكم الشعب قيّمين على استقلاله يريدكم قادةً وموجّهين، **يريدكم قوّة توحيد، ولن تتحوّلوا إلى قادة وإلى قوّة توحيد إذا لم تتوحّدوا أنتم أوّلا خدمة للبنان وللقضيّة اللبنانيّة.**

كلّنا يعلم أنّ أعداء الإستقلال اللبناني لم يُمعِنوا في اضطهادكم وإذلالكم منذ أكثر من ثلث قرن إلاّ لأنّهم قد عرفوا جيّدًا أنّكم سند الإستقلال ودعامة الحريّة.

والشعب اللبناني الذي اختاركم لا يريدكم اليوم أن تعملوا بذهنيّة الثلاثين سنة الماضية بل بتصميم وعناد وجرأة وتضحيات البُناة الأوّلين.

لمثل هذه السّاعة اختاركم وحمّلكم هذه المسؤوليّات، ولنعلم جيّداً أنّ للقيادة روحيّةً وصوفيّة ترقى إلى درجة القداسة. **فلنكن قديسي القضية اللبنانيّة ولنُرجِع إلى لبنان عهدَ الكبار والبُناة الأوّلين.**

—— الخاتمة ——

لبنان لن يتطوّر وحده بمعزل عن المحيط العربي

في خاتمة هذا الكتاب، وتوضيحاً للغاية من نشر هذه الدراسات والمقالات رأيت أن أقسمها إلى قسمين:

قسم أوّل يرسم صورة لبنان، ابتداء من نشأة الموارنة في سوريا الشماليّة، وانتقالهم إلى جبل لبنان وتموضعهم فيه، وصولاً إلى مساهمتهم الكبرى والأساسيّة في إرساء دولة لبنان الكبير، التعدّدي والديمقراطي.

وقسم ثانٍ يتألّف من مجموعة مقالات وتحاليل ظرفيّة تصف التراجع التدريجي، والجمود القاتل الذي أصاب الدولة وأقعدها عن التطوّر والتقدّم، بسبب تَنافس المسؤلين وصراعاتهم، وبعض الاحيان، عدم كفاءتهم.

هذه المقالات، لم أكن لأكتبها وأعيد نشرها في هذا الكتاب، لأصف واقعاً مريراً بدأ يتسرّب إلى جسم الوطن، أو لأسمع جواباً متشائماً أو ساذجاً عن مستقبلٍ للبنان في متحف التاريخ، بل أوردتها تأكيداً لحقيقة أؤمن بها إيماناً ثابتاً وأريدها أن تتحقّق، وهي أنّ لبنان هذا لن يزول، ولكن أيضاً، **لن يتطوّر وحده** بمعزل عن المحيط العربي.

ومن يؤمن بلبنان، كما أؤمن به أنا، كما قال شارل مالك، ومن يحبّه ويعمل له، كما يحبّه الكثيرون ويعملون له، لا يستطيع إلاّ أن يتمنّى له البقاء ودوام الإشعاع، لأنّه، بالنور والعلم والمعرفة يدوم الإشعاع، ويبقى لبنان ويخلد كمثال لدول الشرق الأوسط. واليوم، وقد تحرّك هذا المحيط، وعصفت رياح الحرّية في أرجائه، بعدوى من لبنان دون شك، من اللازم والضروري أن ينتفض من رماده، كطائر الفينيق، فيطرد تجّار الهيكل، ويجدّد إيمانه بالقيم الروحيّة والإنسانيّة التي بُنِيَ عليها، ويفرض نُخَباً قياديّة رؤيويّة، حكماء وقديسين لا همّ لهم سوى خير الانسان وتقدّمه وترقّيه، وقد تعرّفوا بالعمق إلى تاريخه وأحبّوه وأحبّوا رسالته الانسانيّة.

من هذه النخبة القائدة والموجّهة انتقيت اسمين مثالين، للقارئ الحبيب، نَظَرا إلى لبنان، كلٌّ من زاويته الخاصة، والتقيا على محبّته والإيمان به مثالاً، يُقَدَّم للعرب واللبنانيين والعالم، هما: البابا يوحنا بولس الثاني، في إرشاده الرسولي: "رجاء جديد للبنان"[45]، والإمام محمد مهدي شمس الدين في كُتَيّب "الوصايا"[46] الذي تركه إرثاً لشعبه.

البابا يوحنا بولس الثاني

يقول البابا يوحنا بولس الثاني في المقدّمة: "عندما دعوت في حزيران 1991 سينودس الأساقفة إلى جمعيّة خاصة من أجل لبنان، **كان وضع البلد مأساويًا، ولبنان مزعزعاً تماماً في كلّ مقوّماته**. فدعوت الكاثوليك المقيمين على هذه الارض إلى المباشرة بمسيرة صلاة وتوبة تتيح لهم أن يتساءلوا أمام

45- «قضايا وافكار من اجل رجاء جديد للبنان»، مقال للأباتي بولس نعمان، دير سيّدة النصر غوسطا، 1998، ص 109.
46- «الوصايا»، دار النهار، 2002.

الرب عن أمانتهم للإنجيل وعن إلتزامهم الفعلي في إتّباع المسيح" . من هذا النص نعرف أن **الارشاد بدأ حالة قلق ومعاناة في نفس قداسته حول مستقبل لبنان**، عبّر عنها بالدعوة إلى مسيرة صلاة وتوبة، كما نعرف أيضاً، أن في ذهن قداسته تلازماً بين صدق الكاثوليك وشهادتهم والتزامهم الإنجيل، وبين وجود لبنان سالماً وفي كامل عافيته وعطائه. فكأنّ صحة لبنان وعافيته هي من صحّة اللبنانيين الروحيّة وعافيتهم، وبنوع خاص القادة والموجّهين.

وبما أنّ الرجاء بمستقبل أفضل للبنان، **يرتبط مباشرةً "بوحدة المسيحيين فيما بينهم"**، ويهدف إلى إعادة بناء البلاد على الصعيدين، الماديّ والروحيّ، لذا دعوت المسيحيين، **كما دعوت الجماعات الإسلاميّة والدرزيّة الى أن تشترك هي أيضاً في هذا المشروع**[47].

ولكن لماذا الإصرار على إعادة بناء لبنان؟ هل للبنان، في نظر قداسته، موقع خاص؟

نعم، يكمّل قداسته، للبنان دعوة خاصة مع الجوار وتضامن حتميّ مع العالم العربي:

- لأنّ لبنان جزء لا يتجزّأ من العالم العربي، ولأنّ مصيراً واحداً يجمع المسيحيين والمسلمين في لبنان وفي باقي دول المنطقة.

- لأنّ ثقافة المسيحيين الخاصة تحمل روافد الحضارة العربيّة وغيرها من الحضارات المتعاقبة على لبنان.

- لأنّ المسيحيين عامةً لا يتميّزون عن غيرهم من الناس، بل يتكيّفون مع العادات المحلّية: **من دون التخلي عن خصائصهم وطريقة عيشهم.**

47- «قضايا وافكار من اجل رجاء جديد للبنان»، ص 110.

- لأنّهم قد قاموا بهذه المهمّة سابقاً **فهو يَرْغَبُ إليهم اعتبار انضوائهم إلى الثقافة العربيّة، التي أسهموا في صنعها إسهاماً كبيراً، موقعاً مميزاً، لكي يقيموا، هم وسائر مسيحيي البلدان العربيّة، حواراً صادقاً وعميقاً مع المسلمين**: ليبنوا معاً مستقبل عيش مشترك وتعاون يهدف إلى تطوير شعوبهم تطويراً إنسانيّاً وأخلاقيّاً.

- **لعلّ هذا الحوار والتعاون في لبنان، يؤدي إلى ما يماثله في البلدان الاخرى**، وهنا يلتقي قداسته مع ما استدركه سابقاً كمال الصليبي **بأنّ ظروفاً قد تأتي تسمح للبنانيين بأن ينقلوا هذه الرسالة إلى غيرهم.**

الامام محمد مهدي شمس الدين

أما الإمام محمد مهدي شمس الدين فقد قدّم للشيعة عامة نموذجاً للنجاح أكيداً، وهو ما تحقّق لشيعة لبنان أوّلاً، في العصر الحديث: "**لأن خروجهم من دائرة الحرمان إلى الحياة الحديثة والفكر الحديث لم يكن على قاعدة التشيّع، وإنما على قاعدة الحداثة**"، **وكان ذلك في لبنان بعد ان أعيد تكوين دولة لبنان في سنة 1920**... وإن أبرز وأنضج صيغة أُرسِيت أُسُسُها آنذاك، هي: **أن لبنان هو وطن نهائي لجميع أبنائه**... وأن هذا المبدأ وُضع ليس فقط استجابة وترضية للمسيحيين، بل كان ضرورة للاجتماع اللبناني، ولبقاء كيان لبنان، ليس لمصلحة لبنان وشعبه فحسب، **وإنما لمصلحة العالم العربي... وحتى لمصلحة جوانب كثيرة من العالم الاسلامي.**

وهنا ايضاً يلتقي سماحته مع قداسة البابا والمؤرّخ كمال الصليبي:

هذا اللبنان كما أراده الموارنة المؤسسون، وكما عمل له باخلاص وتفانٍ

رجالات عظام، واستشهد في سبيل فرادته وحرّيته واستقلاله نخبة من رجال السياسة والفكر والصحافة على اختلاف انتماءاتهم وآرائهم السياسيّة والاجتماعيّة، وأوصى بالحفاظ عليه كلّ من قداسة البابا يوحنا بولس الثاني والإمام محمد مهدي شمس الدين، وطناً لحداثة الانسان المشرقي ورُقيه.

ولكن، **هلاّ يزال يستهوي القادة والمفكّرين ويلهمهم التضحية في سبيل بقائه والعمل على تخليد رسالته الإنسانيَة** في هذا الشرق الثائر على نفسه؟

أوَ ليس لبنان، والحرّية التي يتمتّع بها أبناؤه، هي من جملة العوامل التي أوحت هذه الانتفاضة العربيّة؟ إن للحرّية وكرامة الإنسان مفعول سحري، ألم يكن شعار الثورة الفرنسيّة، **الحرّية والأخوّة والمساواة؟**

نعم، وقد طالت هذه الثورة كثيراً واستُغِلّت أهدافها مراراً حتى استقرّت على ما فيه خير الإنسان الفرنسي والأوروبي.

كذلك الثورات العربيّة هذه لن تدوم إلى الأبد، بل سوف تستقرّ هي أيضاً على خير الإنسان المشرقي، وخير لبنان وتألّق نجمه الساطع.

الأباتي بولس نعمان

الكسليك في 28 آذار 2014

فهرس

Dar Saer Al Mashrek Publications 2014	دار سائر المشرق منشورات ٢٠١٤

رؤية وخريطة طريق	انطوان نجم
انابيب حمراء: لماذا سوريا؟ ولماذا الآن؟	أنطوان مرعب
المقامات الصوفيّة في شعر ربيعة ابي فاضل	ناتالي الخوري غريب
الخواجة (طبعة ثالثة)	محمد طعان
تلّة الملاح	جان هاشم
لبنان الموارنة الى اين؟	الأباتي بولس نعمان
لبنان بين الطوائف (١٩٢٠-١٩٩٠)	ارمان عساف
التوافقية وادارة التعددية اللبنانية	مجموعة مؤلّفين
اقتراض الشّعر لا قرضه	هاني فحص
نيو سدوم... وَحَكَم الشيطانُ الأرض	إيلي صليبي
المواطنة والدّولة المدنيّة في الفكر الإسلاميّ المعاصر	محمد زيدان
القوّات اللبنانيّة، نشأة المقاومة المسيحيّة وتطوّرها	نادر مومني
جمهوريّة خارج الكهف	غسان حاصباني
ميخائيل نعيمه وكمال جنبلاط، شاعران في معراج الصّوفيّة	ناتالي الخوري غريب
للجبل عندنا خمسة فصول	ماري القصيفي
رجلٌ ضدّ الله	سمير زكي
سرُّ المئة عام	شبل عيسى الخوري
توهّج البصيرة بغياب البصر	نضال الأميوني دكاش
زمن الحصار	غسان الديري
براعم خريف	أمين زيدان
مذكّرات ناسك مجنون	غبريال عطو
بيروت بأقلام الشعراء: صراع القِمّة والهاوية	جان نعوم طنوس
Mondialisation: droit international ou droit mondial?	*Rodrigue Abi Khalil*

"حقيقة أؤمن بها إيماناً ثابتاً وأريدها أن تتحقّق.
وهي أنّ لبنان هذا لن يزول. ولكن أيضاً،
لن يتطوّر وحده بمعزل عن المحيط"

ب. ن.

شارل مالك، "في الموارنة ولبنان"

«كلّنا مسؤولون عن لبنان. كلّ لبناني، كلّ طائفة مسؤولة عنه... غير أن الموارنة مَسؤولون بشكلٍ خاص... فأن توانوا، وقعنا جميعاً في الحيرة والبلبلة. وإن حزمُوا أمرهم وقادوا، اشتدّت عزيمتنا.

على أيّ أساس يقودون؟

يقودون أوّلاً، على أساس سيادة لبنان واستقلاله التامين...
يقودون ثانياً، على أساس الحرص على الحريّة الكيانيّة الشخصيّة...
يقودون ثالثاً، على أساس الحرص على اتصاليّة لبنان الحرّة بجميع مصادر الحق والحقيقة والنور...
يقودون رابعاً، على أساس رَفع أي غُبن أو إجحاف... بحق أي طائفة...
يقودون خامساً، على أساس إزالة أي حرمان، عن أيّة فئة...
يقودون سادساً، على أساس التعاون الحرّ مع إخواننا في البلدان العربيّة...»

ميشال شيحا، "لبنان في شخصيته وحضوره"

«لبنان معينٌ لا ينضب، من خلاله نَستشفُّ العالم، مثلما أستشفّ البحر من وراء نافذتي...
كم أخشى لفرط التبحّر فيه والكلام عنه أن أشيع الملل... لكنّ المادّة اللبنانيّة تترامى على أبعاد التاريخ. فنحن، منذ كنّا، شهود على نشأة الشعوب...»

9789953569673

مدرسة سيدة حوقا وهي أول مدرسة مارونية. يشغلها اليوم الحبيس
سكوبار الكولومبي الأصل،
وتنفيذ الغلاف: جوني كارليتش